نقد البنىٰ الفوقية للحداثة

(٣)

دفاع عن

السُّنَّة النبويَّة

تأليف

السيِّد صدر الدين القبانچي

الجامعة الإسلاميَّة/ النجف الأشرف

إصدارات وحدة الدراسات والبحوث (٧٠)

نقد البنىٰ الفوقية للحداثة (٣)
دفاع عن السُّنَّة النبويَّة
تأليف
السيّد صدر الدين القبانچي
الجامعة الإسلاميَّة/ النجف الأشرف
إصدارات وحدة الدراسات والبحوث (٧٠)
الطبعة الأُولىٰ: ١٤٣٧هـ
العدد: ١٥٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلّف:

الحمد لله وصلّىٰ الله علىٰ خير خلقه محمّد وآله الطاهرين.

وبعد..

التعريف بالكتاب:

هذا الكتاب هو الحلقة الثالثة من سلسلة (نقد البنىٰ الفوقية للحداثة)، وقد كنّا في الحلقة الأُولىٰ قدَّمنا (دفاع عن العقل)[1]، إذ عرضنا الرؤية الإسلاميَّة للعقل، وناقشنا الرؤية الحداثية للعقل.

وفي الحلقة الثانية قدَّمنا (دفاع عن القرآن)[2]، إذ عرضنا الرؤية الإسلاميَّة للقرآن، وناقشنا الرؤية الحداثية للقرآن الكريم.

وهذه هي الحلقة الثالثة (دفاع عن السُّنَّة النبويَّة).

لقد حاولنا في هذه الحلقة الثالثة أن نعرض ونناقش الإشكالات الحداثية علىٰ السُّنَّة النبويَّة بعد أن عرضنا وناقشنا إشكالات الحداثة علىٰ العقل والقرآن في الحلقة الأُولىٰ والثانية، وكنّا قد عرضنا وناقشنا الأُسس

---

(١) دفاع عن القرآن دراسة نقدية مقارنة بين الحداثة والإسلام، سلسلة البنىٰ الفوقيَّة للحداثة (١)، الجامعة الإسلاميَّة، إصدار وحدة الدراسات والبحوث (٤٩).

(٢) دفاع عن القرآن دراسة نقدية مقارنة بين الحداثة والإسلام، سلسة البنىٰ الفوقيَّة للحداثة (٢)، الجامعة الإسلاميَّة، إصدار وحدة الدراسات والبحوث (٤٨).

الفلسفية للحداثة[(١)] في كتاب مستقلّ تحت عنوان (نقد الأُسس الفلسفية للحداثة)[(٢)].

نظرية الكتاب:

وتتلخَّص نظرية الكتاب في الاعتقاد بأنَّ السُّنَّة النبويَّة تتمتَّع بذات الحجّية والاعتبار الذي يتمتَّع به القرآن الكريم، مؤكّداً بطلان المزاعم الحداثية التي تعمل علىٰ سلب الحجّية من السُّنَّة النبويَّة، وكما كان القرآن الكريم عالمياً فإنَّ سُنَّة الرسول الأكرم ﷺ هي الأُخرىٰ عالمية عابرة للزمان والمكان، وقادرة علىٰ معالجة مشاكل العصر، مضيفاً أنَّ سُنَّة أهل البيت عليهم السلام هي امتداد لسُنَّة الرسول الأكرم ﷺ، وأنَّ النبيَّ وأهل بيته عليهم السلام منحهم الله تعالىٰ صفة العصمة من الخطأ والذنب، وهم يمتلكون مصادر تعليميَّة إلهيَّة غير التي يتملَّكها سائر البشر، مناقشاً النظرية الحداثية التي تسلب العصمة عنهم وترىٰ أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم مجرَّد علماء أبرار.

كلمة شكر وتقدير:

وبودّي أن أُشير إلىٰ أنَّ هذا الكتاب الذي بين يديك هو مجموعة محاضرات قدَّمناها لطلّابنا في الجامعة الإسلاميَّة في النجف الأشرف لعام (١٤٣٧) للهجرة الموافق لعام (٢٠١٦) ميلادياً، وقد جهدنا فيها

---

(١) تناول المؤلِّف في هذا الكتاب الصادر عن مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي عرض ونقد لأهم الأُسس الفلسفية للحداثة، وهي عبارة عن مبدأ النزعة الذاتية، ومبدأ العقلانية، ومبدأ الحركة وقانون التطوّر العامّ.

(٢) يشار إلىٰ أنَّ السيِّد القبانچي قد أصدر كتيّبات بحثية - عدا ما تقدَّم - تختصُّ بنقد الفكر الحداثي ميسَّرة ألقاها علىٰ شكل محاضرات، هي: لمحات في نقد الفكر الحداثي، ومطارحات في نقد الفكر الحداثي. (المحقِّق).

الاقتراب من ذهن الطالب وتبسيط المادَّة الدراسية له والاستعانة ببعض الشواهد والأمثلة التاريخية.

كما يهمّني أن أُقدِّم جزيل الشكر لولدنا العزيز حيدر الرمّاحي الذي بذل جهداً كثيراً في تدوين وتنضيد وإعداد هذه المحاضرات، وهي جهود لم أكن أستغني عنها لإخراج هذا الكتاب، والشكر موصول لولدنا العزيز الأُستاذ عادل الفتلاوي الذي قام بدور تحقيق نصوص هذه المحاضرات وإضافة الهوامش علىٰ كثير منها.

كما أتقدَّم بالشكر الجزيل لعمادة الجامعة الإسلاميَّة، وأساتذتها الكرام، وطلّابها الأعزّاء الذين وفَّروا لي فرصة تقديم هذه المحاضرات وهي فرصة أُتيح لي من خلالها التعايش مع مئات من جيلنا الشبابي الطلّابي الجامعي الذين أحببتهم وحاولت ملامسة قلوبهم والاقتراب من عقولهم، لنصنع جيلاً مؤمناً واعياً برسالته ومسؤوليته.

والحمد لله أوَّلاً وأخيراً.

صدر الدين القبانچي

١٠/ رجب/ ١٤٣٧هـ

المدخل

السُّنَّة النبويَّة بين رؤيتين

معنى السنَّة:

السُّنَّة الثالث: هي اصطلاح يُقصَد به قول النبيِّ ﷺ أو سلوكه من خلال عمل مباشر يعمله النبيُّ نفسه، أو عمل يقع أمامه فيُمضيه ولا ينكره، وهو المصطلح عليه بـ (التقرير)، ومن هنا جاء تعريف السُّنَّة النبويَّة لدىٰ الفقهاء وأئمَّة الحديث بأنَّها (**قول النبيِّ أو فعله أو تقريره**)[1].

الرؤية الإسلاميَّة للسنَّة:

ويرىٰ علماء الإسلام قديماً وحديثاً أنَّ السُّنَّة النبويَّة هي:

١ - المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم.

٢ - وأنَّها تحظىٰ بقدسيَّة بالغة.

٣ - وتمتدُّ قدسيتها وحجّيتها بامتداد الزمان والمكان والشعوب والأُمم، فهي ليست خاصَّة بأُمَّةٍ دون أُخرىٰ، ولا بزمان دون زمان.

٤ - كما يرىٰ علماء الإسلام أنَّ التطوّر المعرفي لدىٰ الإنسان عبر القرون لا يخدش بحجّية السُّنَّة النبوية ولا يتفوَّق عليها.

٥ - ولا يمكن أن يكون العقل البشري بديلاً عن السُّنَّة النبويَّة ما دامت كلمات الرسول الأكرم ﷺ تحظىٰ بالتسديد الإلهي والتعبير عن حكم الله تعالىٰ وأوامره ونواهيه كما سيأتي شرح ذلك تفصيلاً[2].

---

(١) سيأتي مزيد من التوضيح لذلك في الفصل الرابع لدىٰ الحديث عن مجالات السُّنَّة النبويَّة وأقسامها.

(٢) أُنظر الفصل الأوَّل من هذا الكتاب.

الرؤية الحداثية للسُّنَّة:

إلَّا أنَّ السُّنَّة النبويَّة في عصرنا الحاضر تعرَّضت إلىٰ مجموعة شبهات وإثارات تعمل علىٰ زعزعة الثقة بها، وهي الشبهات التي يثيرها الفكر الحداثي الجديد، إذ يطرح الحداثيون رؤية جديدة للسُّنَّة النبويَّة تقول:

١ - إنَّ السُّنَّة النبويَّة تُمثِّل اجتهادات شخصية للنبيِّ ﷺ، وليست وحياً إلهياً، ومن ثَمَّ فإنَّ سُنَّته لا تكون حجَّة علينا.

٢ - والنبيُّ بوصفه بشراً[1] فإنَّه يخضع للخطأ والصواب.

٣ - إنَّ السُّنَّة لا تتمتَّع بإطلاق زماني ومكاني، بل هي خاصَّة بزمان النبيِّ ﷺ ومكانه، وهذه هي الشبهة (التاريخانية).

٤ - إنَّ تدوين السُّنَّة النبويَّة جاء متأخِّراً وبعد أكثر من قرن من الزمان، وتأثَّر بعمليات الكذب والتحريف، فلا يمكن الاطمئنان إلىٰ صحَّة ما بأيدينا من مدوّنات حديثية.

٥ - من الطبيعي أن تشهد البشرية من خلال قانون التطوّر قفزة ثقافية تجعلها في غنىٰ عن سُنَّة النبيِّ ﷺ فضلاً عن شبهات وإثارات أُخرىٰ سنتعرَّض لها في الفصول الآتية.

وهذا الكتاب سيتناول بالعرض والاستدلال ما هي الرؤية

---

(١) علىٰ الرغم من أنَّ هذه الشبهة ليست حديثة، فقد (قامت محاولات علىٰ عهد رسول الله ﷺ وبعده للتشكيك بقيمة السُّنَّة، أمثال ما حدَّث به عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أُريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنَّك تكتب كلَّ شيء تسمعه من رسول الله ﷺ وهو بشر يتكلَّم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك للرسول، فقال: «أُكتب فوَالذي نفسي بيده ما خرج منّي إلَّا حقٌّ». (السُّنَّة في الشريعة الإسلاميَّة/ محمّد تقي الحكيم: ١٠). (المحقّق).

الإسـلاميَّة للسُّـنَّة النبويَّـة، ثـمّ يتنـاول بـالعرض والنقـد مـا هـي الرؤيـة الحداثية للسُّنَّة النبويَّة.

وسـوف تـدخل في بحوثنـا هـذه كثـير مـن التفاصـيل لكنَّهـا جميعـاً تـدخل في هـذين الإطـارين (الرؤيـة الإسـلاميَّة والرؤيـة الحداثيـة) للسُّـنَّة النبويَّة الشريفة.

بحوث الكتاب:

وعلىٰ ذلك فإنَّ الكتاب سيتألَّف من أربعة فصول وبحوث عدَّة:

الفصل الأوَّل: السُّنَّة النبويَّة في الرؤية الإسلاميَّة.

ويدخل تحت هذا الفصل البحوث التالية:

البحث الأوَّل: حجّية السُّنَّة النبويَّة والشواهد عليها.

البحث الثاني: لماذا الحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة؟

البحث الثالث: عالمية السُّنَّة النبويَّة.

البحث الرابع: مشكلة مستجدات العصر وطرق معالجتها.

البحث الخامس: عصمة النبيِّ ﷺ والدليل عليها.

الفصل الثاني: السُّنَّة النبويَّة في الرؤية الحداثية.

ويدخل تحت هذا الفصل البحوث التالية:

البحث الأوَّل: الشبهات الحداثية عرض وقراءة.

البحث الثاني: نقد الشبهات الحداثية.

الفصل الثالث: سُنَّة أهل البيت عليهم السلام.

ويدخل تحت هذا الفصل البحوث التالية:

البحث الأوَّل: عقيدتنا في سُنَّة أهل البيت عليهم السلام.

البحث الثاني: الإمامة الفكرية والسياسية لأهل البيت عليهم السلام.

البحث الثالث: مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الرابع: أقسام السُّنَّة النبويَّة ومجالاتها.

ويدخل تحت هذا الفصل البحوث التالية:

البحث الأوَّل: المقصود بالسُّنَّة النبويَّة.

البحث الثاني: أقسام السُّنَّة النبويَّة.

البحث الثالث: الإشكال الحداثي علىٰ السُّنَّة التشريعية.

البحث الرابع: مجالات السُّنَّة النبويَّة.

البحث الخامس: الإشكال الحداثي علىٰ التجربة النبويَّة في الحكم.

البحث السادس: نماذج من السيرة النبويَّة.

❊ ❊ ❊

الفصل الأوَّل

السُّنَّة النبويَّة في الرؤية الإسلاميَّة

البحث الأوَّل: حجّية السُّنَّة النبويَّة والشواهد عليها.

البحث الثاني: لماذا الحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة؟

البحث الثالث: عالمية السُّنَّة النبويَّة.

البحث الرابع: مشكلة مستجدات العصر وطرق معالجتها.

البحث الخامس: عصمة النبيِّ ﷺ والدليل عليها.

البحث الأوَّل
حجّية السُنَّة النبويَّة والشواهد عليها

حجّية السُنَّة النبويَّة:

يتَّفق المسلمون علىٰ أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ، بما تعنيه قولاً وفعلاً وتقريراً[1] هي مصدر أساس في الفكر الإسلامي عقيدةً وشريعةً، هذه المسألة هي من الإجماعيات الإسلاميَّة أو ما يُسمّىٰ بالضرورات والبديهيات الدينية، إذ لا يختلف المسلمون بكلِّ مذاهبهم فيما يُسمّىٰ بـ(حجّية السُنَّة النبويَّة) الحجّية التي تعني اعتماد السُنَّة النبويَّة واعتبارها مصدراً تشريعياً بعد القرآن الكريم[2].

(١) يقول السيِّد محمّد تقي الحكيم: (الحديث حول حجّية ما صدر عن النبيِّ من قول أو فعل أو تقرير، أوضح من أن يطال فيها الحديث، إذ لولاها لما اتَّضحت معالم الإسلام، ولتعطَّل العمل بالقرآن، ولما أمكن أن يُستَنبط منه حكم واحد بكلِّ ما له من شرائط وموانع، لأنَّ أحكام القرآن لم يرد أكثرها لبيان جميع خصوصيات ما يتَّصل بالحكم، وإنَّما هي واردة في بيان أصل التشريع، وربَّما لا نجد فيه حكماً واحداً قد استكمل جميع خصوصياته قيوداً وشرائط وموانع). (السُنَّة في الشريعة الإسلاميَّة/ محمّد تقي الحكيم: ١٠).

وذكر أبو رية في كتابه (أضواء علىٰ السُنَّة المحمّدية) آراء جملة كبيرة من علماء السُنَّة في تعريف هذا المصطلح إلَّا أنَّها جميعاً تقع ضمن تعريف شامل هو: (السُنَّة تُطلَق في الأكثر علىٰ ما أُضيف إلىٰ النبيِّ من قول أو فعل أو تقرير). (أضواء علىٰ السُنَّة المحمّدية/ محمود أبو رية/ ١٩٥٨م/ دار التأليف/ مصر). (المحقِّق).

(٢) وتكمن أهمّية السُنَّة النبويَّة في أنَّها المفسِّرة لأحكام وتعاليم الإسلام والشارحة للقرآن الكريم، إذ (أنَّ السُنَّة النبويَّة تكون تارةً ناظرة إلىٰ القرآن الكريم فتُبيِّن مجملاته كالزكاة والصلاة ⇦

الشواهد على حجّية السُّنَّة:

لكن علينا أن نبحث ما هي الأدلَّة والشواهد التي نُقدِّمها علىٰ الرؤية الإسلاميَّة بحجّية السُّنَّة النبويَّة، فهذه الرؤية علىٰ الرغم من بداهتها ووضوحها لكن قد جرىٰ التشكيك اليوم في هذه القضيَّة حيث اعتبر الحداثيون أنَّ (سلطة النصِّ) وما يُصطَلح عليه بحجّية السُّنَّة النبويَّة هو أمر طارئ علىٰ الإسلام، وقد أسَّس له الإمام الشافعي[1]

⇦ والصوم، أو تُخصِّص عموماته، أو تُقيِّد مطلقاته، وأُخرىٰ تكون ناظرة إلىٰ بيان العقيدة والشريعة فحسب، وفي كلا القسمين تكون الصياغة والتعبير للرسول ﷺ ولكن المحتوىٰ والمضمون وحي من الله سبحانه، ولذلك تُعَدُّ السُّنَّة عِدْلاً للقرآن الكريم، فالصلاة والزكاة والصوم والحجّ أُمور توقيفيَّة لا تُعْلَم إلَّا من قِبَل الرسول ﷺ، فهو المبيِّن لحقائقها وشروطها وموانعها، وقد صلّىٰ ﷺ وقال: «صلّوا كما رأيتموني أُصلّي»، وبذلك رُفِعَ الإجمال عن ماهيَّة الصلاة المأمور بها، ومثلها باب الزكاة والحجّ وغيرها من أبواب الفقه). (الحديث النبوي بين الرواية والدراية/ جعفر السبحاني: ١٠). (المحقِّق).

(١) هو أبو عبد الله محمّد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع الهاشمي المطّلبي. وُلِدَ سنة (١٥٠ هـ/ ٧٦٧م) في غزَّة بالشام، وأقام مدَّة في عسقلان، ثمّ انتقل إلىٰ مكّة وعمره سنتان، وفيها نشأ وتلقّىٰ العلم. وكانت له حافظة قويَّة، فقد حفظ القرآن وهو في السابعة من عمره، وحفظ موطأ الإمام مالك وهو في العاشرة من عمره في تسع ليال. ويُعَدُّ مفتي مكّة وشيخ الحرم المكّي مسلم بن خالد الزنجي من أبرز أساتذته، وقد لمس نبوغه وأذن له بالفتيا وهو ابن خمس عشرة سنة. وقد تمكَّن الشافعي من التوفيق بين الفقه والرأي، والتوسّط بين حديث مدرسة أهل الحجاز، ومدرسة أهل الرأي بالعراق. من مصنَّفاته نذكر: (الأُمّ) في الفقه، و(الرسالة) في علم الأُصول، و(الحجَّة)، وهو علىٰ ما يبدو أوَّل كتبه بدافع الردِّ علىٰ أصحاب الرأي، و(أحكام القرآن والسُّنَّة)، و(اختلاف الحديث)، و(فضائل قريش)، و(أدب القاضي)، و(المواريث)، و(الإمامة)، و(الحكم في تارك الصلاة)، و(إبطال الاستحسان). توفّي الشافعي بمصر سنة (٢٠٤ هـ/ ٨٢٠م). (اُنظر: الإمام الشافعي فقيه السُّنَّة الأكبر/ عبد الغنيّ الدقر/ ١٩٩٦م/ دار القلم/ دمشق، بتصرّف).(المحقِّق).

والسلطات السياسية الحاكمة ومسلمو الفتوحات في القرن الثاني للهجرة(١). من أجل ذلك سنكون مضطرّين لاستعراض بعض الشواهد علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة، وسوف نستشهد هنا بالقرآن الكريم أوَّلاً، وبالنصوص النبويَّة الشريفة ثانياً، وبالدليل العقلي ثالثاً.

الشاهد الأوَّل: القرآن الكريم:

أمَّا القرآن الكريم فنحن نجدهُ مليئاً بالآيات الدالّة علىٰ حجّية سُنَّة النبيِّ ﷺ، ونستطيع أن نذكر هنا:

أوَّلاً: الآيات الآمرة بإطاعة الرسول ﷺ مثل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (النساء: ٥٩)، النصّ الذي يتكرَّر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ويمكن أن نسرد هنا بعضها، مثل:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (آل عمران: ٣٢).

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (آل عمران: ١٣٢).

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنفال: ٢٠).

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

ومن الواضح جدّاً أنَّ الإطاعة للرسول ﷺ ليست خاصَّة بالنصوص القرآنية التي يتلوها علىٰ الناس، بل هي طاعة واجبة في كلِّ ما يصدر عنه ﷺ، كما هو واضح من سياقات الآيات ودلالتها.

(١) أُنظر: الإمام الشافعي/ نصر حامد أبو زيد: ٥١ و١١٧، ومن إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ١٠١.

كما أنَّ هذه الآيات ليس فيها ما يُبرِّر اختصاصها بزمان النبيِّ ﷺ، بل هي مطلقة كما أنَّ إطاعة الله تعالىٰ مطلقة لكلِّ زمان ومكان.

ثانياً: الآيات القرآنية التي تصف المؤمنين باستماعهم لرسول الله ﷺ وطاعتهم له، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ (النور: ٥١)، فمن الواضح أنَّ الاستماع لله تعالىٰ يعني الاستماع لوحي الله تعالىٰ وقرآنه، ولكن الاستماع لرسول الله ﷺ والطاعة له ستكون في أوامره وتوجيهاته النبويَّة وإن لم تكن نصّاً قرآنياً، وهذا يعني حجّية السُّنَّة النبويَّة.

ثالثاً: الآيات التي تأمر بالرجوع إلىٰ الرسول الأكرم ﷺ عند التنازع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩)، ومن الواضح جدّاً أنَّ الردَّ إلىٰ رسول الله ﷺ في المنازعات له معطىٰ آخر غير العودة إلىٰ النصوص القرآنية التي قد يعرفها كثيرون، إذن فالردّ إلىٰ رسول الله ﷺ يعني اعتماد سُنَّته فيما يقضي ويحكم بين الناس.

رابعاً: الآيات التي تنهىٰ عن حركة المُشاقَّة[1] والخروج علىٰ الرسول مثل: ﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً ﴿١١٥﴾﴾ (النساء: ١١٥)، ولا شكَّ أنَّ الخروج علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ وردّ كلامه هو صورة من صور المُشاقَّة التي وعد الله عليها بالنار كما في الآية الكريمة.

---

(١) (معنىٰ يشاقق الرسول يباين الرسول معادياً له، فيفارقه علىٰ العداوة، لأنَّ المشاقَّة هي المباينة علىٰ وجه العداوة). (التبيان في تفسير القرآن/ الشيخ الطوسي ٣: ٣٢٨). (المحقِّق).

خامساً: الآيات التي لا تسمح للمؤمنين بأيِّ خيار آخر غير ما يختاره الرسول الأكرم ﷺ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وهذا يعني أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ هي الحجَّة اللازم اتِّباعها علىٰ المؤمنين وعلىٰ طول التاريخ وليس محدوداً بزمان النبيِّ ﷺ.

سادساً: ومن الآيات الشاهدة علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب: ٢١)، فهي تُعطي لأعمال وأقوال النبيِّ ﷺ موقع الأُسوة والقدوة الذي يستحقُّ أن يُقتدىٰ به ويُتَّخذ كلامه كما يُتَّخذ عمله نبراساً للمسلمين، وهذا يعني أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ تحظىٰ بشرعية معطاة من الله تبارك وتعالىٰ.

والآية واضحة في أنَّ التأسّي برسول الله ﷺ ليس فعلاً ندبياً استحبابياً يحقُّ التزامه كما يحقُّ مخالفته، كلَّا، فإنَّ الآية تعدُّ التأسي برسول الله ﷺ ملازماً للإيمان بالله واليوم الآخر، كما قالت الآية: ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، فهؤلاء الذين يرجون الله واليوم الآخر صفتهم التأسّي برسول الله ﷺ، بما يعني علىٰ سبيل مفهوم المخالفة أنَّ من لا يتأسّىٰ برسول الله ﷺ هو ليس من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر.

سابعاً: ومن الآيات الشاهدة علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة قوله تعالىٰ: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ﴿٤﴾﴾ (النجم: ٣ و٤)، فرغم أنَّ هذه الآية جاءت ردّاً علىٰ تشكيك المشكّكين في الوحي الإلهي

المنـزَّل في القـرآن الكـريم إلَّا أنَّهـا ترسـم صـورة إيجابيـة مقدَّسـة مطلقـة عـن النبـيِّ ﷺ باعتبـاره منزَّهـاً عـن الخطـأ، فالآيـة مطلقـة حيـنما تقـول: ﴿وَمـا يَنْطِـقُ عَـنِ الْهَـوى ۝ إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحى ۝﴾ بـما يعنـي أنَّ جميـع نطـق النبـيِّ ﷺ وبخاصَّـة حيـنما يكـون في الشـأن العقيـدي والتشـريعي هـو لـيس نطقـاً عـن هـوىٰ وأنانيـات أو انفعـالات، وإنَّـما هـو تسـديد[1] مـن الله تبارك وتعالىٰ.

ثامنـاً: ومـن الآيـات التـي تشـهد لحجّيـة السُّـنَّة النبويَّـة قولـه تعـالىٰ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ وَمـا نَهـاكُمْ عَنْـهُ فَـانْتَهُوا﴾ (الحشـر: ٧)، فالآية مطلقة في أمرها بالأخـذ بكـلِّ مـا أتـىٰ بـه النبـيِّ ﷺ سـواءً كـان مـن نصـوص القـرآن الكـريم أو سـائر أوامـره ونواهيـه، فـلا يمكـن تخصيصـها بـالقرآن الكـريم وحـده، لأنَّ الآيـة تنسـب الأمـر والنهـي للرسـول نفسـه تقول: ﴿وَمـا آتـاكُمُ الرَّسُـولُ﴾، وتقـول: ﴿وَمـا نَهـاكُمْ عَنْـهُ فَـانْتَهُوا﴾، يعنـي أنَّ الرسـول ﷺ هـو الـذي يـأمر وينهـىٰ، ولـيس الحـديث خاصّـاً بالأمر والنهـي الإلهـي المبـاشر مـن الله تعـالىٰ الـوارد في القـرآن الكـريم، إذن الآية تعنـي أنَّ جميـع الأوامـر الصـادرة مـن الرسـول ﷺ يجـب الأخـذ بهـا وجميع النواهي الصادرة عنـه يجـب الانتهـاء عنهـا، وذلـك هـو معنـىٰ حجّيـة السُّنَّة النبويَّة.

كـما أنَّ الآيـة تبقـىٰ عـلىٰ إطلاقهـا الزمـاني والمكـاني، لا تختصُّ بزمـان دون زمـان ولا مكـان دون مكـان، فهـي سـارية عـلىٰ مـدىٰ العصـور والدهور، وعلىٰ مختلف الشعوب والأُمم.

---

(١) كـما يصـطلح عليـة العلَّامـة الطباطبـائي (صـاحب تفسـير الميـزان) بــ(وحـي التسـديد) في مقابل (وحي النبوَّة). (أُنظر: سنن النبيِّ/ العلَّامة الطباطبائي: ٤١).

تاسعاً: من الآيات الدالّة علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة قوله تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، فهذه الآية واضحة في دلالتها علىٰ الموقع القيادي المطلق والأعلىٰ للنبيِّ ﷺ، بما يعني أنَّ أوامره يجب أن تكون نافذة علىٰ المؤمنين، والحديث هنا ليس عن القرآن الكريم وعن الوحي القرآني، وإنَّما حديث عن موقع النبيِّ وممارساته الميدانية، فهو ﴿أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فهل يتحمَّل هذا النص القرآني التشكيك في حجّية السُّنَّة النبويَّة والشطب علىٰ قدسية مواقف النبيِّ ﷺ وأوامره ونواهيه؟!

عاشراً: ومن جملة الآيات التي يمكن ذكرها في هذا السياق قوله تعالىٰ في الحديث عن مهمَّة النبيِّ ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فالنبيُّ ﷺ هنا ليس مجرَّد ناقل للوحي الإلهي المتمثِّل بالقرآن الكريم، إنَّما هو بحسب إطلاق الآية يأمر وينهىٰ ويحلُّ ويُحرِّم تطبيقاً وتنجيزاً لتلك التشريعات الإلهية التي هي المعروف ويقابلها المنكر، فالنبيُّ حينما يأمر بالمعروف يجب أن يُلتَزم بأمره وكذلك حينما ينهىٰ عن المنكر.

والسؤال: من الذي يُحدِّد المعروف، ومن الذي يُحدِّد المنكر؟ هل نحن أم النبيّ ﷺ؟

لا شكَّ أنَّ النبيَّ هو الذي يُحدِّد ما هو المعروف وما هو المنكر، وهو ما يُسمّىٰ بتشخيص المصداق الخارجي، هذا يجب أن يؤخذ من النبيِّ ﷺ، وليس المسلمون هم الذين يُحدِّدون المعروف ويُحدِّدون

المنكر ويفرضوا ذلك علىٰ نبيِّهم ﷺ بحيث يكون النبيُّ هو التابع والأُمَّة هي القائدة المتبوعة، فهذا ممَّا لا يسمح به النصُّ القرآني الواضح، بل إنَّ الآية تؤكّد أنَّ النبيَّ ﷺ هو الذي يُحدِّد ما هو المعروف وما هو المنكر، ثمّ يأمرهم بذاك وينهاهم عن هذا، ومسؤولية المؤمنين هي اتِّباع الرسول ﷺ في كلِّ ذلك، وهذا هو معنىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة.

الحادي عشر: الآيات التي تتحدَّث عن مهمّات النبيِّ ﷺ، مثل: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب: ٤٥ و٤٦)، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)، فنحن نلاحظ في هذا السياق من الآيات الكريمة أنَّ مهمَّة الرسول بالتزكية والتعليم والشهادة علىٰ الناس ودعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ، هذه المهمَّة الواسعة تفرض اتِّباعه وطاعته في عموم ما يقول وليس فقط في نقل الوحي الإلهي للناس، بل هو السراج الذي يجب أن يستضاء بنوره، وهو الشاهد علىٰ الأُمَّة والمشرف علىٰ شؤونها، وهو الذي يزكّي الناس ويُربّيهم في الوقت الذي يتلو عليهم آيات الله تعالىٰ ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة.

مهمّات النبيّ ﷺ:

في ضوء هذه الآيات نستطيع أن نُسجِّل الأُمور التالية لمهامِّ النبيِّ:

١ - مهمَّة تلاوة الآيات: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وهذه هي مهمَّة نقل الوحي القرآني.

٢ - مهمَّة التزكية: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وهذه المهمَّة تُعطي دوراً آخر للنبيِّ الأكرم ﷺ هو أكبر من مجرَّد نقل النصِّ القرآني عن الله تعالىٰ،

وهو دور التزكية والتربية، هذا الدور يدخل تحت عنوان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) المشار إليه في آية سابقة بالقول: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

٣ - مهمَّة تعليم القرآن والحكمة في اتِّخاذ المواقف والقرارات، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(١)، ومن الواضح أنَّ مسألة التعليم هي غير مسألة التلاوة، بل هي شرح وتفسير وتحليل واستلهام معطيات أُخرىٰ للنصِّ.

٤ - مهمَّة الإشراف علىٰ مسيرة الأُمَّة ﴿شاهِداً﴾، كما في الآية السابقة: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً﴾، هذه الشهادة التي يكون أحد امتداداتها التبشير بثوابه والإنذار بعقابه كما جاء في الآية: ﴿مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾.

٥ - مهمَّة العلامة الهادية للحقِّ والسراج المضيء للطريق إلىٰ الله تعالىٰ: ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾﴾، كما في الآية السابقة.

٦ - مهمَّة اتِّخاذ القرار النهائي في مجمل الأُمور كما يظهر من الآيات السابقة، مثل: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقوله: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.

---

(١) (التزكية تفعيل من الزكاة بمعنىٰ النموّ الصالح الذي يلازم الخير والبركة، فتزكيته لهم تنميته لهم نماءً صالحاً بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، فيكملون بذلك في إنسانيتهم، فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم، يعيشون سعداء ويموتون سعداء.

وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمَّنها القرآن، والتعبير عن القرآن تارةً بالآيات وتارةً بالكتاب للدلالة علىٰ أنَّه بكلٍّ من هذه العناوين نعمة يمتنُّ بها - كما قيل -). (الميزان في تفسير القرآن/ العلَّامة الطباطبائي ١٩: ٢٦٥). (المحقِّق).

٧ – مهمَّة التشريع المشار إليها بقوله تعالىٰ في الآية السابقة: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾، وهذا التشريع قد يكون من خلال نقل النصِّ القرآني، وقد يكون مباشراً من النبيِّ ﷺ كما سيأتي الحديث عنه في الصفحات اللاحقة.

ومن كلِّ ذلك نلاحظ أنَّ دور التزكية، والتعليم، والشهادة، والهداية، والتشريع، هي أدوار إضافية غير دور نقل الوحي.

وتتلخَّص تلك الأدوار في مهمَّة كبرىٰ هي (الإمامة)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ (الأنبياء: ٧٣)، ومن الطبيعي أنَّ الإمام المشرف يجب أن يكون له قدسية وطاعة خاصَّة، وليس هو مجرَّد ناقلٍ للوحي كما يقوله الحداثيون.

قدسية النبيّ ﷺ في القرآن الكريم:

الحقيقة أنَّ القرآن الكريم أعطىٰ موقعاً قدسياً للنبيِّ ﷺ ولسائر الأنبياء هو أكبر من مجرَّد الطاعة وحجّية السُّنَّة، بل أعطاه قدسيةً فوق ذلك، كما نلاحظه في قوله تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: ٢)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الحجرات: ٤)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ (الأحزاب: ٥٧)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران: ٣٣)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ

أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وفي قوله تعالىٰ في عيسىٰ بن مريم: ﴿وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، وفي قوله تعالىٰ عن نبيِّنا ﷺ: ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ﴿١٠﴾ ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى ﴿١١﴾ أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى﴿١٢﴾﴾ (النجم: ١٠ - ١٢).

ومثل ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب: ٤٥ و٤٦)، وقوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات: ١)، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ومجموع هذه الآيات القرآنية وما هو أكثر منها في النصوص الحديثية الشريفة تُدلِّل علىٰ أنَّ موقع النبيِّ وسائر الأنبياء هو موقع متميّز عند الله تبارك وتعالىٰ، ويجب أن يحظىٰ بتقديس كبير بين الناس فوق الطاعة وفوق الخضوع، بل حتَّىٰ لا بدَّ من خفض الصوت عنده وعدم التقدّم عليه وحرمة أذاه، وغير ذلك ممَّا مضىٰ.

إنَّ هذا الموقع يؤكّد أنَّ حجّية السُّنَّة النبويَّة هي الحدُّ الأدنىٰ الذي يجب التعامل به مع رسول الله ﷺ، فإذا كان روح القدس هو الذي يؤيِّد الأنبياء، وإذا كان النبيُّ علىٰ خلقٍ عظيم كما يصفه القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم: ٤)، وإذا كان الأولياء قد علَّمهم الله تعالىٰ كما في قوله عن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف: ٦٥)[1]، فكيف لا يكون النبيُّ الأكرم ﷺ وهو أشرف

---

(١) والحديث في الآية عن قصَّة الخضر وموسىٰ عليه السلام.

الأنبياء والمرسلين يتلقّىٰ المعلومة من الله تعالىٰ في غير الوحي القرآني كما سيأتي شرحه في بحوث هذا الكتاب؟

حينما نعرف هذه القدسية للنبيِّ ﷺ سيتأكَّد لنا أنَّ حجّية السُّنَّة النبويَّة هي الحدُّ الأدنىٰ للتعامل مع رسول الله ﷺ، إذ يجب أن نحتفظ لرسول الله ﷺ بأعلىٰ موقع من مواقع التقديس والتكريم والخضوع والطاعة كما شرحته الآيات السابقة.

مثال للتواصل التعليمي بين الله تعالى والنبيّ ﷺ:

إنَّ الرؤية الإسلاميَّة تقول: إنَّ هناك تواصل تعليمي بين الله تعالىٰ ونبيِّه الأكرم ﷺ ليس في حدود الوحي القرآني بل فيما هو أوسع منه، بمعنىٰ أنَّ الله تعالىٰ يتكفَّل تعليم النبيِّ ﷺ وتسديده ليس فقط من خلال النصِّ القرآني، بل من خلال التعليم الخاصّ المباشر.

يمكن أن نقرأ هنا قصَّة النبيِّ ﷺ مع بعض زوجاته كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾ (التحريم: ٣)[١]، والتي تدلُّ بشكل واضح علىٰ أنَّ هنالك اتِّصالاً مباشراً بين النبيِّ وبين الله تبارك وتعالىٰ في غير ما هو الوحي القرآني كما نقرؤه في قصَّة نزول هذه الآية.

وخلاصة القصَّة كما يرويها البخاري والزمخشري[٢] وغيرهما من

---

(١) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾.

(٢) البخاري هو: محمّد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ/ ٨٠٩ - ٨٦٩م) محدِّث صاحب (الجامع الصحيح)، في الكُتّاب حُبِّب إليه العلم، وبدأ بطلب الحديث وحفظه، وهو ابن عشر سنين أو أقلّ، ثمّ أقبل علىٰ مجالس الحديث في بخارىٰ، وحفظ ما وصل إلىٰ بلدته من حديث، ⇦

المفسِّـرين والمحـدِّثين: أنَّ رسـول الله ﷺ بـات ذات ليلـة عنـد زوجتـه زينـب بنـت جحـش، وقـدَّمت لـه عسـلاً فأكلـه، فعلمـت بـذلك عائشـة وحفصـة، فثـارت غـيرتهنَّ، وتواطئتـا علىٰ أن يقـولا لرسـول الله ﷺ إذا كان عنـدهما أنَّ هـذا الـذي أكلتـه لـيس عسـلاً بـل هـو صـمغ المغـافير، ولـه رائحة كريهة يتركهـا في فـم الآكـل، وهكـذا كـان فلـمَّا دخـل علىٰ حفصـة في ليلتهـا قالـت لـه: إنّي أشـمُّ في فمـك رائحـة المغـافير الكريهـة، ولكـن رسـول الله ﷺ أخبرهـا أنَّـه إنَّـما أكـل العسـل عنـد زينـب بنـت جحـش ولـيس المغافير، ولكنَّه ﷺ من أجـل ارضـائها وكسـر فتنـة عائليـة أقسـم لهـا أن لا يعود إلىٰ أكل العسـل عنـد زينـب بنـت جحـش، وطلـب منهـا أن لا تفشـي

⇐ اطَّلـع علىٰ فقـه أهـل الـرأي ومـنهم الحنفيـة، ثـمّ أخـذ بعـد ذلـك فقـه الشـافعي ومالـك، وكانت صلته بالإمام أحمد بن حنبـل متينـة. خـرج البخـاري مـع أُمِّـه وأخيـه الأكـبر أحمـد إلىٰ مكّـة للحـجِّ، وأقـام في مكّـة والحجـاز سـتّ سـنوات يطلـب الحـديث، ثـمّ تنقَّـل في البلـدان فـدخل الشـام ومصـر والجزيـرة والعـراق، وأخـذ عـن شـيوخ الحـديث ورواتـه في تلـك البلاد حتَّىٰ كثر عدد مشايخه، وكـان فـيهم جملـة مـن الأئمَّـة ممَّـن تقـدَّم سـماعه وعـلا إسـناده. (اُنظـر: تـاريخ بغـداد/ الخطيـب البغـدادي/ ١٣٤٩هــ - ١٩٣١م/ مكتبـة الخـانجي/ القاهرة). (المحقِّق).

والزمخشـري هـو: أبـو القاسـم محمـود بـن عمـر الزمخشـري (٤٦٧ - ٥٣٨هــ) لقبـه جـار الله، اللغـوي والكاتـب والشـاعر. وُلِـدَ في زمخشـر مـن إقلـيم خـوارزم، رحـل إلىٰ بخـارىٰ ثمّ إلىٰ بغـداد قاصـداً الحـجّ. جـاور مكّـة زمنـاً فسـمّاه معـاصروه جـار الله. يُعَـدُّ إمـام عصـره في اللغـة والنحـو والبلاغـة والتفسـير والحـديث. عُـرِفَ بغـزارة معارفـه وكثـرة مؤلَّفاتـه. وهو معتزلي الاعتقـاد رحيـب التفكـير، وكـان يجهـر برأيـه ويقـول بخلـق القـرآن، وقـد ظهـر مذهبه الفكري الديني في بعـض كتبـه. أهـمّ مؤلَّفاتـه (الكشّـاف عـن حقـائق التنزيـل)، وهـو تفسـير لآيـات القـرآن الكـريم، ولـه منزلـة خاصَّـة بـين سـائر كتـب التفسـير بسـبب منحـاه العقـلي في الاعتـزال. (اُنظـر: وفيـات الأعيـان/ ابـن خلّكـان/ تحقيـق إحسـان عبّـاس/ ١٩٧٨م/ دار صادر/ بيروت). (المحقِّق).

هذا السرّ، إلَّا أنّها أفشت هذا السرّ، وتحوَّل الموضوع إلىٰ أزمة عائلية، دعت رسول الله أن يبتعد عن نسائه مدَّة شهر، وانتشرت شائعة تقول: إنَّه عازم علىٰ طلاقهنَّ، وعلم رسول الله ﷺ أنَّ كلَّ هذا الفعل كان تآمراً من عائشة وحفصة، فعاتبهما وأخبرهما أنَّ الله تعالىٰ هو الذي أخبره، هنا نزلت الآية السابقة[١].

مثال آخر للتواصل:

ويمكن أن نقرأ مثالاً آخر علىٰ هذا التواصل التعليمي بين الله تعالىٰ والنبيِّ الأكرم ﷺ، وهو ما جاء في الحديث الشريف:

قال رسول الله ﷺ: «أيّها الناس قد نبَّأني اللطيف الخبير أنَّه لم يُعمَّر نبيٌّ إلَّا مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي لأظنُّ أن يوشك أن أُدعىٰ فأُجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا: نشهد أنَّك قد بلَّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً.

قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله، وأنَّ جنَّته حقّ، وأنَّ ناره حقّ، وأنَّ الموت حقّ، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور؟».

قالوا: بلىٰ نشهد بذلك.

قال: «اللّهمّ أشهد»، ثمّ قال: «يا أيّها الناس، إنَّ الله مولاي وأنا مولىٰ المؤمنين وأنا أولىٰ بهم من أنفسهم، من كنت مولاه فهذا مولاه، اللّهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه»، ثمّ قال: «أيّها الناس إنّي فرطكم وإنَّكم واردون عليَّ الحوض، حوض أعرض ممَّا بين بصرىٰ وصنعاء، فيه آنية عدد النجوم قدحان

---

(١) صحيح البخاري ٦: ١٦٧، و٧: ٢٣٢؛ سنن النسائي ٦: ١٥١.

من فضَّة، وإنّي سائلكم حين تردون عليَّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلّوا ولا تُبدِّلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنَّه قد نبَّأني اللطيف الخبير أنَّهما لن يفترقا حتَّىٰ يردا عليَّ الحوض»[١].

لاحظوا هنا تجدون أنَّ الله تعالىٰ هو الذي نبَّأ رسول الله ﷺ من غير طريق القرآن بالخبر أعلاه، ومن الواضح أنَّ هذه النبوءات لم تكن قرآناً وإنَّما كانت تعليماً إلهياً خاصّاً.

النبيّ له حقّ التشريع:

وتمضي الرؤية الإسلاميَّة وبخاصَّة في فكر أهل البيت عليهم السلام في تقديس شخصية النبيِّ ﷺ إلىٰ القول إنَّ النبيَّ ﷺ له حقّ التشريع[٢] كما له حقّ الأمر والنهي المذكور في القرآن الكريم بقوله تعالىٰ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وكما هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم كما قال تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

النبيُّ ﷺ له حقّ التشريع[٣] الذي هو بتسديد وتأييد من الله

---

(١) البداية والنهاية/ ابن كثير ٧: ٣٨٧/ ط ١٩٨٨م/ دار إحياء التراث العربي.

(٢) كما أنَّ الإمام الشافعي ذهب إلىٰ ذلك أيضاً حينما قال: (وما فرض رسول الله ﷺ شيئاً قطّ إلَّا بوحي، فمن الوحي ما يُتلىٰ، ومنه ما يكون وحياً إلىٰ رسول الله ﷺ فيستنُّ به..، وأيّما كان فقد ألزمها الله تعالىٰ خلقه، ولم يجعل لهم الخيرة من أمرهم فيما سنَّ لهم وفرض عليهم اتِّباع سُنَّته). (اُنظر: الإمام الشافعي/ نصر حامد أبو زيد: ١٢٥، نقلاً عن كتاب إبطال الاستحسان من كتاب الأُمّ للشافعي ٧: ١٦٤).

(٣) وهو ما يذكره القرآن الكريم عن أنبياء آخرين كما في قوله تعالىٰ في نبيِّ الله إسرائيل: ﴿كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ﴾ (آل عمران: ٩٣)، وكذا قوله تعالىٰ في عيسىٰ بن مريم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٥٠).

تبارك وتعالىٰ كما قال تعالىٰ في قصَّة عيسىٰ: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧).

اقرأ معي هذه الرواية في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، فإنَّها تتحدَّث عن جملة تشريعات قام بها النبيُّ ﷺ، واعتُبِرَت تشريعات إلزامية علىٰ المسلمين كما لو كان قد نزل بها الوحي الإلهي.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «(إِنَّ الله عزَّ وجلَّ أَدَّبَ نَبِيَّه فَأَحْسَنَ أَدَبَه، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَه الأَدَبَ قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْه أَمْرَ الدِّينِ والأُمَّةِ لِيَسُوسَ عِبَادَه، فَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ مُسَدَّداً مُوَفَّقاً مُؤَيَّداً بِرُوحِ الْقُدُسِ، لَا يَزِلُّ ولَا يُخْطِئُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَسُوسُ بِه الْخَلْقَ...»، إلىٰ أن يقول: «فَوَافَقَ أَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أَمْرَ الله عزَّ وجلَّ ونَهْيُه نَهْيَ الله عزَّ وجلَّ، ووَجَبَ عَلَىٰ الْعِبَادِ التَّسْلِيمُ لَه كَالتَّسْلِيمِ لله تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ»[1].

---

(١) الكافي/ الشيخ الكليني ١: ٢٦٦/ كتاب الحجَّة/ باب التفويض إلىٰ رسول الله ﷺ/ الحديث رقم ٤.

والحديث: أنَّ فُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ لِبَعْضِ أَصْحَابِ قَيْسٍ الْمَاصِرِ: «إِنَّ الله عزَّ وجلَّ أَدَّبَ نَبِيَّه فَأَحْسَنَ أَدَبَه، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَه الأَدَبَ قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْه أَمْرَ الدِّينِ والأُمَّةِ لِيَسُوسَ عِبَادَه، فَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ مُسَدَّداً مُوَفَّقاً مُؤَيَّداً بِرُوحِ الْقُدُسِ، لَا يَزِلُّ ولَا يُخْطِئُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَسُوسُ بِه الْخَلْقَ، فَتَأَدَّبَ بِآدَابِ الله. ثُمَّ إِنَّ الله عزَّ وجلَّ فَرَضَ الصَّلَاةَ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ عَشْرَ رَكَعَاتٍ، فَأَضَافَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَىٰ الرَّكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ وإِلَىٰ الْمَغْرِبِ رَكْعَةً، فَصَارَتْ عَدِيلَ الْفَرِيضَةِ لَا يَجُوزُ تَرْكُهُنَّ إِلَّا فِي سَفَرٍ، وأَفْرَدَ الرَّكْعَةَ فِي الْمَغْرِبِ فَتَرَكَهَا قَائِمَةً فِي السَّفَرِ والْحَضَرِ، فَأَجَازَ الله عزَّ وجلَّ لَه ذَلِكَ كُلَّه، فَصَارَتِ الْفَرِيضَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ رَكْعَةً. ⇦

وفي هذه الرواية يذكر الإمام جعفر الصادق عليه السلام تشريعات عدَّة شرعها رسول الله صلى الله عليه وآله فوافقه الله تعالىٰ عليها، مثل تشريع نوافل الصلاة اليومية، وتشريع الصوم في شهر شعبان ندباً، وتحريم جميع المسكرات وليس الخمر وحده الذي نزل به القرآن.

كانت هذه تشريعات صدرت من رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرةً ولم ينزل بها قرآن، لكن أهل البيت عليهم السلام لا يرون أنَّ تلك التشريعات كانت من عنديّات النبيِّ ومن مذاقه الخاصّ، بل يرونها صورة من صور الإيحاء الإلهي، ذلك أنَّ الوحي الإلهي قد يتمثَّل بجبرائيل فتنزل علىٰ النبيِّ صلى الله عليه وآله آية قرآنية، وقد يتمثَّل الوحي الإلهي بغير ذلك كما يذكره القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

⇦ ثُمَّ سَنَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله النَّوَافِلَ أَرْبَعاً وثَلَاثِينَ رَكْعَةً مِثْلَي الْفَرِيضَةِ، فَأَجَازَ الله عزَّ وجلَّ لَه ذَلِكَ، والْفَرِيضَةُ والنَّافِلَةُ إِحْدَىٰ وخَمْسُونَ رَكْعَةً، مِنْهَا رَكْعَتَانِ بَعْدَ الْعَتَمَةِ جَالِساً تُعَدُّ بِرَكْعَةٍ مَكَانَ الْوَتْرِ. وفَرَضَ الله فِي السَّنَةِ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ وسَنَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله صَوْمَ شَعْبَانَ وثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِثْلَي الْفَرِيضَةِ، فَأَجَازَ الله عزَّ وجلَّ لَه ذَلِكَ. وحَرَّمَ الله عزَّ وجلَّ الْخَمْرَ بِعَيْنِهَا وحَرَّمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله الْمُسْكِرَ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ، فَأَجَازَ الله لَه ذَلِكَ كُلَّه. وعَافَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله أَشْيَاءَ وكَرِهَهَا ولَمْ يَنْه عَنْهَا نَهْيَ حَرَامٍ إِنَّمَا نَهَىٰ عَنْهَا نَهْيَ إِعَافَةٍ وكَرَاهَةٍ ثُمَّ رَخَّصَ فِيهَا، فَصَارَ الأَخْذُ بِرُخَصِه وَاجِباً عَلَىٰ الْعِبَادِ كَوُجُوبِ مَا يَأْخُذُونَ بِنَهْيِه وعَزَائِمِه، ولَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله فِيمَا نَهَاهُمْ عَنْه نَهْيَ حَرَامٍ ولَا فِيمَا أَمَرَ بِه أَمْرَ فَرْضٍ لَازِمٍ، فَكَثِيرُ الْمُسْكِرِ مِنَ الأَشْرِبَةِ نَهَاهُمْ عَنْه نَهْيَ حَرَامٍ لَمْ يُرَخِّصْ فِيه لأَحَدٍ، ولَمْ يُرَخِّصْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لأَحَدٍ تَقْصِيرَ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ضَمَّهُمَا إِلَىٰ مَا فَرَضَ الله عزَّ وجلَّ، بَلْ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ إِلْزَاماً وَاجِباً لَمْ يُرَخِّصْ لأَحَدٍ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُسَافِرِ، ولَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُرَخِّصَ شَيْئاً مَا لَمْ يُرَخِّصْه رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله، فَوَافَقَ أَمْرُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله أَمْرَ الله عزَّ وجلَّ ونَهْيُه نَهْيَ الله عزَّ وجلَّ، ووَجَبَ عَلَىٰ الْعِبَادِ التَّسْلِيمُ لَه كَالتَّسْلِيمِ لله تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ».

(الشورىٰ: ٥١)، فهـذه ثلاثـة طـرق لكـلام الله تعـالىٰ هـي عبـارة عـن: الإيحاء القلبي، والكـلام مـن وراء حجـاب، والملـك السماوي، فـإذا قبلنـا أنَّ الأنبيـاء يتلقـون كـلام الله مـن وراء حجـاب، وإذا قبلنـا أنَّ الأنبيـاء يتلقّـون أمراً من الله تبارك وتعـالىٰ عـبر الإيحـاء القلبـي كـما في هـذه الآيـة: ﴿وَحْيـاً أَوْ مِـنْ وَراءِ حِجـابٍ﴾، إذن حـين يقـوم النبـيُّ ﷺ بتشـريع كـما في الروايـة الآنفـة فإنَّـه لا ينطلـق مـن مزاجـات شخصـية وإنَّـما هـو ﴿وَمـا يَنْطِـقُ عَـنِ الْهَوى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ۝﴾ (النجم: ٣ و٤).

نوعان للوحي:

وهنا يُميِّز الفكر الإسـلامي بـين نـوعين مـن الـوحي، أحـدهما (وحـي القرآن)، وهو الذي ينـزل بـالنصِّ القـرآني، وهـو مـا يشـير إليـه قولـه تعـالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هـذَا الْقُـرْآنُ لِأُنْـذِرَكُمْ بِـهِ﴾ (الأنعـام: ١٩)، والآخـر هـو (وحـي التأييـد)، وهـو روح القـدس الـذي يُسـدِّد الله بـه الأنبيـاء في مجمـل أقوالهم وأفعالهم، وهو المشـار إليـهِ بقولـه تعـالىٰ: ﴿وَأَيَّـدْناهُ بِـرُوحِ الْقُـدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، وقد يُعبَّر عنه بـ (وحي السُّنَّة).

يقـول العلَّامـة الطباطبـائي[1] صـاحب تفسـير الميـزان لـدىٰ تفسـيره

(١) السـيِّد محمّـد حسـين الطباطبـائي المعـروف بـالعلَّامة الطباطبـائي (١٣٢١ - ١٤٠٢هــ) من أبـرز فلاسـفة وعرفـاء ومفكّـري الشـيعة في القـرن العشـرين. اشـتهر بتفسـيره المعـروف بالميزان في تفسير القرآن. ولـه أيضـاً: بدايـة الحكمـة ونهايـة الحكمـة وكتابـه المعـروف أُصـول الفلسـفة والمـذهب الـواقعي الـذي تصـدّىٰ المطهَّـري لشـرحه والتعليـق عليـه. تخـرَّج مـن حلقـة دروس الطباطبـائي الكثـير مـن الأعـلام كـالمطهَّري والشـيخ جـوادي الآمـلي والشـيخ مصـباح اليـزدي والبهشـتي وغـيرهم. وقـد لعبـت مناظراتـه مـع الفيلسـوف والمتخصِّـص بالشـأن الشـيعي الفرنسـي (هنـري كـاربن) دوراً مهـمّاً في إيصـال الفكـر الشـيعي وصـورة التشيّع إلىٰ المجتمع الأُوربي. (موسوعة ويكيبيديا علىٰ الشبكة العالمية).

قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (الأنبياء: ٧٣):

(هذا الوحي المتعلّق بالأفعال في مرحلة صدورها منهم وحي تسديد وتأديب، وليس هو وحي النبوَّة والتشريع، ومعنىٰ وحي التسديد أن يخصَّ الله عبداً من عباده بروح قدسي يُسدِّده في أعمال الخير والتحرّز عن السيِّئة)[1].

النبيُّ إذن يُمثِّل هذه القدسية التي لا يمكن أن تصل إليها التشكيكات كما يثيرها الحداثيون الجدد أو كان يثيرها ضعفاء الإيمان القدامىٰ.

كان هذا استعراضاً للآيات القرآنية الشاهدة علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة وقدسية النبيِّ ﷺ وموقعه في الناس.

ولننتقل الآن إلىٰ الشاهد الثاني، وهو الأحاديث الشريفة:

الشاهد الثاني: الأحاديث النبويَّة الشريفة:

الأحاديث النبويَّة الشريفة دلَّت علىٰ ضرورة اعتماد سُنَّة النبيِّ ﷺ، واعتبارها مصدراً تشريعياً بعد القرآن الكريم، ويمكن أن نذكر في هذا السياق مجموعة أحاديث لا تقبل الشكَّ في دلالتها أو في صدورها من النبيِّ ﷺ لوضوحها وكثرتها. إنَّ هذه الأحاديث المتواترة تُدلِّل علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو دائماً لاعتماد أقواله والاستنان بسُنَّته، ويعتبر ذلك علامة من علامات الإيمان به، وعلىٰ العكس من ذلك يكون المخالف لسُنَّته شاكّاً بل كافراً بنبوَّته. لقد كان يطلب من أصحابه كتابة

(١) سنن النبيِّ ﷺ/ العلَّامة الطباطبائي: ٤١.

أحاديثه ونقلها إلىٰ من يـأتي مـن المسـلمين في العصـور القادمـة، لكـي يعملـوا بهـا ويسـيروا عـلىٰ نهجهـا جنبـاً إلىٰ جنـب القـرآن الكـريم. وبهـذا الصـدد نستطيع أن نقرأ الروايات التالية:

١ - قولـه ﷺ في الحـديث المعـروف (الأربعـون حـديثاً)، وهـو مـا تواتر عنه ﷺ أنَّه قـال: «مـن حفـظ عـلىٰ أُمَّتـي أربعـين حـديثاً ينتفعـون بهـا كنت له شفيعاً يوم القيامة»[1].

هذا الحديث فيه دلالة واضـحة عـلىٰ أنَّ النبـيَّ ﷺ إذ يـدعو إلىٰ حفـظ أحاديثه وتدوينها وتوثيقها ثمّ تقديمها للأُمَّة إنَّما المطلوب هو اتِّباعها والالتـزام بها، وإلَّا فما معنىٰ حفظ أحاديثه ونقلها إلىٰ الأُمَّة؟ وبأيِّ هدف إذا لم تكـن سُـنَّة النبيِّ حجَّة واجبة الاتِّباع؟ هل هي محفوظات أدبيـة أو هـي تـراث بلاغـي؟ أم المطلوب هو الاستفادة منها وجعلها كمصباح يجب الاستضاءة به؟ لا شـكَّ أنَّ هذا هو الواضح جدّاً، ولا يقبل أيّ تشكيك فيه، كما قال في الحديث: «ينتفعـون بها»، فلا بدَّ إذن من العمل بها والانتفاع بها.

٢ - قوله ﷺ في الحـديث المعـروف الـذي التـي ترويـه مصـادر أهـل السُّنَّة ومصادر الشيعة أيضاً:

قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ ارحم خلفائي».

قيل: ومن هم خلفاؤك يا رسول الله؟

قال: «الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسُنَّتي»[2].

---

(١) وسـائل الشـيعة ١٨: ٦٧، ومثلـه: ٧٠، وجـاء في بعضـها: «مـن حفـظ عـلىٰ أُمَّتـي أربعـين حـديثاً ينتفعـون بهـا بعثـه الله يـوم القيامـة فقيهـاً عالمـاً»، وجـاء هـذا المضـمون في مصـادر الشيعة والسُّنَّة جميعاً وبطرق متواترة.

(٢) وسائل الشيعة ١٨: ٦٥.

وهـذا واضـح أيضـاً في الموقـع التشـريعي الـذي يُعطيـه النبـيُّ ﷺ لسُـنَّته وأحاديثـه، وإلَّا فسـيكون لغـواً أن يطلـب النبـيُّ ﷺ روايـة حديثـه ثمّ لا يكون ذلك لهدف العمل بها.

٣ - قولـه ﷺ: «نَضَّـرَ اللهُ عَبْـداً سَـمِعَ مَقَـالَتِي فَوَعَاهَـا وحَفِظَهَـا وبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»(١).

هـذا الـنصّ المعـروف والمشـهور والـذي روتـه الكتـب الحديثيـة لـدىٰ السُّـنَّة والشـيعة، فيـه دلالـة واضـحة عـلىٰ دعـوة النبـيِّ ﷺ إلىٰ الـوعي بمقالاتـه وكلماتـه ثـمّ نقلهـا إلىٰ مـن لم يسـمعها بهـدف العمـل بهـا، وهـذا النصّ شـاهد عـلىٰ حجّيـة السُّـنَّة النبويـة وإطلاقهـا الزمـاني والمكـاني ليعمـل بها المسلمون الذين لم يشهدوا رسول الله ﷺ ولم يسمعوا منه.

٤ - أمـرَ رسـول الله ﷺ بكتابـة حديثـه، وذلـك في الروايـات التـي ترويها المصادر الحديثيـة أنَّ عبـد الله بـن عمـرو بـن العـاص قـال لرسـول الله ﷺ: كنـت أكتـب الحـديث، فمنعتنـي قـريش. فقـال رسـول الله ﷺ وأومأ إلىٰ فيه: «اُكتب فوَالله ما خرج منه إلَّا الحقّ»(٢).

فهـذا الـنصّ واضـح في أنَّ كـلَّ مـا يصـدر عـن النبـيِّ ﷺ هـو حـقٌّ يجب أن نحتفظ به كمصدر للاعتماد عليه عقيدياً وسلوكياً.

---

(١) الكافي ١: ٤٠٣.

(٢) مقدَّمة مرآة العقول/ العلَّامة العسكري ١: ٢٨؛ ونصُّ الرواية كالتالي: قال عبد الله بن عمرو بن العاص: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كلَّ شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله بشر يتكلَّم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بإصبعه إلىٰ فيه، وقال: «اُكتب فوَالذي نفسي بيده ما خرج منه إلَّا حقّ»، وهذا الحديث روته مصادر الكتب الحديثية لدىٰ أهل السُّنَّة مثل: سنن الدارمي، وسنن أبي داود، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، وغيرها.

٥ - قوله ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أُصلّي»(١)، هي دعوة واضحة من النبيِّ ﷺ وعلىٰ مدىٰ القرون لالتزام طريقته ومنهجه في الصلاة، وإذا صحَّ ذلك في الصلاة فسوف يصحُّ في سائر أعماله العبادية، وهذا هو معنىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة.

٦ - قوله ﷺ: «خذوا مناسككم عنّي»(٢)، ودلالته مثل الحديث السابق.

٧ - قوله ﷺ: «آتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعدي أبداً»(٣)، فهو ذو دلالة واضحة علىٰ أنَّ ما يصدر عن النبيِّ إنَّما يُراد الالتزام به والعمل عليه، وهذا هو معنىٰ الحجّية.

٨ - قوله ﷺ: «ما من شيء يُقرِّبكم من الجنَّة إلَّا وأمرتكم به، وما من شيء يُقرِّبكم من النار إلَّا ونهيتكم عنه»(٤)، هذا النصّ المتواتر في المصادر الحديثية لدىٰ الفريقين فيه دلالة واضحة علىٰ أنَّ كلمات النبيِّ هي مؤشِّر دقيق لما يُقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ وما يُبعِّد من النار، وهذا هو معنىٰ الحجّية والشرعية لكلماته ﷺ.

٩ - قوله ﷺ كما ورد ذلك عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه ﷺ قال: «لا نبيَّ بعدي ولا سُنَّة بعد سُنَّتي»(٥)، فهو حديث واضح في رفض أيّ انحراف أو تغيير أو ابتعاد عن سُنَّة رسول الله ﷺ، وهذا هو معنىٰ الحجّية.

---

(١) أُنظر: صحيح البخاري ١: ١٥٥.

(٢) السنن الكبرىٰ/ البيهقي ١: ٥٦.

(٣) أُنظر مصادر الحديث في هامش كتاب المراجعات للسيِّد عبد الحسين شرف الدين/ تحقيق الشيخ حسين الراضي/ المراجعة ٨٦ (رزية يوم الجمعة).

(٤) أُصول الكافي/ الشيخ الكليني/ ج ١.

(٥) أمالي الشيخ المفيد: ٥٣.

١٠ - قوله ﷺ في وصيَّته للإمام عليّ عليه السلام: «والسادسة الأخذ بسُنَّتي»(١)، وخلاصة الحديث كالتالي:

عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ لعليٍّ عليه السلام: يا عليّ أُوصيك في نفسك بخصال فاحفظها: أمَّا الأُولىٰ: فالصدق، والثانية: الورع، والثالثة: الخوف من الله، والرابعة: كثرة البكاء من خشية الله، والخامسة: بذل مالك ودمك دون دينك، والسادسة: الأخذ بسُنَّتي في صلاتي وصيامي وصدقتي».

١١ - قوله ﷺ: «من أحيىٰ سُنَّتي فقد أحياني»(٢).

١٢ - قوله ﷺ: «من رغب عن منهاجي وسُنَّتي فليس منّي»(٣).

١٣ - قوله ﷺ: «من تمسَّك بسُنَّتي كان له أجر مئة شهيد»(٤).

١٤ - قوله ﷺ: «لا عذر لكم في ترك سُنَّتي»(٥).

١٥ - قوله ﷺ: «لعن الله سبعة، منهم المخالف لسُنَّتي»(٦)، ونصُّ الحديث كالتالي: عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي لعنت سبعة لعنهم الله وكلّ نبيّ مجاب قبلي: الزائد بكتاب الله، والمكذِّب بقدر الله، والمخالف لسُنَّتي، والمستحلّ من عترتي ما حرَّم الله، والمتسلّط بالجبرية ليعزّ من أذلَّ الله ويذلّ ما أعزَّ الله، والمستأثر علىٰ المسلمين بفيئهم مستحلًّا له، والمحرِّم ما أحلَّ الله عزَّ وجلَّ».

---

(١) سنن النبيِّ ﷺ/ العلَّامة الطباطبائي: ٩٣، عن وسائل الشيعة/ كتاب الجهاد/ أبواب جهاد النفس/ باب ٤/ الحديث ٢.

(٢) سنن النبيِّ ﷺ/ العلَّامة الطباطبائي: ١٤١.

(٣) أُصول الكافي/ الشيخ الكليني ٢: ٨٥، عنه سنن النبيِّ ﷺ/ العلَّامة الطبطبائي: ١١٤.

(٤) وسائل الشيعة ١١: ١٢١.

(٥) معاني الأخبار/ الشيخ الصدوق: ١٥٦.

(٦) الخصال/ الشيخ الصدوق: ٣٨٣.

١٦ - قوله ﷺ: «من خالف سُنَّتي فقد ضلَّ»(١).

ماذا تعني كلُّ هذه التأكيدات من النبيِّ ﷺ علىٰ كتابة سُنَّته، والقضاء في ضوئها، ولعن من خالفها، والدعوة لإحيائها، والثناء علىٰ من يعمل بها، والثواب لمن تمسَّك بها، وغير ذلك ممَّا مضىٰ؟

أليس ذلك واضح في ضرورة اعتماد سُنَّة النبيِّ ﷺ بعد اعتماد القرآن الكريم؟

وهل يمكن افتراض أنَّ كلَّ تلك النصوص الشريفة خاصَّة بأهل زمان النبيِّ ﷺ ومكانه؟

أم إنَّها ناظرة بشكل واضح لإحياء سُنَّته من بعده وعلىٰ مرِّ الأجيال القادمة؟

إشكال وجواب:

وقد يقول قائل: إنَّ هذه النصوص والكثير من أمثالها لا يمكن الاعتماد عليها، لأنَّها مصادرة علىٰ المطلوب - كما يقول المناطقة -، فكيف يُستَدلُّ بالسُّنَّة علىٰ حجّية السُّنَّة؟

والجواب علىٰ هذا الإشكال: أنَّ هذه النصوص هي في مجموعها بمستوىٰ من الوثاقة من حيث السند والوضوح من حيث الدلالة بحيث لا يمكن التشكيك في صدورها من النبيِّ ﷺ أو اعتبارها خاصَّة بزمانها ومكانها أو اعتبارها ذات أُطر محلّية وقومية، فهي واضحة في العموم الزماني والمكاني والإنساني.

نحن إذ نستشهد بهذه الروايات فإنَّما نستشهد بروايات متواترة

(١) الكافي ٢: ٨٥.

بحسب الاصطلاح الفقهي، التواتر الذي يعني الوثاقة المطلقة من حيث الصدور، يضاف هنا إلىٰ الدلالة الواضحة القطعية من حيث الظهور، إذن فنحن أمام نصوص قطعية الصدور وقطعية الدلالة من النبيِّ ﷺ يؤكّد بها علىٰ حجّية سُنَّته بشكل مطلق بحيث لا يسمح بأيِّ تشكيك من التشكيكات الحداثية الجديدة والقديمة التي أشرنا إليها فيما سبق.

الشاهد الثالث: الدليل العقلي:

بعد ما استعرضنا الدليل القرآني والدليل الروائي علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة ننتقل إلىٰ الدليل العقلي[1].

وخلاصة هذا الاستدلال العقلي أنَّ حجّية السُّنَّة النبويَّة هي نتيجة طبيعية للإيمان بنبوَّة النبيِّ ﷺ، وأنَّه لا يمكن الفصل بين الإيمان بالنبوَّة وبين الإيمان بحجّية سُنَّة رسول الله ﷺ.

---

(١) ومن دليل العقل ما ذكره السيِّد محمّد تقي الحكيم من أنَّ (خصوص ما دلَّ علىٰ عصمة النبيِّ ﷺ وامتناع صدور الذنب والغفلة والخطأ والسهو منه، ليمكن القطع بكون ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وتقريرات هي من قبيل التشريع، إذ مع العصمة لا بدَّ أن تكون جملة تصرّفاته القولية والفعلية وما يتَّصل بها من إقرار موافقة للشريعة، وهو معنىٰ حجّيتها. وهذا الدليل من أمتن ما يمكن أن يُذكر من الأدلَّة علىٰ حجّية السُّنَّة وإنكاره مساوق لإنكار النبوَّة من وجهة عقلية، إذ مع إمكان صدور المعصية منه أو الخطأ في التبليغ أو السهو أو الغفلة لا يمكن الوثوق أو القطع بما يدَّعي تأديته عن الله ﷻ، لاحتمال العصيان أو السهو أو الغفلة أو الخطأ منه، ولا مدفع لهذا الاحتمال. ومع وجود هذا الاحتمال لا يمكن تمامية الاحتجاج له أو عليه حتَّىٰ في مجال دعواه النبوَّة، لما سبق أن قلنا من أنَّ كلَّ حجَّة لا تنتهي إلىٰ القطع فهي ليست بحجَّة، لأنَّ العلم مقوِّم للحجّية. فإذا ثبتت نبوَّته بالأدلَّة العقلية، فقد ثبتت عصمته حتماً للتلازم بينهما، وبخاصَّة إذا آمنّا باستحالة إصدار المعجزة من قِبَل الله تعالىٰ علىٰ يد من يمكن أن يدَّعي النبوَّة كذباً، لقاعدة التحسين والتقبيح العقليين أو لغيرها علىٰ اختلاف في المبنىٰ). (السُّنَّة في الشريعة الإسلاميَّة: ١٤ و١٥). (المحقِّق).

ذلك أنَّ الإيمان بنبوَّة نبيّنا ﷺ يعني الإيمان بالصدقية المطلقة لرسول الله ﷺ، ولولا هذه الصدقية المطلقة لكان القرآن الكريم موضوع شكٍّ والآيات القرآنية موضوع شكٍّ، حيث يمكن أن يسهو النبيُّ أو يجامل قريش أو يخضع لأهواء نفسية والعياذ بالله.

وخلاصة الفكرة هي أنَّ الإيمان بالنبوَّة يعني الإيمان المطلق بالنبيِّ ﷺ وصدقه فيما يُبلِّغ به ويُشرِّعه من أحكام وسنن، وهذه الصدقية المطلقة تعني بالنتيجة أنَّ النبيَّ ﷺ صادق في جميع ما يقول، وعلىٰ حقٍّ في جميع ما يقول أو يفعل، فلا شيطان ولا هوىٰ ولا انفعالات ولا أنانيات، وهذا استنتاج طبيعي للإيمان بالنبوَّة، كما يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ (الحجّ: ٥٢)، إذن فالنبيُّ ﷺ يخوض معركة مع الشيطان، لكن القرآن الكريم يؤكّد أنَّ الله تعالىٰ هو الغالب في تسديد النبيِّ ﷺ وتوفيقه في اختيار الموقف الصحيح.

نصل من خلال هذا الاستدلال إلىٰ هذه الفكرة، وهي أنَّ حجّية السُّنَّة والاعتقاد بصدق النبيِّ في جميع أقواله وصوابيته في جميع أفعاله هو نتيجة طبيعية للإيمان بنبوَّته وارتباطه بالله تعالىٰ بشكل مطلق.

قصص شاهدة:

هنا نستطيع أن نستذكر بعض القصص الشاهدة علىٰ التسديد الإلهي للنبيِّ ﷺ وصحَّة جميع ما صدر عنه ﷺ، واعتبار ما يصدر عنه حجَّة شرعية لا يجوز مخالفتها.

١ - قصَّة صلح الحديبية:

يقول المؤرِّخون: حينما أمر النبيُّ بذبح الهدي فرفض بعض المتطرّفين من المسلمين، وجاء عمر بن الخطّاب إلىٰ النبيِّ يشجب موقف النبيّ، ويستنكر عليه ويقول له: (لِـمَ نعطي الدنيةَ في ديننا؟)، بما قد سيعني أنَّ عمر بن الخطّاب يرىٰ نفسه هو الأكثر صوابية وصلابة ومبدئية من النبيِّ ﷺ!

لكن ماذا قال له رسول الله ﷺ؟

قال: «إنّي رسول الله، لست أعصيه، وهو ناصري)، وبعد ذلك استجاب المسلمون وخضعوا لموقف النبيِّ ﷺ[١].

فهذا النصّ يدلُّ علىٰ أنَّ موقف النبيِّ ﷺ لم يكن اجتهاداً شخصياً، بل هو تسديد إلهي، لذا فقد قال ﷺ: «إنّي رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»[٢].

---

(١) أخرجه صحيح البخاري من حديث الزهري في كتاب الشروط، وكذلك أخرجه صحيح مسلم، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) ومن المفيد هنا إيراد القصَّة الكاملة: خرج رسول الله ﷺ زمن الحُدَيْبِيَّةِ، حتَّىٰ كانوا ببعضِ الطريقِ، قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ بالغَمِيمِ، في خيلٍ لقريشٍ طليعةٍ، فخذوا ذاتَ اليمينِ»، فوَالله ما شَعَرَ بهم خالدٌ حتَّىٰ إذا هم بقَتَرَةِ الجيشِ، فانطَلَقَ يَرْكُضُ نذيراً لقريشٍ، وسار النبيُّ ﷺ حتَّىٰ إذا كان بالثَّنِيَّةِ التي يَهْبِطُ عليهم منها، برَكَتْ به راحلتُهُ، فقال الناس: حَلْ حلْ. فأَلَحَّتْ، فقالوا: خَلأَتِ القَصْواءُ، خلأَتِ القصواءُ! فقال النبيُّ ﷺ: «ما خلأَتِ القصواءُ، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حبَسَها حابسُ الفيلِ».

ثمّ قال: «والذي نفسي بيدِه، لا يَسْأَلُونَنِي خطّةً يُعَظِّمون فيها حرماتِ الله إلَّا أَعْطَيْتُهم إيَّاها»، ثمّ زجَرَها فوثَبَتْ، قال: فعَدَلَ عنهم حتَّىٰ نزَلَ بأقصىٰ الحديبيةِ علىٰ ثَمَدٍ قليلِ الماءِ، يَتَبَرَّضُه الناسُ تَبَرُّضاً، فلم يَلْبَثْه الناسُ حتَّىٰ نَزَحُوه، وشُكِيَ إلىٰ رسولِ الله ﷺ العطشُ، فانتزَعَ سهماً مِن كِنانتِه، ثمّ أمَرَهم أن يَجْعَلُوه فيه، فوَالله ما زالَ يَجِيشُ لهم بالرِّيِّ حتَّىٰ صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاءَ بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ الخُزَاعِيُّ في نفرٍ مِن قومِه مِن خُزاعةَ، وكانوا عَيْبَةَ نصحِ رسولِ الله ﷺ مِن أهل تِهامةَ، فقال: ⇦

⇦ إنِّي تَرَكْتُ كعبَ بنَ لُؤَيٍّ وعامرَ بنَ لُؤَيٍّ نزلوا أعدادَ مياهِ الحديبيةِ، ومعهم العوذُ المَطافِيلُ، وهم مُقاتِلوكَ، وصادُّوك عن البيتِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّا لم نَجِئْ لقتالِ أحدٍ، ولكنّا جِئْنَا مُعْتَمِرين، وإنَّ قريشاً قد نَهِكَتْهم الحربُ، وأَضَرَّتْ بهم، فإن شاؤُوا مادَدْتُهم مدّةً، ويُخَلُّوا بيني وبينَ الناسِ، فإن أظْهَرَ فإن شاؤوا أن يَدْخُلوا فيما دخَلَ فيه الناسُ فعلوا، وإلّا فقد جَمُّوا، وإن هم أَبَوْا فوَالذي نفسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتَّىٰ تَنْفَرِدَ سالفتي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمرَه»، فقال بُدَيْلُ: سأُبْلِغُهم ما تقولُ. قال: فانطَلَقَ حتَّىٰ أتىٰ قريشاً، قال: إنّا قد جِئْنَاكم مِن هذا الرجلِ، وسَمِعْنَاه يقولُ قولاً، فإن شِئْتُم أن نَعْرِضَه عليكم فعَلْنَا، فقال سفهاؤُهم: لا حاجةَ لنا أن تُخْبِرَنا عنه بشيءٍ، وقال ذَوُو الرأيِ منهم: هاتِ ما سَمِعْتَه يقولُ.

قال: سَمِعْتُه يقولُ كذا وكذا، فحَدَّثَهم بما قال النبيُّ ﷺ، فقام عروةُ بنُ مسعودٍ فقال: أَيْ قومُ، أَلَسْتُم بالوالدِ؟ قالوا: بلىٰ. قال: أَوَلَسْتُ بالولدِ؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهل تَتَّهِمُونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تَعْلَمُون أنِّي استَنْفَرْتُ أهلَ عُكاظٍ، فلمّا بَلَّحوا عليَّ جِئْتُكم بأهلي، وولدِي، ومَن أطاعَنِي؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإنَّ هذا قد عَرَضَ لكم خطَّةَ رُشْدٍ، اقبلوها ودَعُوني آتِيه، قالوا: ائْتِه. فأتاه، فجَعل يُكَلِّمُ النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ نحواً مِن قولِه لبُدَيْلٍ، فقال عروةُ عندَ ذلك: أَيْ محمدُ، أَرَأَيتَ إن استَأْصَلْتَ أمرَ قومِك، هل سَمِعْتَ بأحدٍ مِن العربِ اجتاحَ أهلَه قبلَكَ؟! وإن تَكُنْ الأُخرىٰ، فإنِّي واللهِ لَأَرَىٰ وجوهاً، وإنِّي لَأَرىٰ أشواباً مِن الناسِ خليقاً أن يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ، فقال له أبو بكرٍ: امْصُصْ ببظرِ اللاتِ! أَنَحْنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُه؟ فقال: مَن ذا؟ قالوا: أبو بكرٍ. قال: أمَا والذي نفسي بيدِه لولا يدٌ كانت لك عندي لم أُجْزِكْ بها لأَجَبْتُكَ.

قال: وجعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ ﷺ، فكلَّما تكَلَّمَ أخَذَ بلحيتِه، والمغيرةُ بنُ شعبةَ قائمٌ علىٰ رأسِ النبيِّ ﷺ ومعه السيفُ، وعليه المِغْفَرُ، فكُلَّما أهوىٰ عروةُ بيدِه إلىٰ لحيةِ النبيِّ ﷺ ضرَبَ يدَه بنعلِ السيفِ، وقال له: أَخِّرْ يدَكَ عن لحيةِ رسولِ الله ﷺ، فرَفَعَ عروةُ رأسَه، فقال: مَن هذا؟ قالوا: المغيرةُ بنُ شعبةَ. فقال: أَيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسعىٰ في غَدْرَتِك؟ وكان المغيرةُ صَحِبَ قوماً في الجاهليةِ فقَتَلَهم، وأخَذَ أموالَهم، ثمّ جاء فأَسْلَمَ، فقال النبيُّ ﷺ: أَمَّا الإسلامُ فأَقْبَلُ، وأَمَّا المالُ فلَسْتُ منه في شيءٍ.

ثمّ إنَّ عروةَ جعَلَ يَرْمُقُ أصحابَ النبيِّ ﷺ بعينِه، قال: فوَاللهِ ما تَنَخَّمَ رسولُ الله ﷺ نُخَامَةً إلّا وقَعَتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدَلَّكَ بها وجهَه وجلدَه، وإذا أَمَرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضَّأَ ⇦

⇦ كادوا يَقْتَتِلون علىٰ وضوئِه، وإذا تكَلَّمَ خَفَضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النظرَ تعظيماً له، فرجَعَ عروةُ إلىٰ أصحابِه فقال: أيْ قومُ واللهِ لقد وفَدْتُ علىٰ الملوكِ، ووَفَدْتُ علىٰ قَيْصَرَ وكسرىٰ والنَجَاشِيِّ، واللهِ إن رَأَيتُ ملكاً قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمّدٍ ﷺ محمّداً، واللهِ إن تَنَخَّمَ نُخامةً إلَّا وقَعَتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدَلَّك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أَمَرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضَّأَ كادوا يَقْتَتِلون علىٰ وضوئِه، وإذا تكَلَّم خَفَّضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النظرَ تعظيماً له، وإنَّه قد عَرَضَ عليكم خطَّةَ رُشْدٍ فأَقْبَلُوها. فقال رجلٌ مِن بني كِنانةَ: دَعُوني آتِيه. فقالوا: ائتِه.

فلمَّا أَشْرَفَ علىٰ النبيِّ ﷺ وأصحابِه، قال رسولُ الله ﷺ: «هذا فلانٌ، وهو مِن قوم يُعَظِّمون البُدْنَ، فابعثُوها له». فبُعِثَتْ له، واستَقْبَلَه الناسُ يُلَبُّون، فلمَّا رأىٰ ذلك قال: سبحانَ اللهِ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيتِ، فلمَّا رجَعَ إلىٰ أصحابِه قال: رأَيتُ قد قُلِّدَتْ وأُشعِرَتْ، فما أرىٰ أن يُصَدُّوا عن البيتِ. فقام رجلٌ منهم يَقالُ له: مِكْرَزُ بنُ حفصٍ، فقال: دعوني آتيه. فقالوا: ائتِه. فلمَّا أَشْرَفَ عليهم قال النبيُّ ﷺ: «هذا مِكْرَزٌ، وهو رجلٌ فاجرٌ»، فجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ ﷺ، فبينما هو يُكَلِّمُه إذ جاء سُهَيْلُ بنُ عمرٍو، قال مَعْمَرٌ: فأَخْبَرَني أيّوبُ عن عَكْرِمَةَ أنَّه لمَّا جاءَ سُهَيْلُ بنُ عمرٍو قال النبيُّ ﷺ: «لقد سَهُلَ لكم مِن أمرِكم»، قال مَعْمَرٌ: قال الزهريُّ في حديثِه: فجاءَ سهيلُ بنُ عمرٍو فقال: هاتِ اُكتُبْ بينَنَا وبينكم كتاباً، فدعا النبيُّ ﷺ الكاتبَ، فقال النبيُّ ﷺ: «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم»، قال سهيلٌ: أَمَّا الرحمنُ فوَاللهِ ما أدري ما هو، ولكن اُكتُبْ: باسمِك اللهمَّ، كما كنتَ تَكْتُبْ. فقال المسلمون: واللهِ لا نَكْتُبُها إلَّا بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم. فقال النبيُّ ﷺ: «اُكتُبْ باسمِك اللهمَّ»، ثمّ قال: «هذا ما قاضىٰ عليه محمّدٌ رسولُ اللهِ»، فقال سهيلٌ: واللهِ، لو كنَّا نَعْلَمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صَدَدْنَاك عن البيتِ، ولا قاتلْنَاك، ولكِنْ اُكتُبْ: محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ، فقال النبيُّ ﷺ: «واللهِ إنّي لرسولُ اللهِ وإن كَذَّبْتُموني، اُكتُبْ: محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ».

قال الزُّهْرِيُّ: وذلك لقولِه: «لا يَسْأَلُونَنِي خطّةً يُعظِّمون بها حرماتِ اللهِ إلَّا أَعْطَيْتُهم إيَّاها»، فقال له النبيُّ ﷺ: «علىٰ أن تُخَلُّوا بينَنا وبينَ البيت فنَطُوفُ به»، فقال سهيلٌ: واللهِ، لا تَتَحَدَّثُ العربُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولكن ذلك مِن العامِ المُقْبِلِ. فكتَبَ، فقال سهيلٌ: وعلىٰ أنَّه لا يَأْتِيك منّا رجلٌ وإن كان علىٰ دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا. ⇦

إذن هكـذا يجـب أن نتعامـل مـع سُـنَّة النبـيِّ ﷺ بالطاعـة والامتثـال لا بالشكِّ والمخالفة.

٢ - قصَّة حاطب ابن أبي بلتعة:

ونستطيع بهذا الصدد أن نقـرأ قصَّـة حاطـب ابـن أبي بلتعـة كـما يرويهـا المؤرِّخون، حيث كان حاطـب كتـب إلىٰ أهـل مكّـة رسـالة يُخبِرهـم فيهـا بـأنَّ الرسـول ﷺ قـد تجهَّـز لحـربهم، وكـان ذلـك عـام الفـتح، وهنـا أرسـل رسـول الله ﷺ عليّـاً والـزبير وأبـا مرثـد قـائلاً لهـم: «اُخرجـوا حتَّـىٰ تـأتوا روضة خـاخ فـإنَّ فيهـا امـرأة معهـا صـحيفة مـن حاطـب ابـن أبي بلتعـة إلىٰ المشركين فأتوني بها».

يقول عليٌّ عليه السلام: «انطلقنا عـلىٰ أفراسـنا حتَّـىٰ أدركناهـا حيـث قـال لنـا رسـول الله ﷺ، فقلنـا: أيـن الكتـاب الـذي معـكِ؟ فقالـت: مـا معـي مـن كتـاب، فأنخنـا بهـا بعيرهـا فابتغيناهـا في رحلهـا فـما وجـدنا شـيئاً، فقـال صاحباي: ما معها من كتاب».

⇦ قال المسلمون: سبحانَ الله! كيـف يُـرَدُّ إلىٰ المشـركين وقـد جـاء مسـلماً!؟ فبينـما هـم كـذلك إذ دخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عمـرٍو يَرْسُـفُ في قيـودِه، وقـد خـرَجَ مِـن أسـفلِ مكّـةَ حتَّـىٰ رَمىٰ بنفسِه بينَ أظهرِ المسـلمين، فقـال سـهيلٌ: هـذا يـا محمّـدُ أوَّلُ مـا أُقاضِـيكَ عليـه أن تَـرُدَّه إليَّ، فقـال النبـيُّ ﷺ: «إنّـا لم نَقْـضِ الكتـابَ بعـدُ»، قـال: فـوَالله إذاً لم أُصَـالِحْكَ عـلىٰ شيءٍ أبداً، قال النبيُّ ﷺ: «فـأَجِزْه لي». قـال: مـا أنـا بمجيـزِه لـكَ. قـالَ: «بـلىٰ فافْعَـلْ». قـال: مـا أنا بفاعلٍ. قـال مِكْـرَزٌ: بـل قـد أَجَزْنَـاه لـك. قـال أبـو جنـدلٍ: أَيْ معشــرَ المسـلمين، أُرَدُّ إلىٰ المشــركين وقـد جِئْـتُ مسـلماً، أَلَا تـرون مـا قـد لَقِيـتُ؟ وكـان قـد عُـذِّبَ عـذاباً شـديداً في الله. قـال: فقـال عمـرُ بـنُ الخطّـابِ: فأَتَيْـتُ نبـيَّ الله ﷺ، فقُلْـتُ: ألسـتَ نبـيَّ الله حقّـاً؟ قالَ: «بلىٰ». قلتُ: أَلَسْنَا عـلىٰ الحـقِّ، وعـدوُّنَا عـلىٰ الباطِـلِ؟ قـال: «بـلىٰ». قلـتُ: فلِـمَ نُعْطِـي الدَّنِيَّـةَ في دينِنَـا إذاً؟ قـال: «إنّي رسـولُ الله، ولَسْـتُ أَعْصِـيه، وهـو نـاصِرِي». (صـحيح البخاري ٣: ١٧٨). (المحقِّق).

قال عليٌّ عليه السلام: «ما كذب رسول الله صلى الله عليه وآله»، ثمّ حلف عليٌّ عليه السلام قائلاً: «والذي نحلف به لتخرجنَّ الكتاب أو لأجردنَّكِ»، فأهوت إلىٰ حجزتها فأخرجت الصحيفة فأتوا بها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله(١).

هذه القصَّة هي شاهد علىٰ الفكرة التي نريد الإشارة إليها، وهي أنَّ النبيَّ الذي ينفتح علىٰ عالم الغيب ويُعلِّمه الله من علمه لا يمكن أن نُكذِّبه في سائر أقواله وأخباره سواءً كانت نصّاً قرآنياً أو غيره، فطالما صدَّقنا نبوَّته فلا بدَّ أن نُصدِّق بسائر ما يُخبِرنا به سواءً كان في شؤون الدين أو شؤون الدنيا.

إنَّ النبيَّ الذي أصبح يتلقّىٰ المعلومة من عند الله تعالىٰ ويُحدِّثنا عن القيامة والجنَّة والنار وعن عالم ما وراء الدنيا ونُصدِّقه في كلِّ ذلك، كيف لا نُصدِّقه حينما يُحدِّثنا عن معلومة بسيطة من عالم الدنيا؟

أليس النبيُّ قد تمتَّع بآليات معرفيَّة أُخرىٰ وهي التي يُسمّيها القرآن بالوحي أو جبرائيل أو روح القدس؟ وإذا كان قد تمتَّع بذلك فلا يمكن أن يتورَّط بالأخطاء التي يتورَّط بها سائر البشر، وهذا معناه أنَّنا لا نحتاج إلىٰ استدلال آخر علىٰ حجّية السُّنَّة النبوية غير فهم حقيقة النبوَّة، ليتأكَّد لنا قدسية أقوال النبيِّ وأفعاله. وهذا هو ما نُسمّيه بدليل التلازم بين صوابية السُّنَّة النبوية وبين صدق أصل النبوَّة، فإذا كان النبيُّ صادقاً في أصل النبوَّة فسُنَّته هي الأُخرىٰ يجب أن تكون صادقة وصحيحة دائماً.

هذا الأمر الواضح البديهي هو الذي أعطىٰ نظرية قدسيَّة السُّنَّة النبويَّة وضوحاً وبداهةً لدىٰ المسلمين جميعاً حتَّىٰ لا يكاد أحد يقبل أن

---

(١) أُنظر: المغازي/ الواقدي ٢: ٧٩٨؛ تاريخ الطبري ٢: ٣٢٨؛ سيرة ابن هشام ٣: ٨٥٨.

يكـون النبـيُّ كاذبـاً أحيانـاً أو واهمـاً أحيانـاً فيُحـدِّثنا بـما لا صـحَّة لـه ولا حقيقة له، لأنَّ ذلك لا يجتمع مع إيماننا بالنبوَّة ومعناها.

أمَّـا البُعـد البشـري للنبـيِّ ﷺ فهـو صـحيح لكـن القـرآن الكـريم يقول: إنَّ التسديد الإلهي هو الـذي يتفـوَّق عـلىٰ البعـد البشـري كـما في قولـه تعـالىٰ: ﴿فَيَنْسَـخُ اللهُ مـا يُلْـقِي الشَّـيْطانُ ثُـمَّ يُحْكِـمُ اللهُ آياتِـهِ﴾ (الحـجّ: ٥٢)، وقد سبق إيضاح دلالتها[1].

٣ - قصَّة ناقة النبيِّ ﷺ[2]:

نستطيع أن نذكر هنـا للمزيـد مـن توضـيح الفكـرة أيضـاً قصَّـة افتقـاد النبيِّ لناقته في أحـد الغـزوات، حيـث قـال المنـافقون: إنَّ هـذا الرجـل يـزعم أنَّه نبيٌّ، ويُحدِّثنا عـن الله وعـن القيامـة، وهـو لا يعـرف مكـان الناقـة، فهـبط جبرائيل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة.

تقـول الروايـة التاريخيـة في غـزوة بنـي المصـطلق: فهاجـت ريـح شـديدة آذتهـم وتخوَّفوهـا وضـلَّت ناقـة رسـول الله ﷺ، وكـان ذلـك لـيلاً، فقـال رجـل مـن المنـافقين: كيـف يـزعم أنَّـه يعلـم الغيـب ولا يعلـم مكـان ناقته؟ ألَا يُخبِره الـذي يأتيـه بـالوحي؟! فـأتـاه جبرائيـل فـأخبره بقـول المنـافق وبمكـان الناقـة، وأخـبر رسـول الله بـذلك أصـحابه، وقـال: «مـا أزعـم أنّي أعلـم الغيـب ومـا أعلمـه ولكـنَّ الله تعـالىٰ أخـبرني بقـول المنـافق وبمكـان ناقتي هي في الشِّعب»، فاذا هي كما قال، فجاؤوا بها.

هـذه القصَّـة هـي الأُخـرىٰ شـاهد عـلىٰ التواصـل التعليمـي بـين الله تعـالىٰ وبـين نبيِّـه الأكـرم ﷺ، هـذا التواصـل التعليمـي الـذي سـنتحدَّث

(١) أُنظر: الشاهد الثالث: الدليل العقلي.

(٢) أُنظر: الصحيح من سيرة النبيِّ الأعظم ﷺ/ جعفر مرتضىٰ العاملي ١٤: ٩.

عنه مفصَّلاً في فصل لاحق تحت عنوان (السُّنَّة تعليم إلهي) يؤكّد لنا أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ ليست بعيدة عن الرعاية والإسناد والتسديد الإلهي، وبالتالي يجب أن نتعامل معها بمزيد من الاحترام والقدسية.

خلاصة البحث:

يتلخَّص هذا البحث في أنَّ الشواهد القرآنية والشواهد الحديثية وشاهد العقل كلّها تؤكّد علىٰ حجّية السُّنَّة وعدم اختصاص ذلك بزمان ومكان، وذلك انطلاقاً من أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ لا تُمثِّل اجتهاداً شخصياً، بل تُمثِّل نوعاً من أنواع الوحي والتسديد الإلهي هو المسمّىٰ بـ (وحي السُّنَّة) أو (وحي التسديد)، وتمضي الرؤية الإسلاميَّة لتمنح النبيَّ ﷺ قدسية عالية أكبر من مجرَّد حجّية السُّنَّة، كما تمنحه حقّ التشريع بتفويض من الله تعالىٰ.

فيما تؤكّد الرؤية الإسلاميَّة علىٰ أنَّ نوافذ التواصل التعليمي هي نوافذ مفتوحة بين الله تعالىٰ وبين النبيِّ الأكرم ﷺ، كما تشهد لذلك القصص والوقائع التاريخية.

* * *

البحث الثاني
لماذا الحاجة إلى السُّنَّة النبويَّة؟

لماذا الحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة الشريفة؟

أليس القرآن الكريم كافياً؟

أليس كلام الله تبارك وتعالىٰ تبياناً لكلِّ شيء؟

أليس القرآن الكريم هو المصدر الأكثر وثاقةً؟

فلماذا نحتاج إلىٰ سُنَّة النبيِّ ﷺ؟

أليس النبيُّ هو نفسه الذي يعتمد القرآن الكريم؟

إذن فالقرآن هو الأوَّل والأخير، فهل هناك حاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة؟

يقول الحداثيون: إنَّنا لم نعد في هذا العصر بحاجة إلىٰ سُنَّة النبيِّ، ولا مبرِّر لاعتمادها، لأنَّ العقل البشري قادر علىٰ تقديم منهاج حياة فردي واجتماعي هو الأفضل من سُنَّة النبيِّ ﷺ التي كانت رائعة وجديرة في زمانها وليس في زماننا هذا.

هذه وغيرها مجموعة إثارات وتساؤلات عن مدىٰ الحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة في عصرنا هذا.

هذه الأسئلة والإثارات هي ما نحاول الإجابة عليه في هذا البحث.

أسباب الحاجة إلى السُّنَّة النبويَّة:

نستطيع أن نذكر في الإجابة علىٰ هذا السؤال أسباب عدَّة للحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة:

أوَّلاً: أنَّ القرآن الكريم رغم اعتقادنا بأنَّه كامل ولا نقص فيه كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ (النحل: ٨٩)، إلَّا أنَّ القرآن الكريم فيه مُحكم ومتشابِه كما نصَّ علىٰ ذلك القرآن الكريم نفسه حين يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾ (آل عمران: ٧)، والآيات المتشابهة هي تلك الآيات التي تقبل أكثر من تفسير، إذ يستطيع كلّ واحد أن يُفسِّرها لصالحه.

ويمكن أن نُوضِّح ذلك بمثال بسيط حينما يقول تعالىٰ: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ويقول تعالىٰ: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، فهذه آيات قد يُفسِّرها بعض الناس فيقول: إنَّها تدلُّ علىٰ حرّية الاعتقاد والتعدّدية الفكرية في الإسلام.

وحين يقول تعالىٰ: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ (الإنسان: ٣٠)، قد يُفسِّرها بعض الناس بأنَّها دالّة علىٰ الجبر وعدم امتلاك الإنسان لحرّيته في الاعتقاد.

وحين يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٤)، قد يُفسِّرها بعض بأنَّها دالّة علىٰ جسمية الله تعالىٰ.

ومن أجل ذلك ودفعاً لاستغلال الآيات المتشابهة دعانا القرآن الكريم إلىٰ اعتماد المحكمات، وسجَّل علىٰ مرضىٰ القلوب والمنافقين أنَّهم يعتمدون المتشابهات القابلة لتفاسير متناقضة ومتضادَّة، فقال: ﴿فَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧)، إذن نحن أمام كتاب فيه آيات متشابهات، والسؤال حينئذٍ من هو الذي يُفسِّر لنا تلك المتشابهات ويعطينا تأويلها وتفسيرها الحقيقي؟

الجواب: ذلك هو رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، ومن هنا تأتي الحاجة إلىٰ سُنَّة النبيِّ ﷺ كشرح وتفصيل وإيضاح لما هو المراد بالمتشابهات، بمعنىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام يُقدِّمون لنا المصاديق الصحيحة لتلك المتشابهات والمعنىٰ الصحيح المقصود منها.

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، قال: «رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم، قد علَّمه الله جميع ما أُنزل عليه من التنزيل والتأويل، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه، والقرآن خاصّ وعامّ، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، فالراسخون بالعلم يعلمونه»[١].

ثانياً: القرآن الكريم هو في الكثير من أحكامه يُبيِّن خطوطاً عريضة وتكاليف عامَّة، فمن الذي يكشف لنا تفاصيلها؟

مثلاً في التشريعات الإسلاميَّة ماذا تحدَّث القرآن الكريم عن الصلاة سوىٰ خطوط عريضة؟

وماذا تحدَّث عن الصوم سوىٰ خطوط عريضة؟

---

(١) أُصول الكافي/ الكليني ١: ٢١٣/ باب أنَّ الراسخين في العلم هم الأئمَّة عليهم السلام.

وماذا تحدَّث عن الزكاة سوىٰ خطوط عريضة؟

وماذا تحدَّث عن الحجّ سوىٰ خطوط عريضة؟

وماذا تحدَّث عن العلاقات الاجتماعية سوىٰ خطوط عريضة؟

وكذلك عن العلاقات السياسية وعن العلاقات الخارجية.

لاحظوا مثلاً في الصلاة وهي عمود الدين وفيها المئات من المسائل لكن القرآن الكريم لم يأتِ بأكثر من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ (البقرة: ٤٣)، أو ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ (الإسراء: ٧٨)، أو ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ ۝٢﴾ (المؤمنون: ٢)، وأمثال ذلك، أمَّا تفاصيل الركوع والسجود والجهر والإخفات والمواقيت وأحكام اللباس وأحكام القراءة وما شاكل ذلك فإنَّها لن تأتي في القرآن الكريم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أُصلّي»[1].

وهكذا حينما نتحدَّث عن الحجِّ، وماذا جاء في القرآن الكريم عن الحجِّ سوىٰ عمومات مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧)، و﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ (البقرة: ١٥٨)، في الوقت الذي يتضمَّن الحجّ المئات من المسائل التفصيلية في أحكام الطواف والجمرات وعرفات والمزدلفة والتلبية والإحرام وما شاكل ذلك، إذن من أين نأخذ هذه التفاصيل؟

---

(١) أَتَيْنَا إِلَىٰ النبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْماً وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيماً رَفِيقاً، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لاَ أَحْفَظُهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِىٰ أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ». (صحيح البخاري ١: ١٥٥/ باب الأذان/ الحديث رقم ٦٣١).

هنا قال رسول الله ﷺ: «خذوا مناسككم عنّي»(١).

إذن القرآن الكريم هو في معظم تكاليفه خطوط عريضة نحتاج إلىٰ السُّنَّة النبويَّة لبيان تفاصيل تلك الخطوط العريضة.

ثالثاً: القرآن الكريم فيه مبادئ عامَّة ذكرها عبر عناوين عامَّة واسعة، من قبيل عنوان العدالة أو صلة الأرحام أو البرّ بالوالدين أو الصدقات أو التعاون أو الإحسان، هذه مبادئ عامَّة لكن ما هي مصداقيات العدل والإحسان حينما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ (النحل: ٩٠)؟ وما هي تفاصيل البرّ بالوالدين حينما يقول تعالىٰ: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ (الإسراء: ٢٣).

نحن بحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة لمعرفة المصاديق الخارجية والتطبيقات الصحيحة لتلك العناوين.

إذن فالقرآن الكريم فيه عناوين عامَّة حينما يقول مثلاً: ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤)، ويقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها﴾ (الأنفال: ٦١)، هذه عناوين عريضة في العلاقات الخارجية أو العلاقات الاجتماعية الداخلية، هنا يأتي دور السُّنَّة النبويَّة في إعطاء التطبيقات والخطوط التفصيلية لتلك العناوين العامَّة.

ومن هنا تكون السُّنَّة النبويَّة حاجة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها، لأنَّ القرآن الكريم كما قلنا محكم ومتشابه وتكاليف عريضة

---

(١) صحيح مسلم ٤: ٧٩؛ سنن أبي داود ١: ٤٣٩؛ سنن النسائي ٥: ٢٧٠؛ وغيرهم بألفاظ مختلفة.

ومبادئ عامَّة، فهل يمكن أن يكون القرآن الكريم دستوراً شاملاً للحياة بدون سُنَّة نبويَّة تضع تلك العناوين العامَّة في تفاصيلها وترسم المنحنيات لتلك الخطوط العريضة وتُفسِّر المتشابهات؟

هل القرآن الكريم ناقص؟

حينئذٍ يأتي هذا السؤال: هل القرآن الكريم ناقص؟

الجواب: لا، ليس ناقصاً، ولكن القرآن الكريم كما أشرنا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧)، فهو كتاب كامل إلَّا أنَّ المعرفة بكنه هذا الكتاب وتأويله لا تتيسَّر لكلِّ أحد، فلا بدَّ من سُنَّة شارحة.

العقل لا يغني عن السُّنَّة:

وهناك سؤال ثانٍ، وهو: لماذا لا نعتمد علىٰ العقل بدل السُّنَّة النبويَّة؟ فإذا كان القرآن الكريم يعطينا الخطوط العريضة والمبادئ العامَّة، فإنَّ الاجتهاد العقلي للبشر هو الذي يضع لنا التفاصيل لتلك الخطوط العريضة من خلال المجالس التشريعية أو الفلاسفة والحكماء وعلماء الأخلاق والاجتماع وأمثالهم.

الجواب علىٰ هذا السؤال:

أوَّلاً: أنَّ القرار الإلهي هو الذي نتعبَّد به، وهو الذي فرض علينا الرجوع إلىٰ سُنَّة النبيِّ ﷺ، وقد أذن لنا بالاعتماد علىٰ اجتهاداتنا العقلية وخبراتنا البشرية المتواضعة في إطار أحكام القرآن والسُّنَّة النبويَّة لا خارجاً عنهما. فالمسألة هي ليست مسألة رأي نراه، وإنَّما هو قرار مفروض علينا من الله تعالىٰ، حينما يقول الله تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وحينما يقول: ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وحينما يقول رسول الله ﷺ: «لا عذر لكم في ترك سُنَّتي»[١]، ويقول ﷺ: «من رغب عن سُنَّتي فليس منّي»[٢]، إذن نحن أمام إلزام شرعي لا نملك حقّاً للخروج عليه ذاهبين إلىٰ اجتهاداتنا العقلية في تفسير النصّ القرآني.

ثانياً: إنَّ العقل هو الآخر غير قادر علىٰ وضع التفاصيل العبادية التي جاء القرآن فيها بخطوط عريضة، فماذا يقول العقل تجاه الصلاة مثلاً أو الحجّ مثلاً؟ هل للعقل رأي في أحكام الصلاة وأحكام الحجّ وأحكام الطواف؟ مع أنَّها قضايا غير خاضعة للاجتهاد البشري، بل هي مرتبطة مباشرة بالإرادة الإلهية التي فرضتها ورسمت كيفيتها من دون أن تخضع للمقاسات البشرية التي نعرفها نحن.

ثالثاً: ومن ناحية أُخرىٰ لنفترض أنَّ العقل له رأي في مسائل العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولكن من الذي يُمثِّل العقل؟ فهناك عقول وهناك اجتهادات، وهناك ملايين العقول بعدد البشر فأيّ عقلٍ نعتمده؟

وأيّ اجتهاد بشري نختاره يكون مقبولاً عند الله تعالىٰ في الوقت الذي لم يعطينا الله تعالىٰ إذناً عامّاً باعتماد اجتهاداتنا.

وعلىٰ هذا الأساس فإنَّنا أمام قرار شرعي إلزامي باعتماد القرآن أوَّلاً حينما قال تعالىٰ: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأعراف:

---

(١) معاني الأخبار/ الشيخ الصدوق: ١٥٦.

(٢) صحيح البخاري ٦: ١١٦؛ صحيح مسلم ٤: ١٢٩؛ وغيرهما.

٣)، واعتماد السُّنَّة ثانياً حينما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وسيأتي مزيد من الإيضاح لهذا الموضوع لدىٰ مناقشة الشبهات الحداثية في بحوث لاحقة.

خلاصة البحث:

يتلخَّص هذا البحث في أنَّ السُّنَّة النبويَّة لا يمكن الاستغناء عنها لا بالقرآن ولا بالعقل، فالقرآن لا يعلم تأويله إلَّا الله والراسخون في العلم، وهم النبيُّ ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، وبالتالي لا يمكن كشف مراميه الحقيقية وتفاصيل أحكامه، وكشف متشابهاته إلَّا من خلال السُّنَّة الشريفة، كما أنَّ العقل لا يغني هو الآخر عن سُنَّة النبيِّ ﷺ، لأنَّ الله تعالىٰ لم يسمح لنا بالاستناد إلىٰ اجتهاداتنا البشرية في معرفة أحكامه ومقاصده.

* * *

البحث الثالث
عالمية السُّنَّة النبويَّة

تُعتَبر عالمية الرسالة الإسلاميَّة(١) من البداهات والضرورات الدينية لدىٰ جميع المسلمين، ولم يناقش في ذلك أحد قديماً ولا حديثاً في أوساط الفكر الإسلامي، إلَّا أنَّنا قد نسمع اليوم بعض الرؤىٰ الحداثية التي تتحدَّث عن عروبية السُّنَّة النبويَّة واختصاصها بالجزيرة العربية، تنشأ هذه الرؤية من بشرية النبيِّ ﷺ، وادِّعاء خضوعه لثقافة زمانه، وسوف يأتي مناقشة هذه الرؤية الحداثية التي تمضي للقول بعروبية القرآن الكريم والرسالة الإسلاميَّة عموماً(٢)، وأنَّ ادِّعاء فكرة العالمية الإسلاميَّة قد نسجتها كتب الحديث ولا وجود لها في القرآن الكريم(٣).

---

(١) هناك بحثان: أحدهما عالمية الرسالة الإسلاميَّة، وقد سبق دراستها في كتابنا (دفاع عن القرآن)، وثانيهما عالمية السُّنَّة النبويَّة، وهذا يحتاج إلىٰ استدلال خاصّ، وهو ما سنتناوله في هذا الكتاب لدىٰ مناقشة الشبهات الحداثية حول السُّنَّة النبويَّة.

(٢) في كتاب (دفاع عن القرآن) ناقشنا الإشكاليات علىٰ العالمية، فراجع.

(٣) يقول طرابيشي: (جميع المؤوّلين الذين أرادوا تحويل النبيّ (الأُمّي) إلىٰ نبيّ (أُممي) أي نبيّ أُمم الأرض كافَّة وليس فقط نبيّ الأُمّيين العرب المرسل بلسانهم منهم وإليهم، ما استطاعوا أن يفوزوا في آي القرآن الستَّة آلاف ونيف جميعها، إلَّا بآية واحدة هي الآية الثامنة والعشرين من سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨]). (من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ٩٥). (المحقِّق).

يقول جورج طرابيشي[1]:

(الواقع أنَّه في كتب الحديث وليس في القرآن، تمَّ تحويل النبيّ الأُمّي المرسل إلىٰ قومه إلىٰ نبيٍّ مرسل إلىٰ الأُمم قاطبة)[2].

أدلَّة العالمية:

والحقيقة أنَّ عالمية القرآن والسُّنَّة النبوية هي كما ذكرنا من البداهات الإسلاميَّة، ولسنا بحاجة للاستدلال عليها، فدعوة النبيِّ الأكرم ﷺ للإيمان برسالته لم تكن خاصَّة بقوم دون آخرين، ولقد كان معلوماً وما يزال أنَّ الإسلام لجميع الناس، والقرآن الكريم تصدح آياته بالعالمية حينما يخاطب عموم البشر قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في عشرات الآيات القرآنية.

ورغم وضوح ذلك فإنَّ العالمية الإسلاميَّة علىٰ مستوىٰ القرآن والسُّنَّة النبويَّة يمكن الاستشهاد لها بستَّة أدلَّة هي عبارة عن:

١ - الدليل القرآني.

---

(١) جورج طرابيشي (١٩٣٩ - ٢٠١٦م)، مفكّر وكاتب وناقد ومترجم عربي سوري. من مواليد مدينة حلب عام (١٩٣٩م)، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق (١٩٦٣ - ١٩٦٤م)، ورئيساً لتحرير مجلَّة دراسات عربية (١٩٧٢ - ١٩٨٤م)، ومحرِّراً رئيسياً لمجلَّة الوحدة (١٩٨٤ - ١٩٨٩م). أقام فترة في لبنان، ولكنَّه غادره، وقد بعد حربه الأهلية، إلىٰ فرنسا التي بقي فيها حتَّىٰ وفاته متفرِّغاً للكتابة والتأليف، تميَّز بكثرة ترجماته ومؤلَّفاته حيث ترجم لفرويد وهيغل وسارتر وبرهييه وغارودي وسيمون دي بوفوار وآخرين. بلغت ترجماته ما يزيد عن مائتي كتاب في الفلسفة والإيديولوجيا والتحليل النفسي والرواية. (ويكيبيديا الشبكة العالمية للمعلومات). (المحقِّق).

(٢) من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ٩٨.

٢ – الدليل الروائي.

٣ – الدليل التاريخي.

٤ – دليل طبيعة التشريع الإسلامي.

٥ – دليل الرؤية المستقبلية.

٦ – دليل الشمولية الإسلاميَّة.

أوَّلاً: الدليل القرآني:

أمَّا القرآن الكريم فيمكن الاستشهاد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ (القلم: ٥٢).

وعلىٰ الرغم من أنَّ القرآن الكريم قد يُخصِّص الخطاب أحياناً بأُمَّة معيَّنة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، إلَّا أنَّ هذه الآيات ليس فيها أيّ دلالة علىٰ اختصاص القرآن الكريم بأُولئك القوم، نعم هو ذكر لهم وهو ذكر لغيرهم أيضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ (القلم: ٥١ و٥٢)، إذ اعتبر القرآن ذكراً للعالمين. ويتكرَّر هذا المعنىٰ في أربعة مواضع في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

ولا شكَّ أنَّ هذه الآيات القرآنية لا تتحدَّث عن عالمية القرآن

(١) كما في سورة يوسف: ١٠٤، وسورة (ص): ٨٧، وسورة التكوير: ٢٧، وسورة القلم: ٥٢.

وحده، بل عالمية رسالة الرسول ﷺ وسُنَّة الرسول ﷺ، وذاك يعني أنَّ السُّنَّة النبويَّة تتَّصف بالعالمية كما هو القرآن الكريم.

ثانياً: الدليل الروائي:

فقد كان رسول الله ﷺ نفسه يقول بحسب رواية جابر بن عبد الله الأنصاري: «بُعِثْتُ إلىٰ الناس عامَّة»[1].

بينما يروي الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنَّه جاء نفر من اليهود إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّد، إنَّك رسول الله، وإنَّك الذي يوحىٰ إليك كما أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ بن عمران؟

فسكت النبيُّ ﷺ ساعة، ثمّ قال: «نعم أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر، وأنا خادم النبيّين، وإمام المتَّقين، ورسول ربّ العالمين».

قالوا: إلىٰ من؟ إلىٰ العرب أم إلىٰ العجم أم إلينا؟

فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف: ١٥٨)[2].

وفي رواية ثالثة: «والله الذي لا إله إلَّا هو إنّي رسول الله إليكم خاصَّة وإلىٰ الناس عامَّة»[3].

ثالثاً: الدليل التاريخي:

أمَّا الدليل التاريخي فإنَّ التاريخ الإسلامي وتاريخ النبيِّ الأكرم ﷺ كان شاهداً علىٰ العالمية الإسلاميَّة، ويمكن أن نذكر هنا بعض الحوادث:

---

(١) كما رواها البخاري ومسلم.

(٢) أُنظر: تفسير البرهان، في تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.

(٣) الكامل في التاريخ/ ابن الأثير ٢: ٦١.

١ - حين أرسل رسول الله ﷺ رسلاً إلىٰ كسرىٰ وقيصر يدعوهم للإسلام، كما جاء في (الطبقات الكبرىٰ)[1] لابن سعد أنَّ رسول الله ﷺ أرسل في السنة السابعة للهجرة إلىٰ ملوك ستَّة هم: النجاشي ملك الحبشة، وقيصر ملك الروم، وكسرىٰ ملك الفرس، والمقوقس ملك مصر، والحارث ملك البلقاء، وهوذه ملك اليمامة)، يقول في كتابه إلىٰ النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلىٰ النجاشي ملك الحبشة، أسلم انت فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلَّا هو..، وإنّي أدعوك إلىٰ الله وحده لا شريك له...»، وكتب إلىٰ هرقل ملك الروم: «أمَّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرَّتين...».

علىٰ ماذا تدلُّ هذه الوفود وهذه الرسائل؟

إنَّها تدلُّ بشكل واضح علىٰ عالمية الرسالة الإسلاميَّة بقرآنها وسُنَّتها، فالقرآن هو كتاب الله إلىٰ الناس أجمعين، وسُنَّة رسول الله ﷺ هي سُنَّة للناس أجمعين أيضاً.

٢ - كما أنَّ القضيَّة التاريخية المعروفة في معركة الأحزاب حينما حفر المسلمون بأمر النبيِّ ﷺ خندقاً واستعصت عليهم صخرة عاتية تكسَّرت عليها فؤوسهم، فجاء إليها رسول الله ﷺ وكسَّرها بيده قائلاً وهو يكبر: «رأيت قصور كسرىٰ وقيصر»[2].

ذكر المؤرِّخون بينما جماعة من المسلمين يعملون في حفر الخندق إذ ظهرت صخرة بيضاء فكسرت حديد معاولهم، فأخبروا رسول الله

---

(١) الطبقات ١: ٢٥٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٧٧؛ تاريخ الطبري ٢: ٢٩٥.

(٢) المصادر السابقة.

ﷺ، فجاء ﷺ وأخذ المعول فقال: «بسم الله»، ثمّ ضربها فنثر ثلثها وخرج منها نور أضاء ما بين لابتيها (آفاق المدينة)، فقال: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إنّي لأُبصِر قصورها الحمر الساعة من مكاني»، ثمّ ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت آفاق المدينة، فقال ﷺ: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إنّي لأُبصِر قصر المدائن الأبيض الآن فأبشروا بالنصر»، ثمّ ضرب الثالثة، فخرج نور من قِبَل اليمن فأضاء ما بين المدينة حتَّىٰ كأنَّه المصباح في جوف ليل مظلم، فقال: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إنّي لأُبصِر أبواب صنعاء من مكاني هذا».

لاحظوا إنَّ النبيَّ هنا كان يقرأ المستقبل العالمي للإسلام، وكان يستشرف العالمية الإسلاميَّة، ولم يكن هذا مجرَّد أماني وتمنّيات، إنَّما هو إدراك للعالمية الإسلاميَّة، وعلىٰ هذا الأساس لم يعد أيّ مجال للحديث عن عروبية الرسول ﷺ وقوميته أو محلّيته وإقليميته، فهو مبعوث إلىٰ قومه وإلىٰ غيرهم، وإلىٰ أهل بلدته وإلىٰ العالم كلّه، وذاك يعني أنَّ قرآنه هو قرآن عالمي وسُنَّته هي سُنَّة عالمية ليست محلّية ولا إقليمية ولا قومية.

إشكال وجواب:

يقول الحداثيون: إنَّ النبيَّ الأكرم ﷺ هو ابن قومه وأُمَّته وثقافة زمانه ومكانه، فلا بدَّ أن تكون سُنَّته ناظرة وخاصَّة بأهل ذلك الزمان.

والجواب علىٰ ذلك: أنَّه كلام صحيح لو كان رسول الله ﷺ إنساناً عادياً لا علاقة له بالسماء، لكن حينما يكون النبيُّ ﷺ رسولاً من عند الله تبارك وتعالىٰ، إذن هو أكبر وأوسع من حدود القومية الضيِّقة.

وبتوضيح أكثر إنَّنا إذا تعاملنا مع النبيِّ ﷺ بوصفه إنساناً عادياً

مقطوعاً عن الوحي والغيب كان هذا الإشكال صحيحاً، ولكن حينما نتعامل معه بوصفه مبعوثاً من الله تعالىٰ ومكلَّفاً بإيصال شريعة إلهية عالمية لكلِّ البشر، فحينئذٍ يكون هذا الإنسان عالمياً في ثقافته وسُنَّته.

وهكذا حين يقول القرآن الكريم: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٤)، هذا أيضاً صحيح، ولكنَّه لا يدلُّ علىٰ اختصاص الرسالة الإسلاميَّة بأُولئك القوم، إنَّما الحديث هنا عن لغة الخطاب، فالخطاب يجب أن يكون مفهوماً للمخاطَبين، فكان يتعيَّن أن يكون بلسان قومه.

إذن ولمزيد من التوضيح نقول: هناك فرق بين أمرين:

١ - حدود اللغة التي نزل بها الخطاب، والناس الذين عايشهم وخاطبهم النبيّ، ٢ - سعة الخطاب في مداليله التشريعية والعقيدية.

فإنَّ لغة الخطاب يجب أن تكون هي اللغة السائدة في بلدة النبيِّ وعند الناس الذين يخاطبهم ويُكلِّمهم، وأمَّا مدلول الخطاب في أبعاده التشريعية والعقيدية فإنَّه يتَّسع بسعة الرسالة التي جاء بها.

رابعاً: دليل طبيعة التشريع الإسلامي:

كما أنَّ طبيعة التشريع الإسلامي وكذلك العقيدة الإسلاميَّة هي شاهد علىٰ العالمية وعدم الاختصاص بقومية معيَّنة، فالقرآن الكريم حينما يتحدَّث قائلاً: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ۝﴾ (الانشقاق: ٦)، أو حين يقول: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (النساء: ١)، فهذه لا تقبل أيّ تخصيص بقومية معيَّنة، ومثلها حين ننتقل إلىٰ آيات التشريع الإسلامي، حين يقول مثلاً في قصَّة هابيل وقابيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢)، فرغم أنَّ هذا الخطاب والتشريع نزل في أُمَّة معيَّنة وهم بنو إرائيل إلَّا أنَّ دلالات هذا الخطاب وفحوىٰ هذا التشريع لا تقبل التخصيص ببني إسرائيل وحدهم، بل هي ذات صبغة عالمية.

ومثل ذلك يجري علىٰ السُّنَّة النبويَّة أيضاً، فأن يكون الرسول ﷺ بصدد معالجة مشاكل في قومه العرب هم من أبناء الجزيرة، هذا أيضاً لا يُمثِّل شاهداً علىٰ اختصاص تلك السُّنَّة بالقومية العربية، بل هي حالة ميدانية، فقد كان النبيُّ ﷺ يعيش مع هؤلاء القوم، إذن يجب أن يعالج مشاكلهم، إلَّا أنَّ هذه المعالجات قابلة للامتداد لأمثالها من الحالات والمشاكل عالمياً وحيث ما تكون الحالات المماثلة لها، وتبعاً لمدلول النصّ الذي قاله الرسول ﷺ.

فحينما يقول رسول الله ﷺ في الحديث المعروف عنه مثلاً: «من لم يهتم بأُمور المسلمين فليس بمسلم»(١)، أو حين يقول: «من كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعده من النار»(٢)، أو حين يقول: «الخلق عيال الله فأحبّ العباد إلىٰ الله أنفعهم لعياله»(٣)، فإنَّ هذه التشريعات نجد المسحة العالمية فيها واضحة وليس المسحة القومية.

إذن يجب أن نخضع في معرفة سعة مساحة النصّ إلىٰ دلالاته اللغوية وليس إلىٰ الجماعة المخاطبة به، وإذا لاحظنا ذلك فسنجد أنَّ السُّنَّة النبويَّة لا تقبل أبداً الاختصاص بأبناء الجزيرة أو غيرهم من

(١) الكافي/ الكليني ٢: باب الاهتمام بأُمور المسلمين.
(٢) صحيح البخاري ٢: ٨١؛ سنن الترمذي ٤: ١٤٢؛ وغيرهما.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٥: ٣٥٦، وغيره.

العـرب دون مـن سـواهم مـن العـالمين، كيـف وقـد قـال رسـول الله ﷺ: «إنَّـما بُعثـت لأُتمِّـم مكـارم الأخـلاق»(١)؟ فهـل يقبـل ذلـك أن تكـون سُـنَّته خاصَّة بالعرب أو خاصَّة بأهل زمانه!؟

خامساً: دليل الرؤية المستقبلية:

لقـد استشــرف رسـول الله ﷺ آفـاق المسـتقبل الإنسـاني البعيـد، وتلـك هـي الرؤيـة المسـتقبلية التـي تحـدَّث بهـا رسـول الله ﷺ حـين كـان يقول بما ثبت عنه بـالتواتر: «لا تقـوم السـاعة حتَّـىٰ يخـرج رجـل مـن ولـدي يمـلأ الأرض قسـطاً وعـدلاً بعـدما ملئـت ظلـماً وجـوراً»(٢)، فـإنَّ هـذا استشــراف للعالميـة «يمـلأ الأرض قسـطاً وعـدلاً»، فالمسـألة هـي أوسـع بكثـير مـن الأيّـام المعـدودة التـي عاشـها نبيّنـا ﷺ أو المنطقـة المحـدودة جغرافياً التي تحرَّك فيها.

سادساً: دليل الشمولية:

بـل إنَّ الرسـالة الإسـلاميَّة ذات صـبغة شـمولية فهـي لم تكـن خاصَّـة بالإنسان، بل هي تشـمل جميـع الإنـس والجـانّ، ولهـذا جـاء القـرآن الكـريم متحـدِّثاً عـن الجـنِّ في قولـه تعـالىٰ: ﴿قُـلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّـهُ اسْـتَمَعَ نَفَـرٌ مِـنَ الْجِـنِّ﴾ (الجـنّ: ١)، وهكـذا حيـنما نقـرأ في الـدعاء المعـروف بـدعاء الندبـة للإمام الثاني عشـر عليه السلام: «وبعثته إلىٰ الثَّقَلين من عبادك»(٣).

والقرآن الكـريم يؤكّـد أنَّ الإنسـان هـو المكلَّـف عـلىٰ الأرض، كـما أنَّ

---

(١) السنن الكبرىٰ/ البيهقي ١٠: ١٩٢.

(٢) مسند أحمد ٣: ٣٦؛ سنن أبي داود ٢: ٣٠٩؛ مستدرك الحاكم ٤: ٤٦٥.

(٣) مفاتيح الجنان/ دعاء الندبة للإمام المهدي عليه السلام.

الكائن الآخر وهو الجنّ يخضعون للتكليف الإلهي أيضاً، ولهذا كان منهم من آمن ومنهم من كفر حينما تحدَّث عنهم القرآن الكريم بالقول: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴿١٤﴾﴾ (الجنّ: ١٤).

لاحظوا ذلك أيضاً في قصَّة سليمان تاريخياً حين سخَّر الله تعالىٰ له الجنَّ بين يديه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ﴾ (النمل: ٣٩)، إذن لغة النبوّات الإلهية هي أوسع من المحيط البشري، بل هي ذات طابع شمولي، وهذا هو ما نُسمّيه بالشمولية الإسلاميَّة.

وعلىٰ ذلك فإنَّ سُنَّة رسول الله ﷺ لم تكن خاصَّة بقوم من دون آخرين، ولا بزمان من دون آخر، بل هي عامَّة شاملة.

خلاصة هذا البحث:

يتلخَّص هذا البحث في أنَّ السُّنَّة النبويَّة كما هو في القرآن الكريم تتمتَّع بصفة العالمية الزمانية والمكانية، وذلك من خلال الاستدلال علىٰ ذلك بستَّة أدلَّة هي: الدليل القرآني، والدليل الروائي، والدليل التاريخي، وطبيعة التشريع الإسلاميَّة، ودليل الشمولية، ودليل الرؤية المستقبلية.

ويؤكّد هذا البحث علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ من خلال ارتباطه بالسماء قادر علىٰ تجاوز ثقافته المحلّية وحدوده البشرية.

* * *

البحث الرابع
مشكلة مستجدّات العصر وطرق معالجتها

مشكلة مستجدّات العصر:

كيف يمكن للسُّنَّة النبويَّة أن تستوعب المستجدّات العصرية والحوادث الاجتماعية المتغيِّرة علىٰ مدىٰ السنين والقرون المتمادية وعلىٰ اختلاف الأماكن واختلاف الطبائع البشرية والتقاليد الاجتماعية؟

ما هي مستجدّات العصر؟

إنَّ العصر الحديث قد شهد ثلاثة مستجدّات لم تكن من قبل:

المستجدّ الأوَّل: تسخير الطبيعة:

حيث استطاع الإنسان منذ القرنين الأخيرين أن يُسخِّر الطبيعة ويهيمن عليها ويُوظِّفها لمصالحه سواء في مجال الفضاء أو في مجال البيئة، وحتَّىٰ وصلنا في مجال النفس والوراثة والجينات، وإلىٰ الطبِّ وزراعة الأعضاء.

المستجدّ الثاني: ثقافات جديدة:

ظهور ثقافات جديدة في عالم الإنسان، ثقافة (حقوق الإنسان)، ثقافة (حقوق المرأة)، ثقافة (المساواة)، ثقافة (حقّ الشعوب)، ثقافة (الحرّية)، ثقافة (الانتخابات)، (حقوق العمّال)، (المجتمع الدولي)، (التعدّدية)، هذه ثقافات جديدة لم تكن مألوفة من قبل.

المستجدّ الثالث: انتهاء اليقين والجزمية:

انتهـاء الجزميـة وانتهـاء اليقـين، بمعنـىٰ أنَّ المجتمـع الإنسـاني كـان يعيش نظام اليقينيـات، فلديـه مجموعـة مـن اليقينيـات الفكريـة التـي تحكمـه سواء في مجـال اعتقـادات بـما وراء الطبيعـة أو في مجـال الاعتقـاد بالطبيعـة أو في مجال شؤون الإنسان نفسه، كـان الإنسـان يعـيش مجموعـة يقينيـات يراهـا غير قابلة للشـكِّ، ولكـن العصـر الحـديث اسـتطاع أن ينسـف اليقـين، فلـم تعد تلك اليقينيات يقينيـة، بـل تحـوَّل كثـير منهـا إلىٰ خرافـة ووهـم، ومـا زال العلم ينسف يوماً بعد آخر كثيراً من اليقينيات[1].

ما هي المشكلة؟

هـذا الموضـوع هـو الـذي يُمثِّـل مشـكلة واجهـت مسـألة عموميـة السُّنَّة النبويَّـة وعالميتهـا، بـل هـو مـا اعتـبره الحـداثيون سـبباً لتخلّـف الأُمَّـة الإسـلاميَّة حـين أرادت التمسّـك في هـذا العصـر بسُـنَّة النبـيِّ ﷺ التـي مضىٰ عليها ما يزيد علىٰ أربعة عشر قرناً.

يقول جورج طرابيشي:

(إن يكن التشـريع الإسـلامي الـذي عـزا إلىٰ نفسـه مـن خـلال السُّـنَّة المنسـوبة إلىٰ النبـيِّ مصـدراً إلهيـاً قـد صـان ذلـك الوجـود - الإسـلامي - وحفظه، فإنَّه بالمقابل قـد شـلَّه عـن التطـوّر بقـدر مـا جمَّـده في وضـعية ثابتـة ومكرَّرة لنفسها وعابرة لشروط الزمان والمكان)[2].

إنَّ جـورج طرابيشـي في هـذا الـنصّ يـرىٰ الالتـزام بالسُّـنَّة النبويَّـة

(١) للاستزادة يُنظَر: مطارحات في نقد الفكر الحداثي للمؤلِّف (المطارحة التاسعة). (المحقِّق).

(٢) من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ١٠٧.

واعتبارها حجَّة شرعية لكلِّ زمان ومكان هو الذي منع المسلمين من التطوّر ومواكبة العصر!

وسنتناول هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً في بحوث قادمة، ونكتفي هنا بالموجز.

المعالجة الحداثية للمشكلة:

لقد حاول الحداثيون أن يعالجوا هذه المعضلة من خلال الدعوة لفتح باب الاجتهاد البشري في الشريعة بشكل مطلق حتَّىٰ وإن خالف السُّنَّة النبويَّة الشريفة، لاعتبار أنَّ رسول الله ﷺ مجتهد في فهم الوحي كما هم مجتهدون! ولغير ذلك من المبرِّرات، وبالتالي فيجب أن تستمرَّ التجارب البشرية لإثراء الدين وتقديم رؤىٰ وأحكام مختلفة فيه، وليس بالضرورة أن تكون وفقاً لما جاء به القرآن والسُّنَّة.

يقول عبد الكريم سروش[1]:

---

(١) عبد الكريم سروش (١٩٤٥م) هو الاسم المستعار لحسن حاجي فرج الدبّاغ، التحق بجامعة لندن في فرع الكيمياء وحصل علىٰ الدكتوراه، وكان إضافة لتخصّصه في الكيمياء والصيدلة متبحِّراً في فلسفة العلم ومطَّلعاً علىٰ معطيات أحدث تيّاراتها النقدية الحديثة وتراث المدرسة الوضعية. ظهر سروش منذ أوائل الثمانينيات كواحد من الكتّاب غزيري الإنتاج في إيران، وعالجت كتاباته الأُولىٰ النظريات الماركسية وموضوعات فلسفة العلم، ومن أهمّ أعماله البارزة في تلك الفترة كتاب (المعرفة والقيمة)، وكتاب (ما هو العلم؟ ما هي الفلسفة؟)، إضافةً إلىٰ دراسة نقدية لكتاب محمّد باقر الصدر (الأُسس المنطقية للاستقراء) نُقِلَت علىٰ العربية ضمن كتاب السيِّد عمّار أبو رغيف بعنوان (الأُسس المنطقية للاستقراء في ضوء دراسة الدكتور سروش) سنة (١٩٨٩م)، وهي السنة التي بدأ فيها سروش بنشر مقالات (القبض والبسط للشريعة)، وقد أثارت جدلاً واسعاً ونقاشاً حادّاً بين المؤيِّدين والمعارضين، فجُمِعَت بعد ذلك في كتاب حمل العنوان نفسه (القبض والبسط في الشريعة) ونُقِلَ إلىٰ العربية. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

(التجارب الدينية الأُخرىٰ تزيد في ثراء الدين وبمرور الزمان يتوسَّع الدين وينبسط، ولذلك كانت التجارب الدينية للعرفاء مكمِّلة وموسِّعة للتجربة الدينية للنبيِّ، وبالتدريج سيكون الدين الإلهي أكثر ثراءً وتوسّعاً، وهذا التوسّع ليس في المعرفة الدينية وشرح النصوص الدينية للنبيِّ ﷺ فحسب، بل إنَّه يحصل في نفس الدين والشريعة)[1].

نظرية (الاجتهاد) تعالج المشكلة:

نحن نعتقد أنَّ نظرية (الاجتهاد) تعالج مشكلة المستجدّات العصرية، ولكن يجب أن نعرف أنَّ هناك ثلاث نظريات في الاجتهاد:

النظرية الأُولىٰ: هي (غلق باب الاجتهاد)[2] علىٰ جميع علماء

---

(١) التجربة الدينية/ عبد الكريم سروش: ٢٨، نقلاً عن الحداثة والفكر الإسلامي: ٢٢١.

(٢) سد باب الاجتهاد:

وأرادوا به حظر الاجتهاد بعد أن تمَّ غلق أبوابه - علىٰ يد بعض السلطات علىٰ جميع المكلَّفين - وحصر الرجوع إلىٰ خصوص المذاهب الأربعة. وقد أرجع الأستاذ عبد الوهّاب خلاف ذلك إلىٰ عوامل أربعة نشير إلىٰ أهمّ خطوطها، وهي:

١ - انقسام الدولة الإسلاميَّة إلىٰ عدَّة ممالك، وتناحر ملوكها ووزرائها علىٰ الحكم ممَّا أوجب انشغالهم عن تشجيع حركة التشريع، وانشغال العلماء تبعاً لذلك بالسياسة وشؤونها.

٢ - انقسام المجتهدين إلىٰ أحزاب لكلِّ حزب مدرسته التشريعية وتلامذتها، ممَّا دعا إلىٰ تعصّب كلّ مدرسة لمبانيها الخاصَّة أُصولاً وفروعاً وهدم ما عداها، (حتَّىٰ صار الواحد منهم لا يرجع إلىٰ نصٍّ قرآني أو حديث إلَّا ليلتمس فيه ما يؤيِّد مذهب إمامه ولو بضرب من التعسّف في الفهم والتأويل)، (وبهذا فنيت شخصية العالم في حزبيَّته، وماتت روح استقلالهم العقلي، وصاروا الخاصَّة كالعامَّة أتباعاً ومقلِّدين).

٣ - انتشار المتطفّلين علىٰ الفتوىٰ والقضاء، وعدم وجود ضوابط لهم، ممَّا أدّىٰ إلىٰ تقبّل سدّ باب الاجتهاد في أواخر القرن الرابع، وتقييد المفتين والقضاة بأحكام الأئمَّة، حيث عالجوا الفوضىٰ بالجمود. ⇦

الإسلام سوىٰ أئمَّة المذاهب الأربعة في القرن الثاني والثالث للهجرة، وهم:

١ - الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، المتوفّىٰ عام (١٥٠هـ).

٢ - الإمام المالكي (مالك بن أنس)، المتوفّىٰ عام (١٧٩هـ).

٣ - الإمام الشافعي (محمّد بن إدريس)، المتوفّىٰ عام (٢٤١هـ).

٤ - الإمام أحمد بن حنبل، المتوفّىٰ عام (٢٤١هـ).

وتدعو هذه النظرية إلىٰ اعتماد آراء هؤلاء الأئمَّة الأربعة حصراً، ولا يحقُّ لأحد من المسلمين بعدهم أن يجتهد في فهم أحكام الشريعة الإسلاميَّة.

وهذه النظرية هي النظرية السائدة اليوم لدىٰ أهل السُّنَّة رغم وجود دعوات مهمَّة لفتح باب الاجتهاد.

وفي ضوء هذه النظرية (غلق باب الاجتهاد) سوف لا يمكن معالجة مشكلة المستجدّات العصرية، لضيق السُّنَّة الشريفة ونصوص القرآن الكريم عن استيعاب المستجدّات المعاصرة، ومن هنا جاءت دعوات عدد من مشايخ الأزهر الشريف المعاصرين لفتح باب الاجتهاد كما هو لدىٰ الشيعة[1].

⇦ ٤ - شيوع الأمراض الخلقية بين العلماء والتحاسد والأنانية، (فكانوا إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد فتح علىٰ نفسه أبواب التشهير به، وحطَّ أقرانه من قدره، وإذا أفتىٰ في واقعة برأيه قصدوا إلىٰ تسفيه رأيه وتفنيد ما أفتىٰ به بالحقِّ وبالباطل، فلهذا كان العالم يتَّقي كيد زملائه وتجريحهم بأنَّه مقلِّد وناقل، لا مجتهد ومبتكر، وبهذا ماتت روح النبوغ، ولم ترفع في الفقه رؤوس، وضعفت ثقة العلماء بأنفسهم وثقة الناس بهم). (الأُصول العامَّة للفقه المقارن/ محمّد تقي الحكيم: ٦٠٠). (المحقِّق).

(١) من القدماء (هناك من كان يدعو إلىٰ فتح باب الاجتهاد والاعتراض علىٰ سدِّه منذ القرون التي أُعلن فيها انسداد بابه حتَّىٰ يومنا هذا، أمثال أبي الفتح الشهرستاني المتوفّىٰ سنة (٥٤٨هـ)، ⇦

⇦ وأبي إسحاق الشاطبي المتوفّىٰ سنة (٧٩٠هـ)، والسيوطي المتوفّىٰ سنة (٩١١هـ)، وقد ألَّف السيوطي رسالة سمّاها (الردّ علىٰ من أخلد إلىٰ الأرض، وجهل أنَّ الاجتهاد في كلِّ عصر فرض)، وقدَّم لهذه الرسالة بقوله: (إنَّ الناس قد غلب عليهم الجهل، وأعماهم حبّ العناد وأصمَّهم، فاستعظموا دعوىٰ الاجتهاد وعدّوه منكراً بين العباد، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أنَّه فرض من فروض الكفايات في كلِّ عصر، وواجب علىٰ أهل كلِّ زمان أن يقوم به طائفة في كلِّ قطر).

وقال الشوكاني: (ومن حصر فضل الله علىٰ بعض خلقه وقصر فهم هذه الشريعة علىٰ من تقدَّم عصره، فقد تجرَّأ علىٰ الله ﷻ ثمّ علىٰ شريعته الموضوعة لكلِّ عباده، ثمّ علىٰ عباده الذين تعبَّدهم الله بالكتاب والسُّنَّة).

وقال أبو محمّد البغوي: (وفرض الكفاية هو: أن يتعلَّم ما يبلغ رتبة الاجتهاد ومحلّ الفتوىٰ والقضاء ويخرج من عداد المقلِّدين، فعلىٰ كافَّة الناس القيام بتعلّمه، غير أنَّه إذا قام من كلِّ ناحية واحد أو اثنان سقط الفرض عن الباقين، فإذا قعد الكلُّ عن تعلّمه عصوا جميعاً، لما فيه من تعطيل أحكام الشرع، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾ [التوبة: ١٢٢])، إلىٰ غير هؤلاء من العلماء الكبار الذين كانوا يدعون إلىٰ فتح باب الاجتهاد، ويقفون أمام غلقه).

ومن المعاصرين (استمرَّ هذا الصمود أمام غلق باب الاجتهاد إلىٰ القرون المتأخِّرة حيث ظهر في العلماء من يدعو إلىٰ فتح بابه من جديد، أمثال السيِّد جمال الدين الأسدآبادي المشهور بـ(الأفغاني) الذي كان يقول: (ما معنىٰ باب الاجتهاد مسدود؟ وبأيِّ نصٍّ سُدَّ؟ وأيُّ إمام قال: لا يصحُّ لمن جاء بعدي أن يجتهد ليتفقَّه في الدين ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس علىٰ ما ينطبق علىٰ العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه؟).

ومثل الشيخ محمّد عبده حيث يقول: (إنَّ الحياة الإنسانية للمجتمع الإنساني حياة متطوِّرة، ويجد فيها من الأحداث والمعاملات اليوم ما لم تعرفه أمس هذه الجماعة، والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة الملائمة بين أحداث الحياة المتجدِّدة وتعاليم الإسلام، ولو وقف الأمر بتعاليم الإسلام عند تفقّه الأئمَّة السابقين لسارت الحياة الإنسانية في الجماعة الإسلاميَّة في عزلة عن التوجيه الإسلامي، وبقيت أحداث هذه الحياة في بعد عن تجديد الإسلام إيّاها. وهذا الوضع يحرج المسلمين في إسلامهم). ⇦

والنظرية الثانية: هي فتح (باب الاجتهاد) في داخل إطار النصِّ الديني لجميع علماء الدين المختصّين في علم الشريعة. وهذه النظرية هي التي نُسمّيها بـ (الاجتهاد الفقهي)، والتي تعني أنَّ من حقِّ الفقهاء التأمّل في نصوص الشريعة (القرآن والسُّنَّة) لاستنباط الحكم الشرعي في جميع المستجدّات المعاصرة، وهذه هي نظرية شيعة أهل البيت عليهم السلام[1].

والنظرية الثالثة: هي فتح باب الاجتهاد البشري بشكل مطلق وحتَّىٰ لو تجاوز النصّ الشرعي، وذلك اعتماداً علىٰ معطيات الخبرة

⇦ ومثلهما محمّد رشيد رضا حيث يقول: (لا إصلاح إلَّا بدعوة، ولا دعوة إلَّا بحجَّة، ولا حجَّة مع بقاء التقليد. فإغلاق باب التقليد الأعمىٰ وفتح باب النظر والاستدلال هو مبدأ كلّ إصلاح، والتقليد هو الحجاب الأعظم دون العلم والفهم).

وهكذا سارت النهضة ضدّ إغلاق باب الاجتهاد والدعوة إلىٰ فتحه من جديد، بيد الأعلام والمفكّرين من علماء إخواننا السُّنّة). (توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد/ آقا بزرك الطهراني: ٢٦ و٢٧). (المحقِّق).

(١) يقول الشهيد الصدر: (لـمَّا كانت مصادر الشريعة محفوظة إلىٰ يومنا هذا في الكتاب الكريم كاملاً بدون نقصان وفي عدد كبير من أحاديث السُّنَّة الشريفة، فمن الطبيعي أن يستمرَّ الاجتهاد كتخصّص علمي في فهم تلك المصادر واستخراج الأحكام الشرعية منها، ومن الطبيعي أيضاً أن تنمو خبرات المجتهدين وتراكم لفتاتهم وانتباهاتهم علىٰ مرِّ الزمن، وتكون للمجتهد المتأخِّر دائماً رصيداً أكبر وعمقاً أوسع في الاستنباط، وهذا من الأسباب التي تدعو إلىٰ عدم جواز جمود المقلِّدين علىٰ مرِّ الزمن، وتكون للمجتهد المتأخِّر دائماً رصيداً أكبر وعمقاً أوسع في الاستنباط، وهذا من الأسباب التي تدعو إلىٰ عدم جواز جمود المقلِّدين علىٰ رأي فقيه من فقهاء عصر الغيبة طيلة قرن أو قرون، لأنَّ ذلك كالجمود علىٰ رأي طبيب كذلك مع نموّ الطبِّ بعده وتراكم الخبرات خلال تلك المدَّة. ومن هنا كانت رابطة المقلِّد بالمرجع الديني رابطة حيَّة متجدِّد باستمرار، ويزيدها قدسية ما يتمثَّل في المرجع من نيابة عامَّة عن الإمام عليه الصلاة والسلام). (الفتاوىٰ الواضحة/ السيِّد محمّد باقر الصدر: ٩). (المحقِّق).

البشـرية. وهـذه هـي النظريـة التـي يـدعو لهـا الحـداثيون، ونُسـمّيها بنظريـة (الاجتهـاد البشـــري) في مقابـــل (الاجتهـــاد الفقهـــي) الـــذي يتحـــرَّك في داخل النصّ الديني وليس خارجه.

لماذا الاجتهاد في مقابل النصّ؟

ومع الأسف الشديد فإنَّ نظرية الاختصاص بالمذاهب الأربعة وغلق باب الاجتهاد[1] علىٰ ما سواها هذه النظرية هي التي ولَّدت تطرّفاً حداثياً في عصـرنا يدعو لفتح باب الاجتهاد علىٰ مصـراعيه وفي خـارج إطـار الـنصّ الشـــريف، وهذا في الحقيقة لم يكن جديداً في ممارسة الاجتهـاد البشـــري في مقابـل الـنصّ المقدَّس، بل جاء متأثِّراً ومتأسّياً بالموقف الذي تبنَّته مدرسة الخلفاء حيـنما كـان الخليفة يجيز لنفسه أن يجتهد ويعمل برأيه ثمّ يفرضه علىٰ الناس في مقابل السُّـنَّة النبويَّة الشـريفة، وفي مقابل موقف الرسول ﷺ.

ويستشـهد الحـداثيون باجتهـادات كثيرة للخلفـاء عـلىٰ خـلاف السُّـنَّة النبويَّة.

ويمكـن أن نعـرف ذلـك في مواقـف عمـر بـن الخطّـاب حيـنما كـان يقـول: (متعتـان كانتـا عـلىٰ عهـد رسـول الله وأنـا أُحـرِّمهما)[2]، فهـو يُعطـي

(١) يُنسَب الأمر بإغلاق باب الاجتهـاد إلىٰ المنتصـــر العبّـاسي في القـرن الثالـث للهجـرة، وتطـوّر الموقف بالتأكيد علىٰ المذاهب الأربعة في القرن الرابع الهجري، وهناك أقوال تاريخية متضـاربة في هذا الأمر حيث يرجعه أكثر المؤرِّخين إلىٰ القرن الرابع الهجـري وآخـرون إلىٰ القـرن السـادس. راجع لمزيد الاطِّلاع (تاريخ حصـر الاجتهاد) لآقا بزرك الطهراني، وكتاب (الأشـباه والنظـائر) لجلال الدين السيوطي، و(الانصاف) للدهلوي. وكذلك أُنظر لمزيد الاطِّلاع (الإمـام الصـادق والمذاهب الأربعة/ أسد حيدر ٢: ١٤٢ و٥٣٢).

(٢) المحـلّىٰ/ ابـن حـزم ٧: ١٠٧؛ مسـند أحمـد بـن حنبـل ٣: ٣٢٥؛ معرفـة السـنن والآثـار/ البيهقي ٥: ٣٤٥؛ وغيرهم.

لنفسه حقّ التشريع في مقابل سُنَّة النبيِّ وبشكل صريح وعلني. وهكذا حينما مارس عملية التفاضل في العطاء بين العرب وغير العرب[١] في الوقت الذي لم يكن ذلك معهوداً في زمن رسول الله ﷺ، بل كان المسلمون سواء في العطاء من بيت المال، لكن الخليفة الثاني أجاز لنفسه أن يخالف رسول الله ﷺ. ومثل ذلك في موارد كثيرة قامت مدرسة الخلفاء بتبنّي نظرية الاجتهاد في مقابل السُّنَّة النبويَّة[٢].

هذا الأمر كانت له امتدادات واسعة في القرن الثالث والرابع للهجرة، فقد ظهرت وانتشرت مدرسة (الرأي) والتي اشتهر بها الإمام أبو حنيفة في العراق، والتي يُقصَد بها اعتماد الاستحسانات العقلية وما تقتضيه المصالح الزمنية حتَّىٰ، وهذا هو ما سُمّي بمدرسة (الرأي)[٣] في مقابل تطرّف آخر يُسمّىٰ بمدرسة (الحديث)[٤] التي انتشرت وسادت

---

(١) الدرّ المنثور ٣: ٣٥٠.

(٢) أُنظر: النصّ والاجتهاد/ السيِّد عبد الحسين شرف الدين، الذي أحصىٰ مائة مورد للاجتهاد في مقابل النصِّ.

(٣) (مدرسة الرأي: وكان مركز هذه المدرسة الكوفة، وأعظم روّادها أبو حنيفة. ولبعد الكوفة عن المدينة - مركز الحديث والسُّنَّة - أثر كبير في ظهور هذه المدرسة، حيث كان الطابع العامّ لهذه المدرسة التشدّد في قبول السُّنَّة ورفض كثير منها، والاعتماد علىٰ القياس والاستحسان وأمثالها. وصار لهذه المدرسة صدىٰ كبير يومذاك في العالم الإسلامي، فكان علماء المسلمين بين مؤيِّدين لها ومخالفين. وممَّن وقف أمام هذه المدرسة وزيَّفها أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، إذ أنَّهم كانوا يرفضون العمل بالرأي والقياس). (توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد/ آقا بزرك الطهراني: ٢٣). (المحقِّق).

(٤) مدرسة الحديث: ومن مظاهر هذه المدرسة الاعتماد علىٰ القرآن والسُّنَّة فقط ورفض القياس والاستحسان، ولذلك وقف بعض روّاد هذه المدرسة موقفاً عنيفاً أمام مدرسة الرأي، فرفضوها رفضاً شديداً. ⇦

في المدينة المنوَّرة، والتي تدعو للالتزام بالنصِّ النبوي بحذافيره، وترفض الاجتهاد الفقهي حتَّىٰ في داخل إطار النصّ، وتدعو للجمود علىٰ المدلول الحرفي الضيِّق للنصِّ دون الغور في أبعاده ومداليله اللغوية الواسعة.

هنا كانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام تُمثِّل الحالة الوسطية، فهي ترفض الرأي خارج النصّ الشرعي كما ترفض الجمود علىٰ حرفية النصّ الشرعي وتدعو لممارسة (الاجتهاد الفقهي) والتحليل اللغوي في داخل إطار النصِّ بحسب معطياته وسياقاته اللغوية والتاريخية.

الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام وقفوا بشدَّة أمام مدرسة الرأي، ويمكن أن نُسجِّل هنا مواقف وكلمات للإمام الصادق عليه السلام حينما كان يقول لأبي حنيفة: «يا أبا حنيفة بلغني إنَّك تقيس؟».

قال: نعم، أنا أقيس.

قال: «لا تقس فإنَّ أوَّل من قاس إبليس حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢]»[1].

⇐ ومن الصعب تحديد موقف هذه المدرسة أمام مدرسة الرأي، ولكن يبدو أنَّ الإمام مالك بن أنس أحد أئمَّة المذاهب الأربعة كان من المسارعين والدعاة إلىٰ هذه المدرسة (أي مدرسة الحديث)، ثمّ تمَّ تشييدها بيد داود بن علي الظاهري - إمام المذهب الظاهري -، فكان مالك يهتمُّ بالحديث ولم يعمل بالقياس إلَّا قليلاً، حتَّىٰ أنَّه بكىٰ حين موته وودَّ أنَّه ضُرِبَ في مقابل كلّ مسألة أفتىٰ فيها برأيه سوطاً! كما ذكر ذلك ابن خلّكان في تاريخه. وكان داود بن علي الظاهري يرىٰ العمل بظاهر الكتاب والسُّنَّة ويرفض القياس رفضاً باتّاً، لأنَّ في عموم الكتاب والسُّنَّة - بحسب رأيه - ما يفي بجواب كلّ مشكلة. (توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد/ آقا بزرك الطهراني: ٢٤). (المحقِّق).

(١) وسائل الشيعة ١٨: باب ٦/ الحديث ٢٤، وغيره.

وقد شدَّد الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام النكير علىٰ العمل بالآراء الشخصية لمعرفة أحكام الشريعة الإلهية.

قال الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «من أفتىٰ الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضادَّ الله حيث أحلَّ وحرَّم فيما لا يعلم»(١).

وكان الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام يُثقِّفون شيعتهم علىٰ رفض العمل بالرأي في دين الله.

ورد عن أبي بصير أنَّه قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: ترد علينا أشياء لا نجدها في الكتاب والسُّنَّة، فنقول فيها برأينا.

فقال: «أمَا إنَّك أن أصبت لم تؤجَر، وإن أخطأت كذبت علىٰ الله»(٢).

محاولات أخرى:

لقد كانت هناك محاولات أُخرىٰ لمعالجة معضلة المستجدّات الزمنية من خلال تمديد فترة السُّنَّة النبويَّة وتوسعة دلائل استكشافها.

وذلك بالاعتماد علىٰ سُنَّة الصحابة(٣).

---

(١) المصدر السابق: الحديث ١٢.

(٢) المصدر السابق: الحديث ٣٥.

(٣) يقول الشاطبي: (سُنَّة الصحابة رضي الله عنهم سُنَّة يُعمَل عليها ويُرجَع إليها، والدليل علىٰ ذلك أُمور، والأُمور التي ذكرها لا تنهض بإثبات ما يريده، نعرضها ملخَّصة:

أحدها: (ثناء الله عليهم من غير مثنوية، ومدحهم بالعدالة وما يرجع إليها، كقوله تعالىٰ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]، ففي الأُولىٰ إثبات الأفضلية علىٰ سائر الأُمم، وذلك يقضي باستقامتهم علىٰ كلِّ حال، وجريان أحوالهم علىٰ الموافقة دون المخالفة، وفي الثانية إثبات العدالة مطلقاً، وذلك يدلُّ علىٰ ما دلَّت عليه الأُولىٰ. ⇦

ثمّ الاعتماد علىٰ سُنَّة أهل المدينة[1].

ثــمّ الاعــتماد عــلىٰ فتــاوىٰ الســلف الصــالح باعتبــارهم الأقــرب والأقدر علىٰ معرفة السُّنَّة النبويَّة، فيكـون مـا يصـدر عـنهم كأنَّـه صـادر عـن رسول الله ﷺ.

⇨ والجواب علىٰ الآية الأُولىٰ يقع من وجوه:

أ - أنَّ إثبات الأفضلية لهم علىٰ سائر الأُمم، كما هو مفاد أفعل التفضيل في كلمة ﴿خَـيْرَ أُمَّـةٍ﴾ لا تستلزم الاستقامة لكلِّ فرد منهم علىٰ كلِّ حال، بل تكفي الاستقامة النسـبية لأفرادهـا، فيكـون معناها أنَّ هذه الأُمَّة مثلاً في مفارقات أفرادها أقلّ من الأُمم التي سبقتها، فهي خيرهم من هـذه الناحية، هذا إذا لم نقل: إنَّ الآية إنَّما فضَّلتهم من جهة تشـريع الأمر بالمعروف لهـم والنهـي عـن المنكر، كما هو ظاهر تعقيبها بقوله تعالىٰ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فلا تكون واردة في مقام جعل الحجّية لأقوالهم أصلاً.

ب - أنَّ التفضـيل الـوارد فيهـا إنَّـما هـو بلحـاظ المجمـوع - ككـلّ - لا بلحـاظ تفضـيل كـلّ فرد منها علىٰ كلِّ فـرد مـن غيرهـا لنلتـزم لهـم بالاسـتقامة عـلىٰ كـلِّ حـالٍ، ولـذا لا نـرىٰ أيَّـة منافاة بـين هـذه الآيـة وبـين مـا يـدلُّ - لـو وُجِـدَ - عـلىٰ تفضـيل حـواري عيسـىٰ مـثلاً عـلىٰ بعض غير المتورّعين من الصحابة.

ج - أنَّهـا واردة في مقـام التفضـيل لا مقـام جعـل الحجّيـة لكـلِّ مـا يصـدر عـنهم مـن أقـوال وأفعال وتقريـرات، إذ هـي أجنبيـة عـن هـذه الناحيـة، ومـع عـدم إحـراز كونهـا واردة لبيـان هذه الجهة لا يمكن التمسّك بها بحال.

د - أنَّ هذا الدليل لو تمَّ فهو أوسع من المدَّعىٰ بكثـير، لكـون الأُمَّـة أوسـع مـن الصـحابة، ولا يمكن الالتزام بهـذا التعمـيم. (الأُصـول العامَّـة للفقـه المقـارن/ محمّـد تقـي الحكـيم: ١٣٥). (المحقِّق).

(١) يقول الأُسـتاذ محمّـد سـحكال الجزائـري في كتابـه (المـذهب المـالكي): (ويتحصَّـل ممَّـا سـبق أنَّ المقصـود بأهـل المدينـة الـذين يُحـتَجُّ بعملهـم أو إجمـاعهم مجموعـة العلـماء الـذين دارت علـيهم الفتـوىٰ وعرفـوا بالفقـه والروايـة مـن كـلِّ طبقـة، ففـي زمـن الصـحابة يُمثِّلـون بمجتهـدي صـحابة المدينـة وفقهائهـا ومحـدِّثيها، وفي زمـن التـابعين هـم تـابعو المدينـة كـذلك، وفي زمـن الطبقـة الثالثـة هـم أتبـاعهم...). (اُنظـر: المـذاهب الإسـلاميَّة الخمسـة/ المذهب المالكي: ٤٠٩).

وبهذا يتمُّ تمديد فترة السُّنَّة النبويَّة لتشمل فترة السلف الصالح في القرن الأوَّل والثاني للهجرة وربَّما الأكثر من ذلك، حيث تكون سُنَّة السلف الصالح كاشفة عن سُنَّة النبيِّ ﷺ حتَّىٰ وإن لم يتحدَّثوا عنه ولم ينسبوا له ذلك القول أو الفعل.

لكن كلُّ ذلك لم يكن قادراً علىٰ ملء الفراغات الهائلة في الإجابة علىٰ مئات المسائل المستحدثة التي وردت علىٰ العالم الإسلامي، فقد كانت سُنَّة الصحابة محدودة بالصحابة أنفسهم وعددهم ومدَّة صحبتهم القليلة أو مدَّة حياتهم بعد رسول الله ﷺ، ومثل ذلك عن أهل المدينة والسلف الصالح، فقد انفتح العالم الإسلامي علىٰ الملايين من الوقائع والأحداث التي ليس فيها نصّ شرعي ولا سُنَّة صحابة، ولا أهل المدينة، ولا فتاوىٰ السلف الصالح، فما هو الموقف؟ وكيف نعالج تلك المسائل؟

سُنَّة أهل البيت عليهم السلام:

أمَّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام فقد وسَّعت دائرة السُّنَّة النبويَّة لتشمل سُنَّة أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم التجسيد الكامل والتطبيق الدقيق الشامل للقرآن الكريم والسُّنّة النبويَّة، وورثة علم النبيِّ ﷺ، وذوي الاطِّلاع الكامل علىٰ سُنَّته، كما سنشرح ذلك في الفصل الثالث.

ولكن قد يقول قائل: إنَّ المعضلة ستعود مرَّة أُخرىٰ، وهي أنَّ سُنَّة أهل البيت عليهم السلام امتدَّت إلىٰ منتصف القرن الثالث الهجري وبالتحديد عام (٢٦٠) للهجرة، وهي السُّنَّة التي توفّىٰ فيها الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وهو آخر إمام من أئمَّة الشيعة قبل غيبة الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، وهي مدَّة محدودة، فكيف تستوعب الحالات الجديدة التي ستمتدُّ لقرون عديدة وبلدان وحضارات وتقاليد جديدة؟

كيف أجاب الشيعة علىٰ هذا السؤال؟ وكيف تخلَّصت مدرسة أهل البيت عليهم السلام من هذه المعضلة؟

هنا كانت (نظرية الاجتهاد الفقهي) في داخل إطار النصّ الشرعي التي اعتمدها شيعة أهل البيت عليهم السلام كما أسلفنا هي طريق الخلاص من هذه المعضلة، فإنَّ عشرات آلاف الأحاديث الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ولفترة زمنية طويلة امتدَّت لأكثر من قرنين ونصف وفي ظروف اجتماعية وسياسية وثقافية متنوّعة وبعد إخضاعها للتدقيق السندي، نعم هذه الموسوعة الكبيرة من أحاديثهم عليهم السلام وسيرتهم ومن خلال اعتماد نظرية (الاجتهاد الفقهي) وفتح باب الاجتهاد[1] للفقهاء كافية لفتح آفاق واسعة أمام الفقهاء المجتهدين لاستكشاف الموقف الشرعي من المسائل المستحدثة والمستجدَّة.

عناصر المعالجة الشيعية للمشكلة:

ونحن نستطيع أن نُلخِّص عناصر المعالجة الشيعية لمشكلة مستجدّات العصر بما يلي:

---

(١) (إنَّ طبيعة الدين الإسلامي - وأنَّه خاتم الأديان إلىٰ يوم القيامة - تقتضي فتح باب الاجتهاد، لما سيواجه الدين في مسيرته من أحداث وتحدّيات مستجدَّة، وموضوعات جديدة لم يكن لها مثيل أو نظير في عصر النصِّ، فلا محيص عن معالجتها، إمَّا من خلال بذل الجهود الكافية في فهم الكتاب والسُّنَّة وغيرهما من مصادر التشريع واستنباط حكمها، وإمَّا اللجوء إلىٰ القوانين الوضعيَّة، أو عدم الإفصاح عن حكمها وإهمالها. والأوَّل هو المطلوب، والثاني سيُشكِّل نقصاً في التشريع الإسلامي، وهو سبحانه قد أكمل دينه بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، والثالث لا ينسجم مع طبيعة الحياة ونواميسها). (لمحات الأُصول/ تقرير بحث البروجردي للسيِّد الخميني: ٤). (المحقِّق).

١ - السُّنَّة النبويَّـة - بعـد القـرآن الكـريم - كافيـة للإجابـة عـلىٰ جميـع المواقف التشريعية.

جـاء في الحـديث الشـريف عـن سـماعة بـن مهـران، عـن الإمـام موسىٰ بن جعفـر الكـاظم عليه السلام، قـال: قلـت لـه: أصـلحك الله، أتـىٰ رسـول الله صلى الله عليه وآله الناس بما يكتفون به في عهده؟

قال: «نعم، وما يحتاجون إليه إلىٰ يوم القيامة».

قلت: فضاع منه شيء؟

قال: «لا، هو عند أهله»(١).

٢ - أهل البيت عليهم السلام هم الذين يمتلكون العلم الكامل والصحيح بالسُّنَّة النبويَّة، وكلُّ ما جاء عنهم عليهم السلام فهو صادر عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

قـال الإمـام الصـادق عليه السلام: «حـديثي حـديث أبي، وحـديث أبي حـديث جـدّي، وحـديث جـدّي حـديث الحسـين عليه السلام، وحـديث الحسـين عليه السلام حـديث الحسـن عليه السلام، وحـديث الحسـن حـديث أمـير المـؤمنين عليه السلام، وحـديث أمـير المـؤمنين عليه السلام حـديث رسـول الله صلى الله عليه وآله، وحـديث رسـول الله قول الله عزَّ وجلَّ»(٢).

وفي هذا يقول شاعر أهل البيت عليهم السلام(٣):

إذا شئت أن تـرضىٰ لنفسـك مـذهبا وتعرف صدق الناس في نقل أخبـارِ

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: أبواب صفات القاضي/ الباب ٦/ الحديث ٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٨: أبواب صفات القاضي/ باب ٨/ الحديث ٢٦.

(٣) تُنسَب هذه الأبيات في كثير من المصادر التي بحثنا فيها إلىٰ (بعضهم) ولم يُسمّوه، وهي مذكورة في كثير من المصادر، منها: منهاج الكرامة للعلَّامة الحلّي/ تحقيق عبد الرحيم مبارك: ٦٧/ ط١/ ١٣٧٩هـ). (المحقِّق).

فدع عنك قول الشافعي ومالك وأحمد والمروي عن كعب أحبارِ
ووالِ أُناساً قولهم وحديثهم روىٰ جدّنا عن جبرئيل عن الباري

٣ - يحقُّ للفقهاء الاجتهاد الفقهي في استنباط الحكم الشرعي في المسائل المستحدثة من خلال اكتشاف القواعد والمداليل الواسعة لنصوص السُّنَّة النبويَّة، جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنَّما علينا أن نُلقي عليكم الأُصول وعليكم أن تُفرِّعوا)[1].

٤ - لا يجوز الاعتماد علىٰ الرأي والاجتهاد الشخصي بعيداً عن القرآن والسُّنَّة، بينما يجوز الاعتماد علىٰ العقل في القطعيات لا في الظنّيات.

قال الإمام عليّ عليه السلام: «واتَّبعوا آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسُنَّته، فخذوا بها، ولا تتَّبعوا أهوائكم ورأيكم فتضلّوا، فإنَّ أضلَّ الناس عند الله من اتَّبع هواه ورأيه بغير هدىٰ من الله»[2].

٥ - وقد أكَّد الفكر الشيعي أنَّ السُّنَّة الشريفة لا يمكن إثباتها بالظنون والآراء، وإنَّما تثبت فقط عن طريق الأخبار الموثَّقة، كما تثبت عن طريق إجماع الفقهاء علىٰ فتوىٰ معيَّنة بحيث يكشف عن تلقّي ذلك الحكم من المعصوم وإن لم نعثر به علىٰ خبر، وكذلك اعتماد سيرة المتشرِّعة[3] والمؤمنين من أصحاب الأئمَّة عليهم السلام، فهي كاشفة عن رضىٰ

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: أبواب صفات القاضي/ باب ٦/ الحديث ٥١.

(٢) وسائل الشيعة ١٨: الحديث ٢.

(٣) يقول الشيخ محمّد رضا المظفَّر تحت عنوان حجّية سيرة المتشرِّعة: (إنَّ السيرة عند المتشرِّعة من المسلمين علىٰ فعل شيء أو تركه هي في الحقيقة من نوع الإجماع...
والسيرة علىٰ نحوين: تارةً يُعلَم فيها أنَّها كانت جارية في عصور المعصومين، وأُخرىٰ لا يُعلَم ذلك. فإن كانت علىٰ النحو الأوَّل فلا شكَّ في أنَّها حجَّة قطعية علىٰ موافقة الشارع...). (أُصول الفقه/ محمّد رضا المظفَّر/ ج ٣/ حجّية سيرة المتشرِّعة.

المعصومين بتلك السيرة حتَّىٰ وإن لم نعثر علىٰ خبر ينقل الحكم عن المعصوم عليه السلام.

لقد استطاع شيعة أهل البيت عليهم السلام من خلال هذه المعالجة وعبر فتح باب الاجتهاد الفقهي كما شرحنا أن ينفتحوا علىٰ كلِّ مستجدّات ومشاكل العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويعالجوها ضمن أُطُر الشريعة الإسلاميَّة وبما يتناسب مع استحقاقات التمدّن البشري.

معالجة الفكر السُّنّي للمشكلة:

أمَّا مدرسة الخلافة وهي المدرسة السائدة اليوم لدىٰ أهل السُّنَّة فإنَّها اعتمدت في معالجة المشكلة علىٰ الأخذ بـ (الرأي)[1] الذي يعني قياس المسائل بعضها علىٰ بعض والعمل وفقاً لما تقتضيه المصالح العامَّة والاستحسان الفقهي.

لكن مدرسة أهل البيت عليهم السلام قد رفضت هذا المنهج بشدَّة واعتبرته بدعة في الدين وعملاً بالظنون والأذواق كما أسلفنا.

المعالجة الحداثية للمشكلة:

أمَّا الفكر الحداثي اليوم فإنَّه بحجَّة مواكبة العصر ومستجدّاته يحاول أن يتجاوز بشكل صريح وعلني السُّنَّة النبويَّة، ويُسمّي ذلك

---

(١) (في القرن الثاني تطوَّرت أسباب الاعتذار والتبرير من (التأويل) إلىٰ الرأي، وكانت مدارس الرأي كثيرة ادَّعىٰ بعضهم وجودها في زمن الصحابة في الصدر الأوَّل من الإسلام، ولكن مدرسة الإمام أبي حنيفة المتوفّىٰ (١٥٠هـ) والمتواجدة في العراق فاقت بقيَّة مدارس الرأي، فقد بالغ بالأخذ به كمصدر أساسي للأحكام الشرعية ودليل قاطع، فقد روىٰ الخطيب البغدادي في ترجمة أبي حنيفة من تاريخ بغداد عن يوسف بن أسباط، قال: قال أبو حنيفة: (لو أدركني رسول الله وأدركته لأخذ بكثير من قولي، وهل الدين إلَّا الرأي الحسن؟). (النصُّ والاجتهاد/ عبد الحسين شرف الدين: ١٤/ مقدَّمة المحقِّق). (المحقِّق).

إلغاء (سلطة النصِّ) داعياً إلىٰ الخروج علىٰ النصِّ الشرعي باعتبار (أنَّ سلطة النصِّ هي سلطة مضافة وليست سلطة ذاتية)[1]، وهو يقصد بهذا الكلام أنَّ حجّية السُّنَّة النبويَّة ودلالة نصوصها من خلال ظهور النصِّ وسياقاته هي حجّية عارضة علىٰ السُّنَّة النبويَّة وطارئة عليها وليست نابعة من موقع النبوَّة واستحقاقاتها، وبالتالي فهي قابلة للمناقشة والإنكار، كما سيأتي شرح ذلك والوقوف عنده في البحوث اللاحقة، وهذا هو ما عبَّرنا عنه بنظرية (الاجتهاد البشري) في فهم الشريعة، إذ يقول الحداثيون: طالما كانت سُنَّة النبيِّ ﷺ اجتهاداً بشرياً في فهم الوحي، فمن حقّنا جميعاً أن نجتهد كذلك في فهم المقاصد العليا للشريعة واتِّخاذ ما يتناسب معها من أحكام ووفقاً لظروفنا وواقعياتنا التي قد تختلف عن الظروف والواقعيات التي عاشها رسول الله ﷺ.

خلاصة البحث:

يتلخَّص هذا البحث في أنَّ العصر الحديث شهد مجموعة مستجدّات هي عبارة عن تسخير الطبيعة وثقافات جديدة وانتهاء اليقين والجزميَّة، ومع هذه المستجدّات كيف للسُّنَّة النبويَّة أن تتواءم وتعالج مشكلات هذا العصر؟

وقد أجاب البحث علىٰ هذه المشكلة بالاعتماد علىٰ مبدأ (الاجتهاد الفقهي)، فيما نقد مبدأ (غلق باب الاجتهاد) الذي آمنت به المدرسة التقليدية لدىٰ أهل السُّنَّة، ونقد مبدأ اعتماد (الاجتهاد البشري) الذي يتجاوز النصوص الشرعية والذي آمنت به الحداثة.

* * *

---

(١) الإمام الشافعي/ نصر حامد: ٣٠.

البحث الخامس
عصمة النبيّ ﷺ

معنى العصمة[1]:

العصمة تعني في اصطلاح علماء الإسلام كما هو في اللغة (الامتناع عن الشيء)، حينما يقول تعالىٰ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ (آل عمران: ١٠٣)، أو حينما يقول: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، أو حينما يقول تعالىٰ في قصَّة يوسف: ﴿فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ (يوسف: ٣٢)، فالعصمة في كلِّ هذه الأمثلة تعني الامتناع والممانعة، وهذا هو المعنىٰ المقصود لدىٰ علماء الإسلام حينما يتحدَّثون عن عصمة الأنبياء، إذ يكون المقصود هو امتناع الخطأ والمعصية عليهم، فهم معصومون من ذلك بمعنىٰ ممتنعون عن ذلك، أو بمعنىٰ أنَّ الخطأ والمعصية ممنوع عليهم[2].

---

(١) يُعرِّف الشريف المرتضىٰ العصمة: (أنَّ العصمة هي اللطف الذي يفعله تعالىٰ، فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح، فيقال علىٰ هذا: إنَّ الله عصمه، بأن فعل له ما اختار عنده العدول عن القبيح، ويقال: إنَّ العبد معتصم، لأنَّه اختار عند هذا الداعي الذي فعل الامتناع عن القبيح، وأصل العصمة في وضع اللغة المنع، يقال: عصمت فلانًا من السوء إذا منعت من فعله به). (رسائل الشريف المرتضىٰ ٢: ٣٢٥). (المحقِّق).

(٢) يذكر محمّد جواد مغنية في تفسيره الكاشف أنَّ: (معنىٰ عصمة النبيِّ تنزيهه بحكم العقل عن الخطأ والخطيئة في كلِّ ما يتَّصل بالدين وأحكامه، بحيث يبلغ النبيِّ من الطهر والقداسة والعلم والمعرفة بالله وما يريده من عباده مرتبة تستحيل معها المخالفة عمداً وسهواً، فمن أثبت العصمة للأنبياء بهذا المعنىٰ وبشتّىٰ أقسامها الآتية أوَّل الآيات التي تتنافىٰ بظاهرها مع هذا المبدأ تمشّياً ⇦

لماذا البحث عن العصمة؟

الحقيقة أنَّ بحثنا عن حجّية السُّنَّة النبويَّة واعتبارها مصدراً من مصادر التشريع الاسلامي يجرّنا بنحو الاضطرار للبحث عن عصمة النبيِّ ﷺ، ذلك أنَّه من دون افتراض عصمة النبيِّ عن الخطأ والزلل في تلقّي الوحي الإلهي ثمّ في تبليغ رسالات الله لا يمكن افتراض حجّية السُّنَّة النبويَّة، لأنَّ الحجّية تتوقَّف علىٰ الثقة المطلقة بما يصدر عن النبيِّ ﷺ، ومن هنا كان علينا أن نبحث في عصمة النبيِّ ﷺ علىٰ مستوىٰ الرؤية الإسلاميَّة، وعلىٰ مستوىٰ الرؤية الحداثية.

١ - الرؤية الإسلاميَّة لعصمة النبيِّ ﷺ

محاور العصمة:

يتَّفق علماء الإسلام علىٰ عصمة النبيِّ ﷺ، وهذه العصمة التي يتَّفق عليها علماء الإسلام هي العصمة في ثلاثة محاور:

المحور الأوَّل: تلقّي الرسالة الإلهية.

المحور الثاني: تبليغ الرسالة الإلهية.

المحور الثالث: الالتزام بالرسالة الإلهية.

فالنبيُّ ﷺ لدىٰ تلقّيه للوحي الإلهي لا يتعرَّض لأيِّ خطأ أو اشتباه في هذا التلقّي، بل هو يتلقّىٰ المعلومة ويستقبلها بشكل دقيق كامل كما تأتيه عبر الوحي الإلهي.

وهذا هو المحور الأوَّل، وهو المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ

⇦ مع القاعدة الكلّية، وهي وجوب تأويل النقل بما يتَّفق مع صريح العقل، ومن نفىٰ العصمة عن الأنبياء أبقىٰ الظاهر علىٰ ظاهره). (التفسير الكاشف ١: ٨٨). (المحقِّق).

لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧﴾ (القيامة: ١٦ و١٧)[1].

كما أنَّ النبيَّ يمتنع عليه الخطأ والاشتباه والنسيان لدىٰ عملية تبليغ الرسالة الإلهية إلىٰ الناس، فكلَّما يُقدِّمه إلىٰ الناس هو متطابق مائة بالمائة مع ما تلقّاه من الوحي[2]، وهو المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۝٢٧ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ۝٢٨﴾ (الجنّ: ٢٦ - ٢٨).

وفي المحور الثالث تقول نظرية العصمة: إنَّ النبيَّ ﷺ لا يمكن أن تصدر منه المعصية بحيث يخالف في سلوكه وعمله التعليمات الإلهية، بل إنَّ سلوكه متطابق تماماً مع الرسالة الإلهية، وهذا المعنىٰ هو المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى

(١) يقول العلَّامة الحلّي المتوفّى (٧٢٦هـ) لدىٰ حديثه عن عصمة النبيِّ في كتابه (نهج المسترشدين: ٢٥٩): (ومن هذا عُلِمَ أنَّه لا يجوز أن تقع منه الصغائر ولا الكبائر، عمداً ولا سهواً، ولا خطأً في التأويل...؛ ولأنَّه إذا فعل معصية جاز أن لا يؤدّي بعض ما أُمِرَ بأدائه، فيرتفع الوثوق ببقاء الشرع). فأنت تلاحظ أنَّ العصمة في منظور هؤلاء العلماء هي العصمة في محور أداء الرسالة، وقبله بالملازمة العصمة في تلقّي الرسالة، ثمّ الالتزام بقيمها، والامتناع من جميع المعاصي.

(٢) (إنَّ هذا الروح النبوي لا يحلُّ محلًّا إلَّا بمصاحبة العصمة، وهي المصونية عن الخطأ في أمر الدين والشريعة المشرِّعة، وهذه العصمة غير العصمة عن المعصية كما أشرنا إليه سابقاً، فإنَّ هذه عصمة في تلقّي الوحي من الله سبحانه، وتلك عصمة في مقام العمل والعبودية، وهناك مرحلة ثالثة من العصمة وهي العصمة في تبليغ الوحي، فإنَّ كلتيهما واقعتان في طريق سعادة الإنسان التكوينية وقوعاً تكوينياً، ولا خطأ ولا غلط في التكوين). (الميزان في تفسير القرآن/ العلَّامة الطباطبائي ٢: ١٥٦). (المحقِّق).

أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ (الحجّ: ٥٢).

هذه هي المحاور الثلاثة للعصمة التي سوف نتناولها بالبحث، والتي هي موضع الافتراق بين الرؤية الإسلاميَّة والرؤية الحداثية - كما سنرىٰ -، أمَّا ما عدا ذلك من محاور أُخرىٰ للعصمة فإنَّ الحديث عنها لا يرتبط ببحثنا عن حجّية السُّنَّة النبويَّة، فهناك بحث عن عصمة النبيِّ ﷺ منذ الطفولة، وهناك بحث عن عصمة النبيِّ ﷺ مطلقاً من أيِّ خطأ أو نسيان حتَّىٰ في الممارسات الشخصية الدنيوية، هذه دوائر ومحاور أُخرىٰ للعصمة، لكن البحث عن حجّية السُّنَّة النبويَّة لا يتأثَّر بالبحث عن هذه المحاور الأخيرة، وإنَّما المحاور الثلاثة التي أشرنا إليها هي التي ترتبط مفصليّاً بحجّية السُّنَّة النبويَّة.

ولننظر هنا ما يقوله أحد أبرز علماء الشيعة المعاصرين، وهو المفسِّر الكبير للقرآن الكريم العلَّامة الطباطبائي، يقول:

(إنَّ العصمة علىٰ ثلاثة أقسام[1]:

---

(١) يقول مغنية: (ولعلماء المذاهب في العصمة أقوال تختلف باختلاف هذه الأقسام:

١ - العصمة في العقيدة وأُصول الدين، أي تنزيه النبيِّ عن الكفر والإلحاد وما إليه...، وهذه ثابتة لكلِّ نبيٍّ بالبديهة والاتِّفاق، إذ لا يُعقَل أن يكفر النبيُّ بالذي اختاره للنبوَّة.

٢ - العصمة في التبليغ عن الله تعالىٰ، فإذا قال: إنَّ الله يأمر بهذا وينهىٰ عن ذاك، فالأمر علىٰ ما قال. واتَّفق الشيعة الإماميَّة علىٰ ثبوت هذه العصمة لكلِّ نبيٍّ، لأنَّ الغرض من التبليغ حمل المكلَّفين علىٰ الحقِّ، فإن أخطأ المبلِّغ انتقض الغرض من تبليغه، ويؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ۝﴾ [النجم: ٣ و٤]، وقوله: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وبكلمة إنَّ القول بعصمة الأنبياء لا ينفكُّ أبداً عن القول بأنَّ قولهم وفعلهم وتقريرهم حجَّة ودليل. ⇦

العصمة عن الخطأ في تلقّي الوحي، والعصمة عن الخطأ في تبليغ الرسالة، والعصمة عن المعصية وهي ما فيه هتك حرمة العبودية).

ثمّ قال: (وأمَّا الخطأ في غير باب المعصية وتلقّي الوحي والتبليغ، وبعبارة أُخرىٰ في غير باب أخذ الوحي وتبليغه والعمل به كالخطأ في

⇨ وبعد أن قال الرازي في تفسيره: (اتَّفقوا - أي المسلمون - علىٰ أنَّ الخطأ في التبليغ لا يجوز عمداً ولا سهواً)، قال: (ومن الناس من جوَّز ذلك سهواً)، ولا أدري من عنىٰ بهؤلاء الناس؟

٣ - العصمة في الفتيا، ومعنىٰ الفتيا أن يُفتي النبيُّ بشيء عامّ، كتحريم الربا وتحليل البيع، ذكر هذا القسم الرازي في تفسيره، وقال: (أجمعوا علىٰ أنَّ خطأ الأنبياء لا يجوز في ذلك علىٰ سبيل العمد، أمَّا علىٰ سبيل السهو فجوَّزه بعضهم، ومنعه آخرون)، ويلاحظ أنَّ هذا القسم يرجع إلىٰ القسم الثاني أي التبليغ...، وينبغي أن يُجعَل القسم الثالث العصمة في الحكم لا في الفتوىٰ.

واتَّفق الإماميَّة علىٰ أنَّ النبيَّ معصوم عن الخطأ في الحكم، كما هو معصوم في التبليغ، مع أنَّهم نقلوا عن الرسول الأعظم ﷺ أنَّه قال: «إنَّما أقضي بينكم بالبيِّنات والأيمان»، «أنا بشر وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم يكون ألحن بحجّته من بعض - أي أفطن من خصمه -، فأحكم له علىٰ نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حقِّ أخيه فلا يأخذ منه شيئاً، فإنَّما أقطع له قطعة من نار»، اللّهمّ إلَّا أن يكون الخطأ في حكمه - علىٰ تقديره - إنَّما هو في البيِّنة، أو في يمين الحالف، أو ما أشبه، أي في مستند الحكم لا في الحاكم.

٤ - العصمة في أفعال الأنبياء وسيرتهم الخاصَّة، وقال الإيجي في الجزء الثامن من المواقف: (إنَّ الحشوية أجازوا علىٰ الأنبياء فعل الذنوب الكبائر، كالكذب عمداً وسهواً، ومنعه جمهور الأشاعرة - أي السُّنَّة - عمداً لا سهواً، أمَّا الصغائر فتجوز عليهم عمداً فضلاً عن السهو).

وقال الإماميَّة: إنَّ الأنبياء معصومون في كلِّ ما يقولون ويفعلون، تماماً كما هم معصومون في العقيدة والتبليغ...، ويستحيل عليهم فعل الصغائر فضلاً عن الكبائر، ولن تصدر منهم إطلاقاً لا علىٰ سبيل القصد ولا علىٰ سبيل السهو، لا قبل النبوَّة ولا بعدها. (التفسير الكاشف/ محمّد جواد مغنية ١: ٨٨). (المحقِّق).

الأُمـور الخارجيـة نظـير الأغـلاط الواقعـة للإنسـان في الحـواسِّ وإدراكاتها أو الاعتبـارات مـن العلـوم، ونظـير الخطـأ في تشـخيص الأُمـور التكوينيـة مـن حيـث الصـلاح والفسـاد والنفـع والضـرر ونحوهـا، فـالكلام بها خارج عن هذا المبحث)[1].

هـذه هـي محـاور العصـمة الثلاثـة، وهـي ثابتـة للنبـيِّ ﷺ بإجماع علماء الإسلام، لكن السـؤال المهـمّ هـو عـن مصـدر هـذه العصـمة وأسبابها وعواملها، فهل هي جهد بشري أم هي ذات عامل غيبي؟

العصمة هل هي جهد ذاتي أم تسديد إلهي؟

الحقيقـة أنَّ العصـمة كـما يعتقـد علـماء الإسـلام هـي ذات عامـل ثلاثي، فهي جهد ذاتي من ناحية، وهـي تسـديد إلهـي مـن ناحيـة ثانيـة، وهـي اصطفاء إلهي في أصل الخلقة من ناحية ثالثة.

فـالنبيُّ ﷺ بـذل أكـبر جهـد بشـري في طريـق العـروج إلىٰ الله تعـالىٰ وتلقّي الكمال منـه حتَّـىٰ قـال القـرآن الكـريم: ﴿طـه ۞ مـا أَنْزَلْنـا عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ لِتَشْـقى ۞﴾ (طـه: ١ و٢)، حيـنما كـان يقـوم ﷺ قـائماً في الصـلاة حتَّىٰ تورَّمت قـدماه فنزلـت الآيـة المشـار إليهـا أعـلاه، وهكـذا حيـنما يقـول عنـه تعـالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّـكَ يَعْلَـمُ أَنَّـكَ تَقُـومُ أَدْنى مِـنْ ثُلُـثَيِ اللَّيْـلِ وَنِصْـفَهُ

(١) (غاية ما تدلُّ عليه أدلَّة العصمة أنَّ المعصوم لا يرتكب الذنب، فمجرَّد صدور الفعل منه يـدلُّ علىٰ أنَّ ما أتىٰ به ليس بمحرَّم عليه وإنَّما هو مباح بالمعنىٰ الأعمّ للإباحة، وأوامر الاقتداء به تـدلُّ علىٰ مشاركتنا له في جميع الأحكام إلَّا ما كان من مختصّاته، فهو إذن مباح لنـا أيضـاً. ودعـوىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يصدر منه إلَّا ما كان راجحاً، فلا يعمل المكروه ولا المباحات مـع تـوفّر العنـاوين الثانوية التي يمكن أن تُحوِّل ما كان مباحاً بالأصل إلىٰ مستحبٍّ بالعنوان الثـانوي، وإن كـان ممَّـا يقتضيها مقام النبوَّة إلَّا أنَّ أدلَّة العصمة لا تُلزم بها أصلاً). (السُّنَّة في الشـريعة الإسلاميَّة/ محمّد تقي الحكيم: ١٢٠). (المحقِّق).

وَثُلُثَهُ﴾ (المزَّمِّل: ٢٠)، وهكذا حينما يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم: ٤)، وهكذا حينما يقول عنه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ۝١٢٨﴾ (التوبة: ١٢٨)، حتَّىٰ وصلت الممارسة السلوكية لدىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ مستوىٰ جاء في وصفه أنَّه (كان خُلُقه القرآن)[١].

وإلىٰ جانب هذا الجهد الذاتي كان هناك تسديد إلهي، ولقد تحدَّث ﷺ عن ذلك قائلاً: «أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي»[٢]، إذن فالعصمة هي جهد ذاتي من ناحية، ولكنَّها من ناحية ثانية لا تنفصل عن التسديد والإسناد الإلهي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۝٧٤﴾ (الإسراء: ٧٤)، وهذه الآية واضحة في أنَّه لولا التسديد والتثبيت الإلهي لوقع النبيُّ في الخطأ والانحراف، وفي هذا الشأن يقول الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة وهو يتحدَّث عن رسول الله ﷺ: «ولقد قرن الله به ﷺ من لدن كان فطيماً أعظم مَلَكٍ من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[٣].

إذن فهنا تسديد من الله تعالىٰ للنبيِّ ﷺ من خلال ملك عظيم من الملائكة يرشد النبيَّ ﷺ ويسلك به طريق المكارم.

كما يقول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۝٢٧﴾ (الجنّ: ٢٦ و٢٧).

---

(١) عن عائشة أنَّها سُئِلَت عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: (كان خُلُقه القرآن، يرضىٰ لرضاه ويسخط لسخطه). (كنز العمّال/ المتَّقي الهندي ٧: ٢٢٢). (المحقِّق).

(٢) سنن النبيِّ/ العلَّامة الطباطبائي: ١١.

(٣) نهج البلاغة ٢: ١٤٧/ الخطبة القاصعة.

قال عليه السلام: «يوكِّل الله تعالىٰ بأنبيائه ملائكة يحصنون أعمالهم ويؤدّون إليهم تبليغهم الرسالة، ووكَّل بمحمّد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فُصِلَ عن الرضاعة يرشده إلىٰ الخيرات ومكارم الأخلاق ويصدّه عن الشرِّ ومساوئ الأخلاق»(١)، وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم في الحديث عن عيسىٰ بن مريم بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧).

إذن فالعصمة تخضع لعاملٍ ثانٍ وهو التسديد الإلهي.

وحول العامل الثالث للعصمة وهو الاصطفاء الإلهي في أصل التكوين والخلقة يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ٣٣ و٣٤)، وكما قال تعالىٰ عن مريم علىٰ لسان الملائكة: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ ۝﴾ (آل عمران: ٤٢)، وكما نقرأ ذلك فيما ورد عن أهل البيت عليهم السلام: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين حتَّىٰ منَّ علينا بكم فجعلكم في بيوت أذن الله أن تُرفَع ويُذكر فيها اسمه»(٢).

وهذا هو ما نقرؤه أيضاً في ما ورد عن الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة لأهل البيت عليهم السلام: «عصمكم الله من الزلل، وآمنكم من الفتن، وطهَّركم من الدنس)(٣).

إذن فالمسألة هي مسألة تطهير إلهي إلىٰ جانب الجهد الذاتي الذي

(١) بحار الأنوار ١٥: ٣٦١.

(٢) مفاتيح الجنان/ الشيخ عبّاس القمّي/ الزيارة الجامعة الكبيرة.

(٣) المصدر السابق.

يقوم به الأنبياء وأهل بيت النبوَّة. وقبل ذلك كانت مسألة الاصطفاء الإلهي لهم في أصل الخلقة التكوينية المتميِّزة عن سائر الخلق.

عوامل العصمة:

إذن فالعصمة تخضع لعوامل ثلاثة:

العامل الأوَّل: هو الجهد الذاتي.

العامل الثاني: هو التسديد الإلهي.

العامل الثالث: هو الاصطفاء الإلهي.

الدليل على العصمة:

يمكن الاستدلال علىٰ عصمة النبيِّ ﷺ، وهكذا الأئمَّة الأطهار عليهم السلام من أهل بيته بثلاثة أدلَّة:

الدليل الأوَّل: الدليل القرآني.

الدليل الثاني: الأحاديث الشريفة.

الدليل الثالث: الدليل العقلي.

الدليل القرآني:

أمَّا الدليل القرآني فيمكن هنا أن نستعرض عدداً من الآيات القرآنية:

١ - قوله تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الحجّ: ٥٢)، فهي واضحة في أنَّ أيّ تحريف شيطاني لا يمكن أن يصل إلىٰ النبيِّ ﷺ، ولا يمكن أن ينجح الشيطان في التأثير علىٰ إرادة النبيِّ ﷺ، بل يكون الغالب هو

الحقّ كما يشير لذلك قوله تعالىٰ في الآية نفسها: ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾.

٢ - قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣)، فهي واضحة في أنَّ إرادة الله تبارك وتعالىٰ اقتضت طهارة أهل بيت النبوَّة، ورسول الله هو سيِّد أهل بيت النبوَّة، ولا شكَّ أنَّ المعصية هي رجس من عمل الشيطان، إذن فالله تبارك وتعالىٰ يريد أن لا يصيب أهل بيت الوحي والنبوَّة رجس من الشيطان، وإذا كان الله يريد ذلك فإنَّ إرادته سوف تتحقَّق.

٣ - قوله تعالىٰ: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ (الجنّ: ٢٦ - ٢٨)، هذه الآية ظاهرة في المحور الأوَّل والمحور الثاني للعصمة، فهي تدلُّ علىٰ أنَّ تلقّي النبيّ للوحي هو تلقٍ دقيق و كامل، كما أنَّ إبلاغ الأنبياء لرسالات الله هو إبلاغ كامل ودقيق.

٤ - قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ (الحاقّة: ٤٤ و٤٥)، فهي دالّة علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يصدر منه خطأ في تبليغ رسالات الله وإلَّا لناله العقاب الإلهي.

٥ - ومن الآيات القرآنية الدالّة علىٰ العصمة قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ (فاطر: ٣٢)[1]، فهي دالّة علىٰ أنَّ الأنبياء ورثوا الكتاب الإلهي بشكل دقيق ولا يقبل الخطأ

---

(١) أُنظر في ذلك سنن النبيِّ للعلَّامة الطباطبائي.

والاشتباه، كما تدلُّ الآية علىٰ أنَّ الأنبياء قد اصطفاهم الله تبارك وتعالىٰ من بين العباد.

الأحاديث الشريفة:

وأمَّا الدليل الثاني وهو الأحاديث الشريفة الدالّة علىٰ العصمة فيمكن أن نذكر هنا الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام بسند صحيح أنَّه قال:

«إنَّ رسول الله كان مسدَّداً موفَّقاً مؤيَّداً بروح القدس لا يزل ولا يخطئ في شيء ممَّا يسوس به الخلق»[1].

الدليل العقلي:

وأمَّا الدليل العقلي علىٰ العصمة فهو أنَّ الله تعالىٰ حينما يأمر بإطاعة النبيِّ صلى الله عليه وآله بشكل مطلق والتأسّي بأعماله وسلوكه، فإنَّ ذلك يدلُّ علىٰ أنَّ جميع أعماله وأقواله صحيحة ومطابقة لما يريده الله تعالىٰ، وهذا هو معنىٰ الملازمة العقلية بين الأمر بالطاعة المطلقة للنبيِّ صلى الله عليه وآله وبين صوابية ما يصدر منه من الأوامر والنواهي، فحين يقول القرآن الكريم: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، أو في سائر الآيات التي تأمر بإطاعة النبيِّ صلى الله عليه وآله بشكل مطلق، مثل: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (المائدة: ٩٢)، ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (النساء: ٦٤)، وعشرات الآيات الأُخرىٰ.

فإنَّ ذلك يؤكّد علىٰ أنَّ كلَّ الأوامر الصادرة عن النبيِّ صلى الله عليه وآله هي مطابقة تماماً لما يريده الله تبارك وتعالىٰ، ومثل ذلك حينما يقول الله تعالىٰ:

---

(١) أُنظر: أُصول الكافي ١: ٢٦٦/ باب التفويض إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله/ الحديث ٤.

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، فإنَّ ذلك يشهد بطريق الملازمة العقلية[1] علىٰ أنَّ جميع سلوكيات النبيِّ ﷺ هي سلوكيات صحيحة تستحقُّ التأسّي والاقتداء بها، وهذا هو معنىٰ العصمة.

إلىٰ هنا نكون قد انتهينا من عرض الرؤية الإسلاميَّة لعصمة النبيِّ ﷺ، العصمة في تلقّي الخطاب الإلهي، ثمّ في تبليغ الخطاب الإلهي، ثمّ في الالتزام العملي به وعدم الانحراف عنه.

٢ - الرؤية الحداثية لعصمة النبيّ ﷺ

يرىٰ الحداثيون أنَّ النبيَّ الأكرم ﷺ ليس معصوماً سواءً في محور تلقّي الوحي الإلهي، أو في محور تبليغ الرسالة الإلهية، أو في محور الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة.

أمَّا في المحور الأوَّل فيقول الحداثيون: إنَّ الأصابع البشرية والثقافة الشخصية للنبيِّ ﷺ قد تترك بصماتها علىٰ الوحي المنزل، وما نطق به رسول الله ﷺ من الآيات القرآنية إنَّما هو ترجمة تتطابق مع مستوىٰ فهمه وإدراكه لتلك المفاهيم الوحيانية التي اكتشفها، وليس بالضروري أن يكون تلقّياً متطابقاً مع الواقع.

وهذا المعنىٰ نفسه ينعكس علىٰ المحور الثاني وهو تبليغ الرسالة

(١) وهنا (إذا ثبتت نبوَّته بالأدلَّة العقلية، فقد ثبتت عصمته حتماً للتلازم بينهما، وبخاصَّة إذا آمنّا باستحالة إصدار المعجزة من قِبَل الله تعالىٰ علىٰ يد من يمكن أن يدَّعي النبوَّة كذباً لقاعدة التحسين والتقبيح العقليين أو لغيرها علىٰ اختلاف في المبنىٰ). (السُّنَّة في الشريعة الإسلاميَّة/ محمّد تقي الحكيم: ١٥). (المحقِّق).

الإلهية، فالنبيُّ ﷺ إنَّما يُبلِّغ الناس مستوىٰ إدراكه للوحي الإلهي، وهو ليس بالمطلق وإنَّما هو مستوىٰ نسبي يتأثَّر بحالات النبيِّ ﷺ وثقافته المحيطة به، وعلىٰ ذلك فالنبيُّ ليس معصوماً في تبليغ الرسالة، بل هو يُقدِّم للناس ما عرفه وأدركه من المفاهيم الوحيانية، وقد تكون تلك الإدراكات غير متطابقة تماماً مع ما هو الواقع.

وبعبارة ثانية: إنَّ النصوص القرآنية إنَّما هي ترجمة بشرية للوحي الإلهي، وهذه الترجمة التي قدَّمها النبيُّ للناس هي ليست ترجمة دقيقة جدّاً بل هي ترجمة نسبية، كما أنَّ النبيَّ ﷺ قد ينسىٰ بعض ما أُوحي إليه، وقد يتثاقل في تبليغ ما أُوحي إليه، وحينئذٍ سوف لا نطمئنُّ إلىٰ دقَّة ما جاء عن النبيِّ ﷺ ومطابقته الكاملة مع ما هو الوحي النازل عليه، وهذا هو معنىٰ عدم العصمة.

وأمَّا في المحور الثالث للعصمة وهو السلوك الشخصي للنبيِّ ﷺ، فيقول الحداثيون: إنَّ النبيَّ ﷺ باعتباره بشراً قد يتجاوز الحدود الشرعية المفروضة عليه، وذلك خضوعاً لهوىٰ أو تأثّراً بغضب وما شاكل ذلك، فالمعصية ليست مستحيلة علىٰ النبيِّ، بل قد يتورَّط بمعاصٍ ثمّ يستغفر منها ويتوب.

إذن فلا عصمة في تلقّي الوحي، ولا عصمة في تبليغ الوحي، ولا عصمة في التطابق السلوكي مع الوحي الإلهي.

أسباب التشكيك الحداثي بالعصمة:

ينطلق الحداثيون في تشكيكهم بالعصمة النبويَّة من عوامل ثلاثة:

العامل الأوَّل: الفهم البشري للوحي:

هو رؤيتهم للوحي الإلهي ونظريتهم في معنىٰ النبوَّة، فهم

يعتقدون أنَّ النبوَّة هي تجربة شخصية واستلهامات ذاتية وليست وحياً إلهياً من عالم السماء.

هذه النظرية تلقي بظلالها علىٰ موضوع العصمة، فإذا كانت النبوَّة هي تجربة شخصية ذاتية بشرية وليست عطاءً إلهياً إذن لا معنىٰ لافتراض أنَّها تجربة كاملة ونهائية وقد بلغت القمَّة، بل ستبقىٰ تجربة محدودة بحدود الأنا البشرية.

وقد سبق لنا مناقشة هذه النظرية في كتابنا دفاع عن القرآن في سلسلة (نقد البنىٰ الفوقية للحداثة)، ولا نرىٰ هنا ضرورة لإعادة المناقشة، حيث أكَّدنا أنَّ الوحي هو معطىٰ إلهي[1] وليس منتجاً بشرياً، وبالتالي سوف تسقط هذه الإثارة التشكيكية من أساسها.

العامل الثاني: الآيات القرآنية النافية للعصمة:

العامل الثاني للتشكيك الحداثي بالعصمة هو الآيات القرآنية التي قد يظهر منها خطأ النبيِّ ﷺ، وربَّما تُعلِن عن مؤاخذته أو العتب عليه.

وفي هذا السياق تُذكر العديد من الآيات القرآنية:

١ - مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ (الشرح: ٢ و٣)، فالآية شاهدة بأنَّ النبيَّ له وزر قد وضعه الله عنه.

٢ - ومثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى ۝٧ وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى ۝٨﴾ (الضحىٰ: ٥ - ٨)، فالآية هنا صريحة في أنَّ النبيَّ ﷺ كان ضالًّا ثمّ هداه الله.

---

(١) راجع (دفاع عن القرآن) للمؤلِّف تحت عنوان (القرآن معطىٰ إلهي).

٣ - وهكـذا قولـه تعـالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ۝٣٧﴾ (الأحزاب: ٣٧)، فهـذه الآيـة ظـاهرة في أنَّ النبـيَّ ﷺ كـان يخشىٰ النـاس أحيانـاً، ويُبطِن في نفسه أُموراً كان عليه أن يُظهِرها للناس.

٤ - ومن تلك الآيات قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً ۝٢﴾ (الفتح: ١ و٢)، فهي صريحة في وجود الذنب لدىٰ النبيِّ ﷺ وتكرّره في المستقبل.

٥ - ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ ۝٤٣﴾ (التوبة: ٤٣)، والعفو يكشف عن وجود خطأ أو ذنب قد ارتكبه النبيُّ ﷺ.

٦ - ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ (الأنفال: ٦٧)، فهذه الآية - بحسب بعض تفاسيرها - تكشف عن نقد قرآني لموقف النبيِّ ﷺ من الأسرىٰ كما سيأتي شرحه.

٧ - ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى ۝٢ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝٣﴾ (عبس: ١ - ٣)، فهي ظاهرة أيضاً في أنَّ موقف النبيِّ ﷺ مع الأعمىٰ لم يكن موقفاً صحيحاً كما سيأتي شرحه.

إذن نحن أمام عديد من الآيات القرآنية التي تسلب في ظاهرها

العصمة من النبيِّ ﷺ بحسب بعض التفاسير الواردة فيها، بل إنَّ بعضاً منها قد يُلقي بالشكِّ في دقَّة تلقّي النبيّ للوحي الإلهي.

٨ - مثل قوله تعالىٰ: ﴿لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه: ١١٤).

٩ - وكذا قوله تعالىٰ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ ۝١٩﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩)، فهي نصوص قد يقول الحداثيون إنَّها تشهد علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يمتلك ضبطاً دقيقاً وكاملاً للوحي الإلهي، ومن أجل ذلك كان يعمد إلىٰ العجلة لضبط النصّ القرآني، إذن هو في معرض خطر ضياع بعض النص أو الاشتباه في حفظه كما تشهد به الآية القرآنية السابقة التي أضافت بعدئذٍ وعداً بأنَّ الله تبارك وتعالىٰ سوف يتولّىٰ ضبط النصّ القرآني في صدر النبيِّ ﷺ، فلا مبرِّر للعجلة!

مناقشة دلالة الآيات:

والحقيقة أنَّ الاستناد إلىٰ هذه الآيات للتشكيك بعصمة النبيِّ ﷺ وسائر الأنبياء إنَّما يعتمد علىٰ التفسير الأوَّلي والبسيط لهذه النصوص القرآنية، فيما يكشف لنا التفسير العميق معنىٰ آخر لهذه الآيات هو أكثر انسجاماً مع سياق الآيات القرآنية، كما هو أكثر انسجاماً مع النظرية الإسلاميَّة حول الأنبياء عليهم السلام.

والحقيقة أنَّ الموقف هنا هو مثل الموقف في آيات التجسيم، فإنَّ النظرة الأوَّلية لتلك الآيات توحي بأنَّ الله تعالىٰ جسم كسائر الأجسام، حينما يقول القرآن: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠)، أو ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ۝٢٢ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ ۝٢٣﴾ (القيامة: ٢٢ و٢٣)، ولكن علماء

الإسـلام لم يرتضـوا الوقـوف عنـد هـذه السـطحية في فهـم النصـوص القرآنية، وإنَّما ذهبوا لاستكشاف المعنىٰ الأعمق من خلال مقارنتها مع سائر الآيات، استناداً إلىٰ قاعدة أنَّ (القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً)، ومن خلال عرضها علىٰ المنظومة الفكرية الإسلاميَّة عن التوحيد، فإنَّ ذلك سيعطينا معنىٰ آخر هو أيضاً يُشكِّل ظهوراً لفظياً للعبارة وليس معنىٰ باطنياً.

١ - فحينما ننظر إلىٰ سياق الآيات في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، سنجد أنَّ المعنىٰ الأوضح والأكثر اقتراباً من سياق الآيات هو أنَّ المقصود بالوِزر هو تلك الهموم والأثقال التي كانت علىٰ ظهر النبيِّ ﷺ نتيجة المواقف العدائية من قِبَل قريش ورفضهم للدعوة النبويَّة.

لاحظوا ماذا يقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، فهاهنا شرح لصدر النبيِّ ﷺ بالنصر والفتح، ورفع لشأنه عند قومه بعد قطيعتهم لهم، وفي الوسط يقول: ﴿وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ بحيث إنَّ العملية محسوسة وملموسة للنبيِّ ﷺ، وليست هي عملية غفران ذنب لا يمكن استشعاره، بينما الآية تقول للنبيِّ وتخاطبه: ألسنا نحن الذين شرحنا لك صدرك؟ ألسنا الذين وضعنا عنك وزرك الذي كان ثقيلاً علىٰ ظهرك؟ فاليوم بعد تسليم قريش ونجاح الرسالة النبويَّة أصبح النبيُّ ﷺ مشروح الصدر ومرفوع الوزر بما يلمسه ويحسّه. هذا معنىٰ عميق وليس تأويلاً للآية، بل هو ظهور عميق مأخوذ من نظرة واسعة وعميقة ليست سطحية وتجزيئية للنصِّ القرآني، ولأجل ذلك تقول الآيات بعدها: ﴿فَإِنَّ مَعَ

الْعُسْرِ يُسْراً ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۝﴾ (الشرح: ٥ و٦)، فالحديث إذن ليس عن ذنب ووزر بمقدار ما هو حديث عن مشكلة أرهقت النبيَّ ﷺ وأثقلت ظهره.

٢ - وبنفس هذه النظرة العميقة تنحلُّ المشكلة في الآية الثانية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى ۝﴾، فالضلال هو الحيرة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ في عمق التحدّيات مع قريش، تلك الحيرة التي ألجأته إلىٰ الهجرة كما يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى ۝ وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى ۝﴾، فلا توجد إشارة إلىٰ ضلال ديني كان لدىٰ النبيّ ﷺ، بل لا أحد يذكر في التاريخ أنَّ النبيَّ ﷺ كان ضالًّا دينياً، بل هو منذ اليوم الأوَّل كان علىٰ دين الحنيفية الإبراهيمية.

وهناك تفسير آخر جاء عن ابن عبّاس هو الضلال من وجهة نظر قريش، (منسوباً عند قومك إلىٰ الضلالة، فهداهم الله بمعرفتك)، ومثل هذا التفسير جاء عن الإمام الرضا عليه السلام، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني عند قومك ﴿فَهَدى﴾ أي هداهم إلىٰ معرفتك[1].

٣ - أمَّا الآية الثالثة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾، فهذه الآية قابلة لتفسيرين:

الأوَّل يدعو للشكِّ في عصمة النبيِّ ﷺ، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد رأىٰ زوجة زيد بن حارثة فأعجب بها ورغب أن تكون زوجته، لكنَّه أخفىٰ ذلك في نفسه خشيةً من الناس.

(١) تفسير البرهان/ الآية (٧) من سورة الضحىٰ.

هذا التفسير لا توجد أيَّة قرينة في الآية تساعد عليه، ولأجل ذلك ذهب المفسِّرون إلىٰ التفسير الثاني، وهو أكثر انسجاماً مع ظهورها وسياقها، كما هو منسجم مع القصَّة التاريخية التي تقول:

إنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يكسر طوقاً اجتماعياً يمنع الزواج من زوجة الابن الادِّعائي، وهو في هذه القصَّة زيد بن حارثة، الذي كان قد تبنّاه رسول الله ﷺ، فكان ابناً بالتبنّي له وليس ابناً حقيقياً، وكانت العرب تمنع الزواج من زوجة الابن بالتبنّي كما تمنع الزواج من زوجة الابن الحقيقي، وكان رسول الله ﷺ يرفض ذلك ويريد التشريع لجوازه، إلَّا أنَّه كان يُخفي عزمه علىٰ إظهار هذا التشريع، إلىٰ أن يبديه الله تعالىٰ، ليكون سنداً لموقف النبيِّ ﷺ.

الآية تقول للنبيِّ ﷺ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾، لا يوجد أيُّ شاهد لغوي يُدلِّل علىٰ أنَّ المقصود هو أنَّ النبيَّ ﷺ كان يطمع بزوجة زيد ويرغب في أن يُطلِّقها زيد ولكنَّه يكتم ذلك في نفسه خشيةً من الناس وليس خشيةً من الله، لا يوجد أيُّ شاهد في الآية القرآنية علىٰ ذلك.

بينما كان النبيُّ ﷺ يقول لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾، حيث كانت هناك مشكلة عائلية دعت زيداً إلىٰ طلاق زوجته، تلك التي أراد رسول الله ﷺ أن يجازيها علىٰ موقف كانت قد قبلته من رسول الله ﷺ، وهي الحرَّة الكريمة حين زوَّجها رسول الله ﷺ عبداً من العبيد وهو زيد، ولم يكن ذلك مألوفاً أو مقبولاً لدىٰ ذوي البيوتات من قريش إلَّا أنَّ زينب بنت جحش خضعت لذلك استجابةً لرسول الله ﷺ، واليوم حيث طلَّقها زيد كان النبيُّ ﷺ بصدد جبران

خاطرها، في الوقت الـذي يُجسِّـد تشـريعاً إلهيـاً جديـداً لم يكـن مألوفـاً لـدىٰ قريش، وهو الزواج من زوجة الابن الادِّعائي[١].

هذا هو التفسير الثاني للآية الذي ينسجم مع ظهورها وقصَّتها.

وهناك تفسير ثالـث ذكرتـه الروايـات الـواردة عـن أهـل البيـت عليهم السلام، وهو كما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام، يقول:

«إنَّ الله تعالىٰ عـرَّف نبيَّـه أسـماء أزواجـه في دار الـدنيا وأسـماء أزواجـه في دار الآخـرة، وأنَّهـنَّ أُمَّهـات المـؤمنين، وكانـت إحـداهن زينـب بنـت جحش، وهي يومئذٍ تحت زيـد بـن حارثـة، فـأخفىٰ رسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم اسـمها في نفسـه ولم يبـدِه، لكـي لا يقـول أحـد مـن المنـافقين: إنَّـه قـال في امـرأة في بيـت رجـل: إنَّهـا إحـدىٰ زوجاتـه ومـن أُمَّهـات المـؤمنين، وخشـي قـول المنـافقين، وهنـا قـال الله تعـالىٰ: ﴿وَتَخْشَـى النَّـاسَ وَاللهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشـاهُ﴾ يعني في نفسك...» إلىٰ آخر الرواية[٢].

٤ - وحـين ننتقـل إلىٰ الآيـة الرابعـة، وهـي قولـه تعـالىٰ: ﴿إِنَّـا فَتَحْنـا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝١ لِيَغْفِرَ لَـكَ اللهُ مـا تَقَـدَّمَ مِـنْ ذَنْبِـكَ وَمـا تَـأَخَّرَ﴾، فـإنَّ النظرة السـطحية تقـول: إنَّ النبـيَّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لـه ذنـب يريـد الله أن يغفـره، ولكـن تـأمّلاً ولـو سريعـاً في مطلـع الآيـة ومنتهاهـا يُـدلِّل عـلىٰ أنَّ المقصـود هـو غفران ما اعتبرتـه قـريش ذنبـاً لرسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وجرمـاً عـلىٰ عاتقـه، واليـوم بعـد الفـتح سـتزول تلـك الـذنوب التـي سـجَّلتها قـريش عـلىٰ رسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وذلك حينما سفَّه أحلامهـا، وأفسـد شـبابها، وسـبَّ آلهتهـا كـما قـالوا ودعاهم إلىٰ التوحيد.

---

(١) أُنظر: تفسير الأمثل/ الآية (٤٣) من سورة التوبة.

(٢) تفسير البرهان/ تفسير الآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

لاحظوا الربط بين قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝١﴾، ثمّ لام التعليل التي تقول: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾، ما هي علاقة الفتح بالمغفرة؟

إنَّ تأمّلاً حتَّىٰ ولو كان بسيطاً يكشف عن أنَّ هذا الفتح كان سبباً لغفران ذنب ما، وهو الذنب الذي يزول بالفتح، حينما خضعت قريش للنبيِّ ﷺ حين قال لهم: «ما تروني صانعاً بكم؟».

قالوا: أخٌ كريم وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

وبهذا تكون قد زالت تلك الذنوب والرؤية السوداوية التي كانت تحملها قريش عن الرسول ﷺ.

وبهذا المعنىٰ لا يبقىٰ هناك مجال للتفسير الأوَّل الذي يُشكِّك بعصمة النبيِّ ﷺ.

٥ - وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، فليست فيها أيَّة دلالة علىٰ معصية أو مخالفة شرعية قام بها النبيُّ ﷺ، بل هي ذات احتمالين مقبولين في تفسيرها علىٰ مستوىٰ الأدب العربي:

الاحتمال الأوَّل: أنَّها جاءت عتباً علىٰ النبيِّ ﷺ في تركه عملاً

---

(١) ودخل رسول الله مكّة علىٰ راحلته ولحيته علىٰ قربوس سرجه كالساجد تواضعاً وشكراً، ثمّ التمس أبو سفيان الأمان، فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال: ومن تسع داري؟ فقال: «ومن دخل المسجد فهو آمن»، فقال: ومن يسع المسجد؟ فقال: «من ألقىٰ سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»، ثمّ وقف رسول الله ﷺ علىٰ باب المسجد وقال: «لا إله إلَّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثمّ قال: «يا أهل مكّة ما ترون إنّي فاعل بكم؟»، فقالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم، فلذلك سُمّي أهل مكّة: الطلقاء. (تفسير الرازي ٣٢: ١٥٤). (المحقِّق).

كان هو الأقرب والأقوىٰ في كشف حقيقة المنافقين، فإنَّ عدداً من المنافقين كانوا قد استأذنوا رسول الله ﷺ أن لا يخرجوا معه في غزوة تبوك، وتعذَّروا له بمعاذير كاذبة، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وهنا يقول القرآن الكريم حسب هذا التفسير الأوَّل: إنَّك لو لم تأذن لهم لكان قد انكشف نفاقهم، وكان ذلك هو الأفضل والأولىٰ أن تكشف حقيقتهم.

الاحتمال الثاني: أنَّها جاءت إشارة وكناية عن أخلاق النبيِّ ﷺ وحلمه العالي الذي لولاه لافتضح أمر هؤلاء المنافقين، فهي ليست عتباً علىٰ النبيِّ ﷺ بمقدار ما هي فضح لأمرهم وتقديراً لموقف النبيِّ ﷺ، وأنَّه لولا هذا الموقف لكان أمر هؤلاء المنافقين قد انكشف، كما نقول لأحد: (غفر الله لك لِـمَ أخذت علىٰ يدي، ولولاك لكنت لقَّنته درساً قاسياً)، فقد يبدو ذلك بصيغة العتب والتخطئة، لكنَّه قد يكون بصدد بيان حقيقة ما كان سيحدث لولا أنَّه أخذ علىٰ يدك.

وليس التفسير الأوَّل للآية أظهر من التفسير الثاني الوارد كثيراً في الاستعمالات العربية، ومهما يكن الحال فإنَّ الآية ليس فيها دلالة علىٰ مخالفة سلوكية قام بها النبيُّ الأكرم ﷺ لوحي الله تعالىٰ وأوامره.

بل إنَّ الرواية الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام تذكر تفسيراً ثالثاً للآية، حين قال عليه السلام في تفسيرها: «إنَّها علىٰ سبيل إيّاك أعني واسمعي يا جارة»، خاطب الله به نبيَّه وأراد أُمَّته، وكذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]»[1].

٦ - ومثل ذلك تفسير الآية القرآنية: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ

---

(١) أُنظر: تفسير البرهان/ الآية (٤٣) من سورة التوبة.

أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرضِ﴾ (الأنفال: ٦٧)، فإنَّ النظرة الدقيقة في فقرات الآية الكريمة تشهد بوضوح أنَّها نقد لموقف المسلمين وليس موقف النبيِّ ﷺ، فقد كان هناك من المسلمين من يرغب في أسر مقاتلي قريش لينال بعد ذلك الفدية، غير عابئ بنتائج ذلك وما يعطيه من استخفاف قريش بالحرب إذا لم يكن الخطر حقيقياً، بل كان الأسر ينتهي بالفدية، وما اسهلها علىٰ قريش لإنقاذ أسراهم وكبارهم، بينما كانت المواجهة تقتضي كسر شوكة قريش وتخويفهم وإرعابهم بقتل مقاتليهم وليس بأسرهم ثمّ إطلاق سراحهم بالفدية.

لاحظوا الآية القرآنية ماذا تقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا﴾، إذن الحديث ليس عن إرادة النبيِّ ﷺ، وإنَّما إرادة آخرين كانوا يريدون عرض الدنيا، وجاءت الآية اسناداً ودفاعاً عن النبيِّ ﷺ حينما لم يكن مرحِّباً بفكرة الأسر بدل القتل، فقالت: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى...﴾ إلىٰ أن قالت: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا﴾، هذا ليس تأويلاً للآية ولا تأويلاً للآية التي قبلها إنَّما هو ظهور لغوي من خلال التأمّل في مطالع الآيات ونهاياتها، وليس الوقوف السطحي عند بعض مفرداتها كما يصنع المجسِّمة في آيات التجسيم، وكما يصنع المشكِّكون بعصمة النبيِّ ﷺ من خلال قراءة سطحية لهذه الآيات.

٧ - وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى ۝٢ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى ۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى ۝٨ وَهُوَ يَخْشى ۝٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝١٠﴾، فرغم أنَّ التفسير المشهور لهذه الآية يقول: إنَّها نزلت في النبيِّ ﷺ عتاباً له في قصَّة عبد الله ابن أُمّ

مكتوم، وهو الرجل الأعمىٰ، حيث أتىٰ رسول الله بينما كان الرسول مقبلاً علىٰ جمع من كبار قريش وأغنيائهم يدعوهم للإسلام، فقال: يا رسول الله، علِّمني ممَّا علَّمك الله، وجعل يُكرِّر ذلك النداء بينما الرسول ﷺ مقبلٌ علىٰ صناديد قريش، ولـمَّا ألحَّ عبد الله علىٰ الرسول بالنداء عبس رسول الله ﷺ، فنزل عليه العتاب الإلهي، ومن هنا كان رسول الله يقول كلَّما رأىٰ عبد الله ابن أُمّ مكتوم: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي»[١].

نعم هذا هو التفسير المشهور للقصَّة وسبب نزول السورة، ولكنَّه علىٰ تقدير صحَّته لا يرتبط بالعصمة وما هو موضوع بحثنا، حيث نحن نتحدَّث عن العصمة في تلقّي الوحي، والعصمة في تبليغ الوحي، والعصمة في تطبيق رسالة الوحي، هذه هي محاور العصمة التي تؤثِّر في حجّية السُّنَّة النبويَّة كما سبق.

والآيات في ضوء هذا التفسير ليس فيها أيَّة إشارة لمخالفة قام بها رسول الله ﷺ للأوامر الإلهية والتوجيهات الربّانية، إنَّما تتحدَّث عن عناية فائقة وأولوية أعطاها رسول الله ﷺ لكبار قريش لدعوتهم وهدايتهم بينما هم لا يستحقّون مثل هذه الأولوية، حيث يقول الله تعالىٰ في تتمَّة السورة: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾ (عبس: ١١ - ١٣)، فلا يلزمك يا رسول الله أن تولّي هؤلاء الكافرين مزيداً من العناية التي لا يستحقّونها علىٰ حساب أعمىٰ جاءك وهو يخشىٰ ويطلب منك أن تُعلِّمه الإسلام.

فالآيات في ضوء هذا التفسير تتحدَّث عن أولويات دون أن تكون فيها

---

(١) تفسير البرهان/ سورة عَبَسَ.

إشارة لمعصية صدرت من النبيِّ ﷺ أو خطأ في تلقّي الوحي أو خطأ في تبليغ الرسالة، وهي محاور العصمة التي تتوقَّف عليها حجّية السُّنَّة النبويَّة.

وفي ذات الوقت فإنَّ هناك تفسيراً آخر تشير له بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام[١]:

إنَّها نزلت في رجل من بني أُميَّة كان جالساً عند رسول الله ﷺ، فجاء ابن أُمّ مكتوم، فلمَّا رآه ذلك الأُموي تقذَّر منه وجَمَعَ نفسه وعَبَسَ وأعرض بوجهه عنه، فحكىٰ الله ذلك وأنكره عليه[٢]، هذا هو التفسير الذي يذهب إليه كبار علماء الشيعة مثل السيِّد المرتضىٰ[٣] في كتابه

(١) أُنظر: تفسير البرهان/ سورة عَبَسَ الآية (١ - ٣).

(٢) (قال المرتضىٰ علم الهدىٰ رحمه الله: قد روي عن الصادق عليه السلام أنَّها نزلت - أي عبس وتولّىٰ - في رجل من بني أُميَّة كان عند النبيِّ ﷺ، فجاء ابن أُمّ مكتوم، فلمَّا رآه تقذَّر منه، وجمع نفسه، وعبس، وأعرض بوجهه عنه، فحكىٰ الله سبحانه ذلك، وأنكره عليه). (تفسير مجمع البيان/ الشيخ الطبرسي ١٠: ٢٦٦). (المحقِّق).

(٣) الشريف المرتضىٰ (٣٥٥ - ٤٣٦هـ)، أبو القاسم عليّ بن الحسين بن موسىٰ بن محمّد بن إبراهيم بن الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام. قال النجاشي: (حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلِّماً شاعراً أديباً، عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، صنَّف كتباً - وذكر كتبه، ثمّ قال -: مات رضي الله عنه لخمس بقين من شهر ربيع الأوَّل سنة (٤٣٦هـ)، وصلّىٰ عليه ابنه في داره ودُفِنَ فيها، وتولَّيت غسله ومعي الشريف أبو يعلىٰ محمّد بن الحسن الجعفري وسلَّار بن عبد العزيز). وقال الطوسي: (متوحِّد في علوم كثيرة، مجمع علىٰ فضله، مقدَّم في العلوم، - وذكر كتبه وقال -: قرأت هذه الكتب أكثرها عليه، وسمعت سائرها يُقرأ عليه دفعات كثيرة). قال ابن القفطي: (كانت إليه نقابة الطالبيين بمدينة السلام، وكان رئيس الإماميَّة في زمانه، وكان يقول مع ذلك بالاعتزال، وكان مجمعاً علىٰ فضله متوحِّداً في علوم كثيرة، ومن تصانيفه كتاب درر القلائد وغرر الفوائد، وكتاب تفسير القرآن، وكتاب الذريعة، وكتاب المقنع في الغيبة، وغير ذلك، وله رسائل ومسائل مدوَّنة، عنه أبو بكر أحمد بن علي الحافظ الخطيب صاحب التاريخ). (فهرس التراث/ محمّد حسين الحسيني الجلالي ١: ٤٩٧). (المحقِّق).

(تنزيه الأنبياء)[1] مؤكِّداً أنَّ الرسول الأكرم ﷺ الذي وصفه الله قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم: ٤)، ليس من صفاته العبوس مع الأعداء، فكيف به مع المؤمنين المسترشدين مثل عبد الله ابن أُمّ مكتوم.

٨ و٩ - وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ۝١١٤﴾، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧﴾، فهي جميعاً لا دلالة فيها علىٰ خطأ في تلقّي الوحي من الله تعالىٰ بمقدار ما فيها دلالة علىٰ حرص النبيِّ ﷺ علىٰ ضبط الوحي وتناوله بشكل دقيق، فيما جاء التأكيد الإلهي بعد ذلك أن لا ضرورة لهذا الاستعجال، فإنَّ الله تعالىٰ قد تكفَّل بحفظ هذا القرآن في صدر النبيِّ ﷺ.

ومن الجدير الإشارة إلىٰ أنَّ أهل البيت عليهم السلام رفضوا جميع التفاسير السطحية التشكيكية بعصمة النبيِّ ﷺ، وقدَّموا لجميع الآيات معنىً عميقاً ينسجم مع عصمة النبيِّ ﷺ، وقد أفرد السيِّد المرتضىٰ أحد أعلام الفكر الشيعي كتاباً خاصّاً سمّاه (تنزيه الأنبياء) سرد فيه الآيات

---

(١) قال الرازي فيه: (كتاب (تنزيه الأنبياء) الذي ألَّفه شيخ الشيعة في عصره ورئيسهم علّامة العلوم العقلية والأدبية الشريف المرتضىٰ علم الهدىٰ أبو القاسم عليّ بن الحسين الموسوي البغدادي (ت ٤٣٦هـ)، فإنَّه تناول فيه الأنبياء عليهم السلام واحداً بعد واحد، فردَّ علىٰ المستشكلين مسألة مسألة، مستشهداً علىٰ ما ذهب إليه بالآيات القرآنية مع إيضاحها بما أُثر من كلام العرب الفصحاء وشواهد من شعرهم البليغ، بالإضافة إلىٰ إشارات فلسفية عقلية تدعم أدلَّته النقلية. اشتهر كتاب (تنزيه الأنبياء)، وتلقَّفته أيدي العلماء منذ تأليفه، لأنَّه فتح آفاقاً جديدة من البحث والتنقيب كانت غير معروفة عند الدارسين لهذا الموضوع، وسدَّ فراغاً كان يحسّه كلُّ باحث عن وجه الحقِّ في ذلك. (عصمة الأنبياء/ فخر الدين الرازي: ٤). (المحقّق).

السابقة، وقدَّم تفسير أهل البيت عليهم السلام لها المنسجم مع عصمة الأنبياء عليهم السلام ونبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله خاصَّة.

كان هذا عرضاً للآيات القرآنية التي استشهد بها الحداثيون علىٰ عدم عصمة النبيِّ صلى الله عليه وآله ومناقشة دلالاتها، ولننتقل إلىٰ العامل الثالث:

العامل الثالث: الروايات النافية للعصمة:

العامل الثالث وراء الشكّ الحداثي في عصمة النبيِّ صلى الله عليه وآله هو الروايات التاريخية التي تتحدَّث عن خطأ النبيِّ صلى الله عليه وآله في أكثر من مرَّة، منها:

١ - ما جاء في صحيح البخاري عن أُمِّ سَلَمة أنَّه صلى الله عليه وآله قال: «إنَّكم تختصمون إليَّ، وإنَّما أنا بشرٌ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجَّته من بعض، وإنَّما أقضي لكم علىٰ نحو ممَّا أسمع، فمن قضيت له من حقِّ أخيه شيئاً فلا يأخذ، فإنَّما أقطع له قطعة من النار»(١)، هذا النصّ واضح في إمكانية خطأ النبيِّ صلى الله عليه وآله في القضاء وإصدار الحكم الشرعي بين الناس.

٢ - ما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «اللّهمّ إنَّ محمّداً بشر يغضب كما يغضب البشر، وإنّي قد اتَّخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيّ مؤمن آذيتُهُ أو سببتُهُ أو لعنتُهُ أو جلدتُهُ، فاجعلها كفّارةً وقربىٰ لك إلىٰ يوم القيامة، فإنَّما أنا من ولد آدم»(٢).

---

(١) صحيح البخاري ٣: ١٠١.

(٢) صحيح مسلم ٨: ٢٦؛ مسند أحمد ٢: ٢٤٣؛ مستدرك الحاكم ١: ١٠٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٨: ٢٦٧.

٣ - وفي روايــة تاريخيــة ثالثــة يرويهــا البخــاري ومســلم أنَّ النبــيَّ ﷺ سمع أعرابياً يقرأ آياتٍ مـن القـرآن، فقـال رسـول الله ﷺ: «يرحمـه الله لقـد ذكَّرني كذا وكذا آية كنت أسقطتُها من سورة كذا وكذا»(١).

٤ - مـا جـاء في صـحيح أحمـد ومسـلم عـن عائشـة أنَّ النبـيَّ ﷺ سـمع أصــواتاً، قــال: «مــا هــذه الأصــوات؟»، قــالوا: النخــل يُؤبِّرونــه (يُلقِّحونه)، قال: «لو لم يفعلـوا لصـلح ذلـك»، فأمسـكوا فلـم يُـؤبِّروا عامَّتـه فصار شيصاً. فـذكروا ذلـك للنبـيِّ ﷺ فقـال: «كـان شيء مـن أمـر دنيـاكم فشأنكم، وكان شيء من أمـر ديـنكم فـإليَّ»، ثـمّ قـال: «أنـتم أعـرف - أعلـم - بأُمور دنياكم»(٢).

مناقشة الروايات:

هــذه أبــرز الروايــات التــي تُــذكر للتــدليل عــلىٰ عــدم عصــمة النبــيِّ ﷺ، ولنعد الآن إلىٰ مناقشة هذه الروايات:

أمَّا الرواية الأُولىٰ التي وردت في صحيح البخاري والتي يقول فيها ﷺ: «فمن قضيت له من حقِّ أخية شيئاً فإنَّما قطعت له قطعة من نار».

الحقيقــة أنَّ هــذه الروايــة جــاءت في مصــادر الشــيعة أيضــاً في نــصٍّ مقــارب، حيــث يقــول رســول الله ﷺ كـما في الروايـة عـن الإمـام الصـادق عليه السلام: «إنَّما أقضـي بيـنكم بالبيِّنـات والأيـمان، ولعـلَّ بعضـكم ألحـن بحجَّتـه من بعض، فأيّما رجلٍ قطعت لـه قطعـة مـن مـال أخيـه شـيئاً فـإنَّما قطعـت لـه قطعة من نار»(٣).

(١) كنز العمّال/ المتَّقي الهندي ١: ٦٠٩.

(٢) مسند أحمد ٦: ١٢٣؛ سنن ابن ماجة ٢: ٨٢٥؛ صحيح ابن حبّان ١: ٢٠١.

(٣) اُنظر: وسائل الشيعة ١٨: كتاب القضاء/ أبواب كيفية الحكم/ الباب ٢/ الحديث ١.

ولكن هذا النصّ الثابت سندياً في المصادر الحديثية المعتبرة ليس فيه أيَّة دلالة علىٰ خطأ النبيِّ ﷺ، إنَّما له مدلول واضح في المنهج القضائي في الإسلام ولدىٰ جميع الأنبياء، حيث يعتمد المنهج القضائي علىٰ البيِّنات والأيمان بدل أن يعتمد علىٰ المعلومة الخاصَّة لدىٰ الحاكم أو علىٰ أدوات غيبية في المعرفة.

الحقيقة أنَّ هذا المنهج القضائي هو من أروع ما جاء به الإسلام وجاءت به كلُّ الأديان الإلهية، وكان هدف النبيِّ الأكرم ﷺ هو تأكيد هذا المنهج وإبعاد القضاة عن الاعتماد علىٰ ظنونهم أو معلوماتهم الشخصية دون استناد إلىٰ أدلَّة الإثبات الشرعية.

وهنا نجد التثقيف علىٰ اعتماد هذا المنهج كما جاء عن الإمام عليّ عليه السلام في قصَّة مفصَّلة تقول:

«إنَّ نبيّاً من الأنبياء شكىٰ إلىٰ ربِّه، فقال: يا ربِّ، كيف أقضي في ما لم أرَ ولم أشهد؟ قال: فأوحىٰ الله إليه: أُحكم بينهم بكتابي، وأضفهم إلىٰ اسمي، فحلِّفهم به».

ثمّ ذكر الإمام عليّ عليه السلام قصَّة عن نبيِّ الله داود أنَّه قال: «يا ربِّ، أرني الحقَّ كما هو عندك حتَّىٰ أقضي به. فقال الله تعالىٰ: إنَّك لا تطيق ذلك، فألحَّ داود علىٰ ربِّه حتَّىٰ فعل، فجاءه رجل يستعدي علىٰ رجل، فقال: إنَّ هذا أخذ مالي، فأوحىٰ الله إلىٰ داود: إنَّ هذا المستعدي قتل أبا هذا فأخذ ماله، فأمر داود بالمستعدي فقُتِلَ وأُخِذَ ماله فدُفِعَ إلىٰ المعتدي».

قال: «فعجب الناس وتحدَّثوا حتَّىٰ بلغ داود، فدخل عليه ما كره، فدعا ربَّه أن يرفع ذلك ففعل، ثمّ أوحىٰ الله إليه أُحكم بينهم بالبيِّنات وأضفهم إلىٰ اسمي يحلفون به»(١).

---

(١) وسائل الشيعة/ الحرّ العاملي ١٨: ١٦٧.

ومن أجل هذا وتأكيداً لهذا المنهج قال رسول الله ﷺ: «إنَّما أقضي بينكم بالبيِّنات والأيمان».

ولقد سبق الحديث أن بحثنا عن العصمة إنَّما هو في محاور ثلاثة، هي: تلقّي الوحي، وتبليغ الوحي، والالتزام بمعطيات الوحي، وأمَّا القضاء وكيفيته بين الناس فهي مسألة أُخرىٰ لا علاقة لها بتلقّي الوحي ولا تبليغ الوحي ولا بالالتزام بتعاليم الوحي، بل إنَّ رسول الله ﷺ في هذا الحديث يرسم لنا منهجاً آخر لتسير عليه الأُمَّة في المرافعات القضائية علىٰ مدىٰ الأزمنة والأمكنة، منهج يعتمد علىٰ أدوات الإثبات الشرعية والقانونية، وهي قد تخطئ أحياناً لكنَّها تبقىٰ المنهج الأكثر صوابيةً.

وفي هذا السياق يحسن أن نقرأ الرواية التي وردت في مصادر الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، قال الراوي: سألته عن البيِّنة إذا أُقيمت علىٰ الحقِّ أيحقُّ للقاضي أن يقضي بقول البيِّنة وإن لم يعرفهم من دون مسألة عنهم؟

فقال عليه السلام: «خمسة أشياء يجب علىٰ القاضي أن يأخذ فيها بظاهر الحال: الولايات، والتناكح، والمواريث، والذبائح، والشهادات»[1].

لاحظوا تأكيد الفقه الإسلامي علىٰ اعتماد الأدوات المتعارفة بين البشر في سلوكهم الاجتماعي والقضائي دون اعتماد الغيبيات وما شاكل ذلك، ففي الولايات مثل ولاية الأب علىٰ الابن، أو في التناكح والعلاقات الزوجية، وكذلك في المواريث، وكذلك في الذبائح في سوق المسلمين، وهكذا في القضاء، إنَّما يتمُّ الاعتماد علىٰ ظاهر الحال، فإن كان

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: كتاب القضاء/ أبواب كيفية الحكم/ الباب ٢٢.

هؤلاء الشهود ظاهرهم الصدق فيُؤخَذ بشهادتهم، وكما أنَّ ظاهر سوق المسلمين تذكية الذبيحة فتحلُّ الذبائح للمسلمين، وهكذا باقي الموارد التي جاءت في الرواية.

ولأنَّ هذا هو المنهج القضائي الصحيح فقد كان رسول الله ﷺ يُحذِّر المتخاصمين من الكذب والدَّجَل واعتماد بيِّنات مزوَّرة، فربَّما يصدر القضاء لصالح التزوير لكنَّه يوم القيامة إنَّما تُقطَع به قطعة من النار.

إذن في المنهج القضائي في الإسلام يجب اعتماد البيِّنات إلىٰ جانب التحذير من الكذب والتزوير، وهنا نعرف أنَّ القضاء استناداً إلىٰ البيِّنات والأيمان لا يُعتَبر خطأً، بل هو قضاء صحيح قد صدر من القاضي حتَّىٰ وإن أخطأ في إصابة الواقع. وهكذا النبيُّ ﷺ، فهو مأمور باعتماد البيِّنات والأيمان، ومكلَّف بأن يقضي وفق معطياتها، وحينئذٍ يكون قضاؤه صواباً وسليماً حتَّىٰ إذا خالف الواقع، وإنَّما تقع مسؤولية الخطأ علىٰ شهداء الزور.

أمَّا الرواية الثانية في موضوع تلقيح النخل، فجوابنا علىٰ الاستدلال بها:

أوَّلاً: أنَّها لم ترد في مصادرنا الحديثية المعتمدة، وإنَّما وردت في مصادر الحديث لدىٰ أهل السُّنَّة وبأسانيد قابلة للتشكيك في بعضها.

وثانياً: أنَّ هذه الرواية بمجملها بعيدة عن محاور العصمة التي تحدَّثنا عنها، فحجّية السُّنَّة النبويَّة تتوقَّف علىٰ العصمة في ثلاثة محاور: محور تلقّي الرسالة الإلهية، ومحور تبليغ الرسالة الإلهية، ومحور التزام النبيِّ ﷺ بالرسالات الإلهية، أمَّا ما عدا ذلك من شؤون الزراعة أو

الصناعة ممَّا لا يرتبط بشؤون الدين فإنَّ حجّية السُّنَّة النبويَّة في أُمور الدين لا تتوقَّف علىٰ عصمة النبيِّ ﷺ في هذه المجالات الدنيوية، فسواء كان معصوماً في هذه المجالات الدنيوية أو لم يكن فإنَّ سُنَّته في مجال الشريعة والعقيدة تبقىٰ حجَّة شرعية كما أسلفنا.

وثالثاً: أنَّ هذه الرواية تحمل دليل كذبها معها، فالنبيُّ ﷺ في هذه الرواية لم يبدو فقط جاهلاً بحاجة النخل إلىٰ التلقيح، وإنَّما كان يحكم قائلاً: «لو لم يفعلوا لصلح ذلك»، عجبا هل نقبل أنَّ إنساناً لديه مثل تجربة النبيِّ ﷺ الاجتماعية وانشغاله واختلاطه مع قومه في شؤون التجارة والزراعة والرعي يعتقد مع ذلك أنَّ النخل بدون تلقيح سوف يثمر؟

لو كان ذلك مجرَّد تساؤل منه ﷺ لأمكن قبوله، لكن أن يُعطي النبيُّ ﷺ - وهو الرجل الخبير بشؤون الناس الاجتماعية - رأياً فيه مخالفة لمعلومة واضحة جدّاً، هذا الأمر يدعونا للشكِّ في صدقية هذه الرواية.

هل من المقبول أن يقول النبيُّ ﷺ: لا لقاح ولا أرىٰ اللقاح بشيء؟!

هل يمكن أن يصدر هذا الكلام من إنسان جاوز في العمر عقده الخامس، وخالط الناس والمزارعين، ولكنَّه لا يدرك حقيقة الحاجة إلىٰ اللقاح؟!

الحقيقة أنَّ هذه الرواية تحمل متناً لا يمكن قبوله بقطع النظر عن سندها، فكيف نتصوَّر أنَّ النبيَّ ﷺ لا يدرك قضيَّة بسيطة يعرفها عموم الناس، وهي أنَّ النخل يحتاج إلىٰ تلقيح؟! هل نقبل أن يكون النبيُّ ﷺ بعيداً عن ثقافة بيئته الزراعية التي يعرفها أبسط الناس

يومئـذٍ؟ أليسـت الروايـة التـي تنسـب الجهـل بمسـألة التلقـيح تضـع عـلىٰ نفسها أكثر من علامة استفهام؟!

وإذا كان «الناس أعلـم بـأُمور دنيـاهم» كـما قـال، فلـماذا تـدخَّل النبـيُّ ﷺ فيما لا يعنيه؟! لنفترض أنَّـه لـيس معصـوماً، لكـن هـل مـن الحكمـة أن يُبـدي رأيـاً خـارج اختصاصـه؟ وهـل يليـق ذلـك بشخصـية النبـيِّ ﷺ وحكمته وموقعه المتميّز في الأُمَّة؟

نحـن لا نشـكُّ أنَّ الروايـة ليسـت دقيقـة في نقـل الـنصِّ إن لم تكـن موضوعة ومكذوبة بالأصل.

ورابعاً: أنَّ قولـه: «وأنـتم أعلـم بـأُمور دنيـاكم» إنَّـما يمكـن اعـتماده - علىٰ تقدير صحَّة الرواية - فيما لم يرد بـه حكـم شرعـي مـن أُمـور الـدنيا، أمَّـا فيما ورد فيه حكم شرعي فإنَّ حكم الله هو النافذ، والله تعالىٰ هو الأعلم.

فالشــريعة الإســلاميَّة قــد تــدخَّلت في كثـير مــن أُمــور دنيانــا الاقتصـادية والأُسريـة والقضـائية، وحتَّـىٰ الطعـام والشـراب والـزواج والطلاق والبيع والشـراء وغـير ذلـك، وهـي جميعـاً أُمـور مـن أُمـور الـدنيا، ولا يجوز هنـا القـول: (أنـتم أعلـم بـأُمور دنيـاكم)، إلَّا إذا أردنـا - لا سـمح الله - رفض الشريعة الإسلاميَّة بالكامل كما قد يريده الحداثيون!

الحقيقـة أنَّ المقولـة (أنـتم أعلـم بـأُمور دنيـاكم) إذا صـحَّت عـن رسـول الله ﷺ فـإنَّما المقصـود فـيما لم يـرد فيـه نـصّ شرعـي مـن الله أو مـن رسوله، أمَّا إذا جاء ذلك النصّ فإنَّ حكم الله قبل حكم الناس.

ومهما يكـن القـول في هـذه الروايـة فإنَّهـا عـلىٰ كـلِّ الأحـوال خارجـة عـن موضـوع بحثنـا في عصـمة النبـيِّ ﷺ في المحـاور الثلاثـة المـذكورة سابقاً، والتي تتوقَّف عليها حجّية السُّنَّة النبويَّة.

فسواء صحَّ هـذا الحـديث أو لم يصح فهـو بعيـد عـن إطـار العصـمة التـي نتحـدَّث عنهـا، وهنـاك بحـث واسـع بـين علـماء الإسـلام في عصـمة النبـيِّ ﷺ في شـؤون الـدنيا أو عـدم عصـمته، فهـي مسـألة تخضـع للـرأي بينهم، ولسنا هنا بصدد تحقيق هذا الموضوع.

أمَّا الرواية الثالثة التي تتحدَّث عن نسيان النبيِّ ﷺ لكذا وكذا من آيات القرآن الكريم، فهي رواية لا يمكن التصديق بها، فكيـف نتصـوَّر أنَّ الأعـرابي يحفظ القرآن بشكل أفضل من رسول الله ﷺ الـذي نـزل القـرآن عـلىٰ قلبـه؟ وكيف نقبل فرضية نسيان النبيِّ ﷺ لعدد من الآيات وفي عـدد مـن السـور؟ أليس ذلك يتنافىٰ مـع صريـح القـرآن الكـريم حيـنما يقـول: ﴿سَـنُقْرِئُكَ فَـلا تَنْسـى﴿٦﴾﴾ (الأعلىٰ: ٦)، وحينما يقول: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِـهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة: ١٦ و١٧).

كـما يُلاحـظ أنَّ هـذه الروايـة تتعمـد الإجمـال والغمـوض، فتقـول أعرابياً، كـذا وكـذا آيـة، مـن كـذا وكـذا سـورة! فمـن هـو ذلـك الأعـرابي؟ وأين كان الصـحابة الـذين يحفظـون القـرآن، وقـد غفلـوا جميعـاً عـن تـذكير رسول الله ﷺ سوىٰ ذلـك الأعـرابي؟ وهكـذا مـا هـي الآيـات التـي قرأهـا الأعرابي؟ ومـن أيَّـة سـورة قـد أسـقطها رسـول الله ﷺ؟ لاحظـوا الروايـة تقـول: «ذكَّـرني كـذا وكـذا آيـة، وكنـت أسـقطتها مـن سـورة كـذا وكـذا»، ويبـدو مـن الحـديث أنَّهـا ليسـت سـورة واحـدة ولا آيـة واحـدة، فهـذا الأعـرابي قـرأ مجموعـة آيـات ومـن أكثـر مـن سـورة! هـل يمكـن قبـول أنَّ رسول الله ﷺ ينسـىٰ أكثـر مـن آيـة ومـن أكثـر مـن سـورة ليـأتي أعـرابي لا يفقه الـدين لكنَّـه يحفـظ القـرآن أفضـل مـن رسـول الله ﷺ ويـذكّره بهـا؟! أليس هذه الرواية تحمل دليل كذبها معها؟!

وأمَّا الرواية الرابعة التي تتحدَّث عن قول النبيِّ ﷺ: «فأيّ مؤمن آذيته أو سببته...»، فهذه الرواية لا نشكُّ أنَّها من المكذوبات على النبيِّ الأكرم ﷺ، لأنَّ النبيَّ ﷺ في هذه الرواية يبدو لعّاناً وسبّاباً ومؤذياً، بل يجلد الناس بغير حقٍّ، وهذا خلاف ما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم: ٤)، كما هو خلاف الروايات الواردة في صفة النبيِّ ﷺ والتي تقول: «كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها»[١]، وكان يقول ﷺ: «بُعِثْتُ بمكارم الأخلاق ومحاسنها»[٢]، وكان ﷺ «لا يذمُّ أحداً، ولا يتكلَّم إلَّا فيما رجىٰ ثوابه»[٣]، وكان يقول: «عليكم بمكارم الأخلاق فإنَّ الله قد بعثني بها»[٤]، ويتحدَّث عنه خادمه أنس بن مالك فيقول: (خدمت النبيَّ ﷺ تسع سنين، فما أعلم أنَّه قال لي قطّ: هلَّا فعلت كذا، ولا عاب عليَّ شيئاً قطّ)[٥].

هذه هي خصال النبيِّ ﷺ، وهذا هو الثابت من أوصافه وسلوكه، فكيف نُصدِّق الرواية التي تذكر أنَّه يسبُّ ويلعن ويجلد ويؤذي بغير حقٍّ؟ والقرآن يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤)، فهل يمكن أن يكون النبيُّ ﷺ من يأمر بالأخلاق ثمّ لا يمارسها؟ حاشا ذلك لرسول الله ﷺ.

---

(١) مكارم الأخلاق/ رضي الدين الطبرسي: ١٧.

(٢) أمالي الطوسي ٣: ٢٠٩.

(٣) السيرة النبويَّة/ ابن كثير ٢: ٦٠١.

(٤) أمالي الطوسي ٢: ٩٢.

(٥) مكارم الأخلاق: ١٦.

إذن هـذه الروايـة معارضـة لما جـاء في الروايـات الثابتـة عـن وصـف رسول الله ﷺ ومكارم أخلاقه.

وثانيـاً: لم يـرد في التـاريخ أنَّ النبـيَّ ﷺ لعـن أو جلـد أو سـبَّ أو آذىٰ مؤمنا بغـير حـقٍّ، ليـت التـاريخ حـدَّثنا عـن ذلـك ولـو لمـرَّة واحـدة إن كـان موجـوداً، بيـنما يُحـدِّثنا التـاريخ أنَّ رسـول الله ﷺ قبـل وفاتـه خطـب في المسجد النبوي طالباً ممَّـن كـان لـه حـقٌّ عـلىٰ رسـول الله أن يقـوم ويقـتصّ مـن رسـول الله ﷺ، فلـم يقـم أحـد إلَّا سـوادة بـن قـيس في القصَّـة المعروفة(١).

(١) تقـول الروايـة عـن ابـن عبّـاس إنَّ النبـيَّ ﷺ في مرضـه قـال: «إنَّ ربّي ﷻ حكـم وأقسـم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشـدتكم بـالله أيّ رجـل كانـت لـه قِبَـل محمّـد مظلمـة إلَّا قـام فليقـتصّ منــه، فالقصــاص في دار الــدنيا أحــبّ إليَّ مــن القصــاص في دار الآخــرة عــلىٰ رؤوس الملائكة والأنبياء. فقام إليه رجل مـن أقصـىٰ القـوم يقـال لـه: سـوادة بـن قـيس، فقـال لـه: فداك أبي وأُمّي يـا رسـول الله، إنَّـك لـمَّا أقبلـت مـن الطـائف اسـتقبلتك وأنـت عـلىٰ ناقتـك العضــباء وبيــدك القضــيب الممشــوق، فرفعــت القضــيب وأنــت تريــد الراحلــة، فأصــاب بطنــي، فــما أدري عمــداً أو خطــأً؟ فقــال رســول الله ﷺ: «معــاذ الله أن أكــون تعمَّــدت»، ثــمّ قــال: «يــا بــلال، قــم إلىٰ منــزل فاطمــة فــأتني بالقضــيب الممشــوق»، فخــرج بــلال وهــو ينادي في سكك المدينـة: معـاشر النـاس مـن ذا الـذي يُعطـي القصـاص مـن نفسـه قبـل يـوم القيامة؟ فهذا محمّد ﷺ يُعطـي القصـاص مـن نفسـه قبـل يـوم القيامـة...، وسـاق الحـديث إلىٰ أن قال: ثمّ قال رسـول الله ﷺ: «أيـن الشـيخ؟»، فقـال الشـيخ: هـا أنـا ذا يـا رسـول الله بأبي أنت وأُمّي. فقال: «تعـالَ فـاقتصّ حتَّـىٰ تـرضىٰ»، فقـال الشـيخ: فاكشـف لي عـن بطنـك يا رسول الله. فكشف عـن بطنـه. فقـال الشـيخ: بـأبي أنـت وأُمّـي يـا رسـول الله، أتـأذن لي أن أضــع فمــي عــلىٰ بطنــك؟ فــأذن لــه، قبَّــل بطــن رســول الله ﷺ، وقــال: أعــوذ بموضــع القصـاص مـن بطـن رسـول الله مـن النـار يـوم القيامـة. فقـال رسـول الله ﷺ: «يـا سـوادة بـن قـيس، أتعفـو أم تقـتصّ؟»، فقـال: أعفـو يـا رسـول الله. فقـال رسـول الله ﷺ: «اللّهـمّ اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيِّك محمّد ﷺ».

ومن ناحية ثالثة إذا كان النبيُّ ﷺ يسبُّ ويلعن ويجلد ويؤذي المسلمين بغير حقٍّ، فذلك يعني سقوط العدالة عنه، ومع سقوط العدالة كيف يكون قاضياً بين المسلمين؟ وكيف يُلزمنا القرآن بقبول قضائه بحيث يقول القرآن الكريم: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴿٦٥﴾﴾ (النساء: ٦٥)؟ أليس من شروط القاضي أن يكون عادلاً؟ بينما رسول الله ﷺ يفقد العدالة في ضوء هذه الرواية، في الوقت الذي يؤكِّد القرآن الكريم أنَّ التسليم لقضاء رسول الله ﷺ هو شرط الإيمان.

أم هل تتناسب هذه الرواية مع قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)؟

أم هل تتناسب هذه الرواية مع قوله تعالىٰ عن الأنبياء عليهم السلام: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)؟

بل هذه الرواية تجعل النبيَّ ﷺ ظالماً للعباد، وحينئذٍ لا يمكن أن يتبوَّأ مقعد النبوَّة، لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة: ١٢٤)، حينما قال إبراهيم خليل الرحمن بعد قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، قال: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، وها هو رسول الله ﷺ في ضوء هذه الرواية الكاذبة يظلم الناس ويسبّهم ويجلدهم والعياذ بالله.

ثمّ نرىٰ في هذه الرواية أنَّ رسول الله ﷺ لا يعتذر من أُولئك الذين سبَّهم أو آذاهم أو لعنهم أو جلدهم، ولا يطلب منهم العفو، بينما لا تسقط العقوبة الإلهية بمجرَّد الدعاء لهم، وإنَّما يجب أن يغفر له أُولئك الناس الذين ظلمهم.

الحقيقة أنَّ هذه الرواية المتكرِّرة بأكثر من لسان هي من موضوعات الفترة الأُموية، حيث كان رسول الله ﷺ قد لعن أبا سفيان ومعاوية ومروان، وكان علىٰ الحكم الأُموي أن يُنزِّه نفسه من هذا اللعن، فأُعطيت الرشاوىٰ لكذابين من أمثال أبي هريرة[1] صاحب هذه الرواية ليضعها وأمثالها لتنزّه آل أُميَّة. ويؤكِّد التاريخ أنَّ أبا هريرة كان كذّاباً ووضّاعاً، وقد اشترته السلطة الأُمويَّة لوضع الأحاديث.

---

(١) لقد عرفه الصحابة الأوَّلون، وأدركوا خطره علىٰ السُّنَّة الكريمة من خلال مرويّاته التي كان يتلقّاها من كعب الأحبار وغيره ويسندها إلىٰ الرسول ﷺ، وقال له عمر بن الخطّاب كما جاء في رواية ابن سعد في طبقاته: (إنَّك عدوّ الله والإسلام يا أبا هريرة)، وقال فيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «أكذب الناس علىٰ رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي»، وجاء في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: أنَّ عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب عليه السلام كذَّبوا أبا هريرة في مرويّاته عن الرسول ﷺ، وفي كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرِّ، عن طاووس أنَّه قال: كنت جالساً عند ابن عمر، فأتاه رجل فقال: إذ الوتر ليس بحتم فخذوا منه ودعوا، فقال ابن عمر: كذب أبو هريرة. وقد كذَّبه كلٌّ من الزبير بن العوّام وابن مسعود وعائشة وغيرهم، ولذلك كان مقلًّا من الحديث في تلك الفترة من تاريخ الصحابة، ولكنَّه وجد متنفّساً له ومجالاً واسعاً بعد اتِّصاله بالأُمويين وبخاصَّة بعد أن استتبَّ الأمر لمعاوية، وأصبح من المقرَّبين إليه، ومعاوية يهمّه أكثر من أيِّ شيء أن يجد إلىٰ جانبه من يكيل له ولأُسرته المدح والثناء، ويضع المطاعن في عليّ وأُسرته، وينسبها إلىٰ رسول الله ﷺ، وللحديث النبوي أثره البالغ في تأييد الحكّام وتبرير تصرّفاتهم، لأنَّهم يحكمون ويتصرَّفون باسم الدين، ولأنَّ الخلافة امتداد لسلطة الرسول وحكومته. (دراسات في الحديث والمحدِّثين/ هاشم معروف الحسني: ٩٤/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت)، ويُنظَر في أخباره: أبو هريرة لعبد الحسين شرف الدين، وشيخ المضيرة أبو هريرة لمحمود أبو رية. (المحقِّق).

خلاصة هذا البحث:

إنَّ الرؤية الإسلاميَّة تعتقد بعصمة النبيِّ ﷺ من الخطأ في محور تلقّي الوحي، ومحور تبليغ الوحي، ومحور الالتزام بتعاليم الوحي.

وتستشهد الرؤية الإسلاميَّة علىٰ ذلك بالآيات القرآنية، والروايات الشريفة، والدليل العقلي.

وترىٰ أنَّ العصمة تستند إلىٰ ثلاثة عوامل، هي: الاصطفاء الإلهي، والتسديد الإلهي، والجهد الذاتي.

فيما ترفض الرؤية الحداثية مبدأ العصمة، وتستند في هذا الرفض إلىٰ الآيات القرآنية والروايات الشريفة النافية للعصمة.

بينما يُقدِّم هذا البحث مناقشة وافية لدلالة تلك الآيات والروايات المزعومة علىٰ عدم العصمة.

نتيجة الفصل الأوَّل:

نتيجة هذا الفصل خمسة أُمور:

١ - أنَّ السُّنَّة النبويَّة حجَّة شرعية يجب اعتمادها بعد القرآن الكريم مصدراً للشريعة والعقيدة.

٢ - أنَّ السُّنَّة النبويَّة لا يمكن الاستغناء عنها، لا بالاعتماد علىٰ القرآن الكريم، لأنَّ فيه محكم ومتشابه، وفيه أحكام عامَّة ومبادئ كلّية تحتاج إلىٰ تفصيل، كما لا يمكن الاستغناء عن السُّنَّة الشريفة اعتماداً علىٰ العقل البشري، لأنَّ الشارع المقدَّس لم يسمح لنا بذلك.

٣ - أنَّ السُّنَّة النبويَّة تتمتَّع بصفة العالمية كما هو القرآن الكريم، وأنَّها لا تختصُّ بزمان النبيِّ ﷺ ومكانه.

٤ - أنَّ السُّنَّة النبويَّة قادرة علىٰ معالجة مشاكل العصر ومستجدّاته، وذلك من خلال الاعتماد علىٰ مبدأ (الاجتهاد الفقهي) في إطار دلالة النصِّ الشرعي.

٥ - أنَّ النبيَّ الأكرم ﷺ معصوم من الخطأ، هذه العصمة هي التي تسمح لنا باعتماد سُنَّته مصدراً للشريعة والعقيدة.

* * *

الفصل الثاني

السُّنَّة النبويَّة في الرؤية الحداثية

خلاصة الرؤية الحداثية.

هدف الرؤية الحداثية.

المبحث الأوَّل: الشبهات الحداثية:

١ - السُّنَّة النبويَّة اجتهاد شخصي.

٢ - شبهة التاريخانية.

٣ - النبيُّ ﷺ بشر يخضع لقانون الخطأ والصواب.

٤ - تأخّر تدوين السُّنَّة النبوية.

٥ - تطوّر العقل البشري واستغناؤه عن السُّنَّة

المبحث الثاني: نقد الشبهات الحداثية.

سبق القول إنَّ الحداثيين المعاصرين يُقدِّمون رؤية أُخرىٰ للسُّنَّة النبويَّة غير ما هي الرؤية الإسلاميَّة.

وقبل ذلك كانوا قد قدَّموا رؤية أُخرىٰ عن القرآن الكريم في محاولة لإسقاطه عن القدسية سبق أن تناولناها بالعرض والنقد في كتابنا السابق (دفاع عن القرآن الكريم).

واليوم يمدّون أقلامهم للطعن بالسُّنَّة النبويَّة الشريفة في محاولة أُخرىٰ لسلب الشرعية عنها، وتشكيك المسلمين في قدسيتها، ومنعهم عن العمل بها، مسجِّلين عليها مجموعة شبهات وإثارات.

خلاصة الرؤية الحداثية:

إنَّ الرؤية الحداثية للسُّنَّة النبويَّة تتلخَّص في الأُمور أدناه كما سبق عرضه في مقدَّمة هذا الكتاب(١):

١ - اعتبار سُنَّة النبيِّ ﷺ اجتهاداً شخصياً بشرياً في فهم الحقيقة والشريعة، الأمر الذي لا يسمح لنا أن نعتبرها مصدراً ثانياً للتشريع بعد القرآن الكريم.

٢ - وقد كان الرسول ﷺ يتأثَّر بالأعراف والتقاليد والثقافة المحيطة به، بما لا يسمح لنا أن نُعطيها صفة الإطلاق الزماني والمكاني، بل تبقىٰ محدودة بحدودها التاريخية.

٣ - النبيُّ ﷺ باعتباره بشراً فإنَّه يخضع لقانون الخطأ والصواب، فلا يمكن منح السُّنَّة النبويَّة قدسية وحجّية مطلقة.

---

(١) أُنظر: الرؤية الحداثية للسُّنَّة من هذا الكتاب.

٤ - كما أنَّ السُّنَّة النبويَّة تعرَّضت إلىٰ ألوان الوضع والكذب والتحريف والمنع من التدوين، الأمر الذي يدعو للشكِّ في صحَّة التراث الحديثي الذي نقل لنا تلك السُّنَّة.

٥ - ومن ناحية أُخرىٰ فإنَّ العقل البشري يخضع لقانون التطوّر والتكامل، وقد جاء رسول الله ﷺ في مرحلة خاصَّة من مراحل العقل البشري، الأمر الذي يسمح لنا بانتظار نتاجات عقلية هي أكثر تكاملاً من نتاجات العقل النبوي.

هذه هي خلاصة الرؤية الحداثية للسُّنَّة النبويَّة.

وقد اعتمدوا في هذه الرؤية علىٰ مجموعة شبهات، وسنحاول في هذا الفصل من الكتاب أن نتناول بالعرض والنقد أهمّ تلك الشبهات الحداثية حول السُّنَّة النبويَّة.

هدف الرؤية الحداثية:

تجاوز السُّنَّة النبويَّة، وإسقاطها من الاعتبار، وافتراضها جزءاً من الماضي الغابر، وضرورة التعويض عنها بتجاربنا العقلية وخبراتنا البشرية، ذلك هو هدف الرؤية الحداثية للسُّنَّة النبويَّة الشريفة، وهو ما يشير إليه الحداثيون في مجمل كتاباتهم وشبهاتهم.

لقد قالوا من قبل ذلك عن القرآن الكريم: إنَّه (منتج بشري)(١)،

(١) يقول نصر حامد أبو زيد: (إنَّ النصَّ في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنَّه تشكَّل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد علىٰ العشرين عاماً، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهيةً ومتَّفقاً عليها، فإنَّ الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنصِّ يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويُعكِّر - من ثَمَّ - إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النصِّ). (فهم النصِّ/ نصر حامد أبو زيد: ٧٢). (المحقِّق).

وإنَّ الوحي هو (صناعة النبيِّ ﷺ)[١] نفسه، وإنَّ كلام الله تعالىٰ هو (صياغة نبويَّة بشرية)، وإنَّ النصَّ القرآني هو (فهم غير نهائي) ولا متكامل للوحي، وإنَّ هذا النصّ القرآني قد خضع إلىٰ (أنواع من التلاعبات) كما عبَّر عنها محمّد أركون[٢]، بحيث لا يبقىٰ أيّ مجال لاعتباره نصّاً مقدَّساً ذي قيمة مطلقة. وإضافةً إلىٰ ذلك فهو يتعاطىٰ مع مرحلة تاريخية[٣] وبيئة ثقافية وجغرافية لا تقبل التعميم إلىٰ غيرها.

---

(١) فينفي أبو زيد الوحي الإلهي بقوله: (إنَّ التشابه والتماثل بين إحدىٰ حالات الوحي وبين الرؤيا أمر مؤكَّد في الثقافة العربية الإسلاميَّة، سواء قبل الإسلام - مرتبطاً بالعرافة والكهانة - أو بعده، إنَّ ما يحدث للأنبياء شبيه بما يحدث للنائم في حلمه مع فارق الدرجة). (مفهوم النصِّ/ نصر حامد أبو زيد: ٦١). (المحقِّق).

(٢) محمّد أركون (١٩٢٨ - ٢٠١٠م) مفكِّر وباحث أكاديمي جزائري، عُيِّن أُستاذاً لتاريخ الفكر الإسلامي والفلسفة في جامعة السوربون عام (١٩٨٠م) بعد حصوله علىٰ درجة دكتوراه في الفلسفة منها، وعمل كباحث مرافق في برلين عام (١٩٨٦ و١٩٨٧م). شغل عام (١٩٩٣م) منصب عضو في مجلس إدارة معهد الدراسات الإسلاميَّة في لندن. تميَّز فكر أركون بمحاولة عدم الفصل بين الحضارات شرقية وغربية، واحتكار الإسقاطات علىٰ أحدهما دون الآخر، بل إمكانية فهم الحضارات دون النظر إليها علىٰ أنَّها شكل غريب من الآخر، وهو ينتقد الاستشراق المبنيِّ علىٰ هذا الشكل من البحث. كما يرىٰ أنَّ القرآن محرَّف بسبب أنَّ النقل غير مؤتمن، وأنَّ عند الدروز والإسماعيلية والزيدية وثائق سرّية مهمَّة تفيدنا في معرفة النصِّ الصحيح، له: نزعة الأنسنة في الفكر العربي وغيرها. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

(٣) (ليس المقصود بالبعد التاريخي هنا علم أسباب النزول - ارتباط النصوص بالواقع -، والحاجات المثارة في المجتمع والواقع - أو علم الناسخ والمنسوخ -، وتغيّر الأحكام لتغير الظروف والملابسات، أو غيرها من علوم القرآن، فإنَّ البعد التاريخي الذي نتعرَّض له هنا يتعلَّق بتاريخية المفاهيم التي تطرحها النصوص من خلال منطوقها، فليس ثَمَّة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص، بل لكلِّ قراءة - بالمعنىٰ التاريخي والاجتماعي - جوهرها الذي تكشفه في النصِّ... ينطبق هذا علىٰ النصوص التشريعية وعلىٰ نصوص العقائد والقصص. ⇦

وقد عرضنا وناقشنا كلّ ذلك في كتابنا السابق (دفاع عن القرآن).

أمَّا السُّنَّة النبويَّة فهي اجتهاد شخصي من قِبَل النبيِّ ﷺ متأثِّر بالتقاليد والأعراف والمحيط الثقافي، كما هي خاضعة للحالات النفسية والمزاجية للنبيِّ ﷺ، إلىٰ غير ذلك ممَّا سبقت الإشارة إليه.

وفي هذا الضوء سوف تفقد السُّنَّة النبويَّة قيمتها، وليس علينا بعد ذلك أن نخضع لها ونتَّخذ منها برنامجاً للحياة والشريعة، بل إنَّ علينا أن نُسقِطها من الحساب ونلجأ إلىٰ معطيات تجاربنا البشرية واجتهاداتنا العقلية إن وافقت النصّ النبوي أو خالفته.

هذه هي خلاصة هدف الرؤية الحداثية.

ومهما حاول الحداثيون عدم الإفصاح عن هذا الهدف إلَّا أنَّ قراءة شاملة لكلماتهم تشهد بذلك كما سنراه في بحوث هذا الكتاب.

كلُّ ذلك يحدث مرَّة تحت شعار: (التنوير)، و(النهضة)، و(نقد التراث)، وأُخرىٰ تحت شعار: (العقلانية)، والتحرّك من (اللامعقول إلىٰ العقل)، ومن (الإذعان) إلىٰ (إنتاج المعرفة)، وثالثة تحت شعار: (الاستخدام النفعي للتراث)، ورابعة تحت شعار: (التحلّل من سلطة النصِّ)، وهكذا خامساً وسادساً، ولكنَّها في جميعها تنتهي إلىٰ إسقاط السُّنَّة وعبورها ووضعها في حقل التراث التاريخي الذي يجب أن نتعامل معه كما نتعامل مع أيِّ نصٍّ ثقافي بشري من الماضي.

وقد يفيدنا هنا قراءة بعض النصوص الحداثية:

⇦ إنَّ النصوص الدينية قد (تأنسنت) منذ تجسَّدت في التاريخ واللغة، وهي محكومة بجدلية الثبات والتغيّر، فالنصوص ثابتة في (المنطوق) متحرِّكة متغيِّرة في (المفهوم)). (مفهوم النصِّ/ نصر حامد أبو زيد: ٨٢ - ٨٤). (المحقِّق).

يقول نصر حامد أبـو زيـد(١): (إنَّ ممارسـة الحرّيـة في نقـد الـتراث تعـدُّ شرطـاً ضروريـاً في مشـروع النهضـة سـعياً لتغيـير بنيـة العقـل مـن حالـة الإذعان والتقبّل السلبي إلىٰ حالة التساؤل وإنتاج المعرفة)(٢).

ويقـول محمّـد أركـون: (ينبغـي أن نعـود إلىٰ المـاضي لـيس مـن أجـل إسـقاط حاجـات المجتمعـات الإسـلاميَّة المعـاصرة ومشـاكلها عـلىٰ النصوص الأساسـية السـابقة، كـما يفعـل علـماء الـدين الإصـلاحيون، وإنَّـما مـن أجـل أن نتوصَّـل إلىٰ الآليـات التاريخيـة العميقـة والعوامـل التاريخيـة التـي أنتجـت هـذه النصـوص وجـدَّدت لهـا وظـائف معيَّنـة، وهـذه هـي القراءة التراجعية...).

ويقـول: (ولكـن ينبغـي أن لا نهمـل في الوقـت نفسـه مسـألة أنَّ هـذه النصـوص القديمـة لا تـزال حيَّـة وناشـطة في مجتمعاتنـا...، لهـذا السـبب ينبغـي أن نـدرس عمليـة التحـوّل الطارئـة عـلىٰ مضـامين هـذه النصـوص ووظائفه الجديدة، وهذه هي المنهجية التقدّمية)(٣).

ويقـول نصـر حامـد أيضـاً: (إنَّ العقـل العـربي في التـاريخ والـتراث ظلَّ مشدوداً إلىٰ سلطتين قامتا دائـماً بـدور الكـابح الـذي يمنعـه مـن الإنتـاج

(١) نصـر حامـد أبـو زيـد (١٩٤٣ - ٢٠١٠م) أكـاديمي مصـري، وباحـث متخصِّـص في الدراسـات الإسـلاميَّة، ومتخصِّـص في فقـه اللغـة العربيـة والعلـوم الإنسـانية. أثـارت كتابات الباحث المصـري ضـجَّة إعلاميـة في منتصـف التسعينيات مـن القـرن المـاضي. فقـد اتُّهِم بسـبب أبحاثـه العلمية بالارتـداد والإلحـاد. غـادر نصـر حامـد أبـو زيـد وزوجتـه د. ابتهـال يـونس الأُسـتاذة في الأدب الفرنسـي القـاهرة نحـو المنفـىٰ إلىٰ هولنـدا، ليقـيما هنـاك حيـث عمـل نصـر حامـد أبـو زيـد أُسـتاذاً للدراسـات الإسـلاميَّة بجامعـة لايـدن. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

(٢) نصر حامد: ٧٥/ الخطاب والتأويل.

(٣) كما جاء في الخطاب والتأويل/ هامش ص ١١٤.

الحـرّ للمعرفـة، هاتـان السـلطتان همـا: الـنصّ الـديني والسـلطة السياسـية الحاكمـة...، ولا خـلاص مـن هـذا الموقـف ولا اسـتعادة للـذاكرة إلَّا بـالإقرار بالتعدّديـة السياسـية والفكريـة...، وهـل يـتمُّ ذلـك إلَّا بتحريـر العقـل مـن سـلطتي النصـوص الدينيـة والسـلطة السياسـية...، أي بتحريـر الثقافة من عوائق النموّ)[١].

ويقـول زكـي نجيـب محمـود[٢] عـن (الاسـتخدام النفعـي للـتراث): (إنَّ الثقافة - ثقافـة الأقـدمين والمعـاصرين - طرائـق عـيش، فـإذا كـان عنـد أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشـنا الـراهن أخـذناها، وكـان ذلـك هـو الجانـب الذي نحييه من تراثنا، وأمَّا ما لا ينفـع عمليـاً تطبيقيـاً فهـو الـذي نتركـه غـير آسفين)[٣].

هـذا هـو مـا يهـدف إليـه الحـداثيون في نهايـة المطـاف علىٰ اخـتلاف أشـكالهم وألـوانهم وطروحـاتهم، ولا شـكَّ أنَّهـم قـد يختلفـون مـع بعضـهم في مسـتويات التعامـل مـع السُّـنَّة ومـع القـرآن، بـل ومـع الـدين عمومـاً، فبعضـهم قـد ينتسـب إلىٰ معسـكر الكفـر الصـريح بالـدين، وبعضـهم قـد

(١) الخطاب والتأويل: ١٢٩ - ١٣٨.

(٢) د. زكـي نجيـب محمـود (١٩٠٥ - ١٩٩٣م) كاتـب وأكـاديمي وأُسـتاذ فلسـفة مصـري، إلىٰ جانب المناصب الهامَّـة التـي شـغلها، والكتابـات الغزيـرة الهامَّـة التـي أصـدرها، وتـأثيره علىٰ عـدد كبـير مـن تلامذتـه في مصـر والعـالم العـربي إلىٰ اليـوم، فقـد كـان الـدكتور زكـي نجيـب المدشِّـن الأوَّل لتيّـار الوضـعية المنطقيـة في مصـر والعـالم العـربي والإسـلامي، في كتبـه: المنطـق الوضـعي مـن جـزئين، وخرافـة الميتافيزيقـا، ونحـو فلسـفة علميـة، وغيرهـا، كما كـان صـاحب أُسـلوب أدبي متماسـك وأنيـق يخلـق صـلة بـين الـوعي الفلسـفي والـذوق الأدبي. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

(٣) تجديد الفكر العربي/ زكي نجيب: ١٨، نقله عنه نصر حامد في الخطاب والتأويل: ٨٠.

يـرىٰ أنَّـه لا يـرفض الـدين وإنَّـما يُقـدِّم لـه قـراءة جديـدة، ولكنَّهـا تنتهـي بالنتيجة إلىٰ التحلّل منه ورفع اليد عن نصوصه ومفاهيمه.

ولننتقل من هذا التقديم إلىٰ بحوث الفصل.

* * *

البحث الأوّل
الشبهات الحداثية (عرض وقراءة)

لقد سجّل الحداثيون عدَّة شبهات علىٰ السُّنَّة النبويَّة، وها نحن نذكر عرضاً موجزاً عن تلك الشبهات:

الشبهة الأُولىٰ: أنَّ السُّنَّة النبويَّة هي عبارة عن اجتهاد شخصي للنبيِّ ﷺ في فهم الوحي، وهذا الاجتهاد سوف لا يتمتَّع بالحجّية والاعتبار، لأنَّه لا يُمثِّل وحياً إلهياً، وإنَّما يُمثِّل رؤية شخصية.

القرآن وحده هو الوحي الإلهي أمَّا السُّنَّة النبويَّة فهي ليست وحياً إلهياً، وإنَّما هي محاولة بشرية يمارسها النبيُّ ﷺ لمعرفة معاني الوحي واستكشاف إرادات الله تعالىٰ، وهي مهما كانت محاولة عظيمة إلَّا أنَّها تبقىٰ محاولة ناقصة.

يقول نصر حامد أبو زيد: (إنَّ الرسول ﷺ حامل رسالة بلَّغها عن ربِّه هي القرآن، وفي هذا البلاغ يكمن الوحي، أمَّا سُنَّته ﷺ فمنها ما هو شارح وبيان، ومنها ما هو اجتهاد، وفي هذا القسم الأخير اختلف المختلفون)[1].

ويقول في موضع آخر للتأكيد علىٰ أنَّ السُّنَّة النبويَّة لا تمتلك حقّ التشريع، وأنَّ الإمام الشافعي في القرن الثاني للهجرة هو الذي أضفىٰ عليها القدسية وحوَّلها من نصوص شارحة إلىٰ نصوص تشريعية قائلاً:

---

(١) الإمام الشافعي/ نصر حامد أبو زيد: ٥٥.

(تحويل السُّنَّة النبويَّة إلىٰ نصٍّ مشرِّع لا يقلُّ في دلالته التشريعية عن النصِّ الأوَّل - القرآن الكريم -، وهذا خلاف ما كان مستقرّاً قبل عصره - الإمام الشافعي - من أنَّها نصّ شارح وبيان)[١].

ويقول في موضع ثالث: (ليست السُّنَّة مصدراً للتشريع، وليست وحياً، بل هي تفسير وبيان لما أجمله الكتاب، وحتَّىٰ مع التسليم بحجّية السُّنَّة فإنَّها لا تستقلُّ بالتشريع ولا تضيف إلىٰ النصِّ الأصلي شيئاً لا يتضمَّنه علىٰ وجه الإجمال أو الإشارة)[٢].

الشبهة الثانية: هي ما تُسمّىٰ بالتاريخانية، والمقصود بالتاريخانية أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ مخصوصة بزمان النبيِّ ومكانه، مخصوصة بتاريخ النبيِّ وليس لها إطلاق زماني ولا مكاني، فالنبيُّ كان يخاطب قومه ويعالج مشاكل معاصرة له، وكان يتعامل مع ثقافة ومحيط معيَّن، وبالتالي فالعلاجات التي قدَّمها النبيُّ ﷺ والمواقف التي اتَّخذها مهما كانت رائعة ورائدة إلَّا أنَّها كانت متناسبة مع ظرفه وزمانه، وحينئذٍ لا يحقُّ لنا أن نُعطيها إطلاقاً زمانياً أو مكانياً.

يقول نصر حامد أبو زيد: (إنَّ النصَّ في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنَّه تشكَّل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد علىٰ العشرين عاماً...، إنَّ أُلوهية مصدر النصّ لا تنفي واقعية محتواه، ولا تنفي من ثَمَّ انتماؤه إلىٰ ثقافة البشر)[٣].

ويقول عبد الكريم سروش: (إنَّ جميع الأحكام الفقهية مؤقَّتة

---

(١) الإمام الشافعي: ٣٦.

(٢) الإمام الشافعي: ١١٩.

(٣) مفهوم النصِّ/ نصر حامد: ٢٤، نقلاً عن الحداثة والفكر الإسلامي: ٢٩٣.

مرتبطـة بمجتمـع الرسـول ﷺ والمجتمعـات الشـبيهة بـه إلَّا أن يثبـت خلاف ذلك بـأن يوجـد دليـل قطعـي يقيني بأنَّهـا شُرِّعـت بصـورة دائمـة لا لظروف خاصَّة)[١].

الشبهة الثالثة: إنَّ النبـيَّ ﷺ وهـو بشـر كـما يقـول القـرآن الكـريم: ﴿إِنَّمَـا أَنَـا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الكهـف: ١١٠)، فإنَّـه يتعـرَّض للخطـأ والصـواب، وطالمـا كـان يتعـرَّض للخطـأ والصـواب إذن لا يمكـن اعـتماد كلماته ومواقفـه، فمـن أيـن نعـرف أنَّ هـذه الكلـمات والمواقـف هـي كلـمات مطابقـة مائـة بالمائـة للـوحي الإلهـي؟ وطالمـا كـان الرسـول يقـول: «إنَّـما أنـا بشـر أُصـيب وأُخطـئ»[٢] حينئـذٍ سـوف تفقـد سُـنَّته القدسـية والاعتبـار والحجّية.

يقـول جـورج طرابيشـي: (في أكثـر مـن مـرَّة سـبقت كـان الرسـول ﷺ تصـرَّف كبشـر وردَّ خطـأه في تصـرّفه أو في اجتهـاده أو في مبـادرة هـمَّ بهـا إلىٰ كونـه بشـراً، وكـان لسـان حالـه في كـلِّ ذلـك كـما يقـول الزمخشـري: (إنَّما أنـا بشـر) و(عبـد ضـعيف)، (ولـو لم أكـن كـذلك لم أكـن غالبـاً مـرّةً ومغلوبـاً أُخـرىٰ في الحـروب، رابحـاً وخـاسراً في التجـارات أو مصيباً ومخطئاً)[٣].

وانطلاقاً مـن فكـرة أنَّ النبـيَّ ﷺ بشـر يضـيف الحـداثيون أنَّ النبـيَّ الأكـرم ﷺ كـان يتـأثَّر بـالأعراف والتقاليـد المحيطـة بـه باعتبـاره بشـراً،

(١) مجلَّة آفتاب/ العدد ١٥/ ص ٧٢، نقلاً عن الحداثة والفكر الإسلامي: ١٣٩.

(٢) ترتيب المدارك ١: ١٩٨. أُنظر: من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ١٢٨.

(٣) من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ٧٧.

فإنَّه يتأثَّر بالثقافات المعاصرة له، وطالما كان الأمر كذلك إذن نحن لا نستطيع أن نُعطي السُّنَّة النبويَّة حالة من الإطلاق والقدسية، وهي لا تُعبِّر عن رأي السماء طالما كانت متأثِّرة بأعراف ذلك العصر والمحيط الاجتماعي المعاصر للنبيِّ ﷺ.

إذن السُّنَّة النبويَّة لا تُمثِّل شرعاً إلهياً، بل قد تكون ممازجة بين الشرع الإلهي والعرف الاجتماعي، ومعنىٰ ذلك أنَّه لا يمكن اعتبارها حجّةً علينا ونحن في عرف غير ذلك العرف وعصر غير ذلك العصر وثقافة غير تلك الثقافة.

يقول خليل عبد الكريم[1]: (إنَّ العرب هم مصدر الكثير من الأحكام والقواعد والأنظمة والأعراف والتقاليد التي جاء بها الإسلام أو شرَّعها، حتَّىٰ يمكننا أن نؤكّد ونحن علىٰ ثقة شديدة بأنَّ الإسلام ورث من العرب الشيء الوفير، بل البالغ الوفرة في المناحي كافَّة)[2].

وقد يستشهد الحداثيون علىٰ هذه الرؤية بأنَّ النبيَّ ﷺ كان يستشير أصحابه حتَّىٰ في الأُمور الدينية والعبادية مثل الأذان ويُشرِّع حسب رأيهم، فالمسألة إذن لم تعد وحياً إلهياً، بل هي محاولات واجتهادات ورؤىٰ بشرية.

---

(١) خليل عبد الكريم (١٩٣٠ - ٢٠٠٢م) كاتب مصري ليبرالي، ألَّف كتباً كثيرة حول تاريخ الإسلام وخاصَّة الفترات الأُولىٰ منه. وُلِدَ خليل عبد الكريم وتوفّي في محافظة أسوان في جنوب مصر، أنهىٰ دراسته في الفقه والشريعة الإسلاميَّة في الأزهر مطلع الخمسينيات، ودرس القانون في جامعة فؤاد الأوَّل (جامعة القاهرة حالياً)، وتخرَّج منها سنة (١٩٥١م). عمل عبد الكريم محامياً مشهوداً له بالكفاءة، كان قد قام بالدفاع عن زميله نصر حامد أبو زيد عندما اتُّهِمَ بالكفر، واضطرَّ أن يدافع عن كتبه وأفكاره أمام المحكمة. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

(٢) الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميَّة/ خليل عبد الكريم: ١٧.

يقول الحداثيون: فرض الأذان - علىٰ أهمّيته العبادية - لم ينزل به الوحي، ولا كانت المبادرة فيه للرسول، بل لعبد الله بن زيد الأنصاري في رؤيا رآها. ومن ثَمَّ كان لا بدَّ لكتّاب السيرة من شيء من التخريج، كأن يقولوا: إنَّ رسول الله رأىٰ نفس الرؤيا، أو أنَّ رؤيا عبد الله بن زيد التي وصفها الرسول بأنَّها (رؤيا حقّ) كانت عن شبه وحي، أو هي - كما قال السيوطي - حالة ممَّا (يعتري أصحاب الأحوال)[(١)].

الشبهة الرابعة: هي أنَّ السُّنَّة النبويَّة في مرحلة الإثبات التاريخي والتدوين الحديثي تعرَّضت في مجال النقل وتدوين هذا التراث إلىٰ الوضع والكذب، وطالما كان الرسول الأكرم ﷺ يقول: «سيكثر عليَّ الكذّابة، ألَا ومن كذب عليَّ فليتبوَّأ مقعده من النار»[(٢)]، كما تعرَّضت السُّنَّة النبويَّة إلىٰ المنع من التدوين طال قرناً من الزمان، وبعدئذٍ جاءت مرحلة التدوين في نهايات القرن الأوَّل ومطلع القرن الثاني علىٰ عهد الحاكم الأُموي عمر بن عبد العزيز، ومع فرضية أنَّ أحاديث النبيِّ ﷺ بقيت محفوظة في الصدور مائة عام، فهل يمكن الاطمئنان بصحَّة ما نقله المحدِّثون؟! وهل يمكن الاعتماد المطلق علىٰ ما دوَّنته الكتب الحديثية؟ وخاصَّة إذا علمنا أنَّ السُّنَّة النبويَّة تعرَّضت إلىٰ منع من النقل والكلام الشفاهي، فقد كان عمر بن الخطّاب يؤاخذ من يقول: قال رسول الله،

(١) من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ٦٨. ويضيف: (وممَّن خاض في هذه المسألة من كتّاب السيرة المتأخِّرين السهيلي في الروض الأنف، ولكنَّه لم يجد مناصاً في خاتمة المطاف من التسليم بأنَّ الحكمة الإلهية هي التي اقتضت أن (يكون الأذان علىٰ لسان غير النبيِّ)، و(عن غير وحي من الله لنبيِّه كسائر العبادات والأحكام الشرعية)). (المحقِّق).

(٢) أُنظر: صحيح البخاري، وأُصول الكافي ١: ٦٢.

وينهىٰ عـن ذلـك! بـل يُهـدِّد بـالنفي والسـجن، ويضـرب بالسـوط أُولئـك الذين ينقلون سُـنَّة الرسـول ﷺ ؟! وحينئـذٍ علينـا أن نتصـوَّر أنَّ كلـمات قـد مضـىٰ عليها مائة عـام لم يُسـمَح بتـداولها وتناقلهـا كيـف نطمـئنُّ إلىٰ سـلامة ما تمَّ تدوينه بعـد مائـة عـام؟ ألسـنا نحتمـل أنَّ هـذه المـدوَّنات قـد احتـوت عـلىٰ كثـير مـن الأخطـاء والاشـتباهات والنقـولات غـير الدقيقـة؟ هـذا فـيما عدا قصَّة الوضع والكذب الذي شرحناه آنفاً.

يقـول جـورج طرابيشـي: (إنَّنـا لا نـدري مـدىٰ الصـحَّة التاريخيـة لهـذه الأحاديـث ممَّـا تحتويـه دفَّتـا المدوَّنـة الحديثيـة التـي عرفـت تضـخُّماً متسارعاً ابتداءً مـن القـرن الثالـث للهجـرة. فـأمر الصـحَّة التاريخيـة في هـذا الموضوع بات أشبه بعلم الباطن الذي لا يعلمه سوىٰ الله)(١).

كانت هـذه هـي الشـبهة الرابعـة التـي سـجَّلها الحـداثيون عـلىٰ السُّـنَّة النبويَّة، وربَّما تكون هي الأهـمّ، وهـم يهـدفون مـن وراء ذلـك إلىٰ مـا يُسـمّيه نصـر حامد أبو زيـد (إسـقاط سـلطة الـنصِّ)، بمعنـىٰ إسـقاط حجّيـة كـلام النبيِّ ﷺ.

الشبهة الخامسة: إنَّنا نـؤمن بقـانون التطـوّر العـامّ، وهـو قـانون يشـمل العقـل البشـري كـما يشـمل الطبيعـة والكـون، وحينئـذٍ فمـن الطبيعـي افـتراض أن يصـل العقـل البشـري إلىٰ منـاهج ونظريـات سـلوكية في الحيـاة هي أفضل ممَّا اكتشفه رسول الله ﷺ.

هــذه هــي أهــمّ الملاحظـات التــي أُثـيرت ضـدّ السُّـنَّة النبويَّـة - وسـنذكر غيرهـا فـيما بعـد -، والحقيقـة أنَّ هـذه الملاحظـات تهـدف إلىٰ حـذف السُّـنَّة الشـريفة عـن اعتبارهـا مصـدراً فكريـا تشـريعياً، والتفـرّد

---

(١) من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشـي: ١٩٢.

بـالقرآن الكـريم، وحيـنما تصـل النوبـة إلىٰ القـرآن الكـريم سـتعمل مشـارح الحداثيين للتشكيك بـالنصِّ القـرآني كـما أشرنـا في كتابنـا السـابق (دفـاع عـن القـرآن الكـريم)، وينـتج مـن هـذا أنَّ العمـل الحـداثي يجـري عـلىٰ إسـقاط القرآن الكـريم والسُّـنَّة النبويَّـة معـاً، وتشـكيك المثقَّـف الإسـلامي بإمكانيـة اعـتماد بـالقرآن الكـريم أو سُـنَّة النبـيِّ ﷺ، وسـوف نعـود إلىٰ مناقشـة هـذه الشبهات إن شاء الله تعالىٰ.

الشبهات القديمة:

والحقيقـة أنَّ الشـبهات الحداثيـة التـي استعرضـناها لم تكـن وليـدة عصـرها، ولم تكـن ناشـئه مـن فـراغ، فقـد سـبق أن واجهـت السُّـنَّة النبويَّـة الشريفة مثل هـذه الشـكوك في الصـدر الإسـلامي الأوَّل وعـلىٰ عهـد رسـول الله ﷺ.

ونحـاول هنـا أن نسـتعرض أهـمّ تلـك الشـبهات التشـكيكية التـي واجهتها السُّنَّة النبويَّة.

لقد كانت أهمّ تلك الشـبهات المقولـة التـي أثارهـا عمـر بـن الخطّـاب حينما قال رسـول الله ﷺ وهـو عـلىٰ فـراش المـرض: «آتـوني بـدواة وكتـف أكتب لكم كتابـاً لـن تضـلّوا بعـدي أبـداً»، هنـا قـال عمـر بـن الخطّـاب: (لا تؤتوه، إنَّ الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله)[1].

كانت هذه الكلمـة في غايـة القسـوة مـن الناحيـة الأخلاقيـة والأدبيـة، ولكــن هــي مــن الناحيــة العلميــة تعنــي إثــارة تشــكيكية كــبرىٰ بكــلام

(١) هـذه الروايـة أوردهـا المحـدِّثون بنحـو التـواتر، اُنظـر: البخـاري ومسـلم وأحمـد. راجـع أسـانيد الحـديث في هـوامش كتـاب المراجعـات للسـيِّد عبـد الحسـين شرف الـدين/ المراجعة ٨٥.

النبيِّ ﷺ، فهذا النبيُّ يُراد أن يُتعامل معه علىٰ أساس أنَّه إنسان عادي كسائر الناس قد يهجر ويتكلَّم كلاماً عن غير وعي، هذه الإثارة تعني إسقاط السُّنَّة النبويَّة من الاعتبار والقدسية، وستكون هذه أوَّل انطلاقة للتشكيك في السُّنَّة النبويَّة فيما بعد، رغم أنَّ المسلمين حينها اختلفوا، فمنهم من قال: آتوه، ومنهم من قال: لا تؤتوه، وهنا قال النبيُّ ﷺ: «قوموا عنّي لا ينبغي عند نبيٍّ نزاع».

لقد كان هذا تشكيكاً في سُنَّة رسول الله ﷺ، وإذا كنّا نقبل أنَّ النبيَّ اليوم يهجر فإنَّ ذلك يعني وضع علامة استفهام عريضة تطال الكثير من كلماته، بل الكثير من مواقفه العملية.

والخلافة الراشدة بعد رسول الله ﷺ واصلت المسيرة بنفس هذا الاتِّجاه حينما دعا الخليفة الأوَّل أبو بكر أن تُجمَع أحاديث النبيِّ ﷺ، فجُمِعَت له وحسب الناس أنَّه يريد حفظها والعناية بها، وحينما اجتمعت عنده عَمَدَ إليها صباحاً فأحرقها(١).

وروىٰ المؤرِّخون عن أبي بكر أنَّه جمع الناس بعد وفاة النبيِّ ﷺ، فقال: إنَّكم تتحدَّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تُحدِّثوا عن رسول الله ﷺ، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرِّموا حرامه(٢).

---

(١) قالت عائشة: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، فكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلَّب كثيراً، قالت: فغمَّني، فقلت: تتقلَّب لشكوىٰ أو لشيء بلغك؟ فلمَّا أصبح قال: أي بنيَّة هلمّي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فأحرقها، وقال: خشيت أن أموت وهي عندك، فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدَّثني، فأكون قد تقلَّدت ذلك. (كنز العمّال/ المتَّقي الهندي ١٠: ٢٨٥). (المحقِّق).

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي/ الشيخ محمّد الخضري: ٩١ و٩٢.

كانت هذه بدايات الحجر علىٰ السُّنَّة النبويَّة وتهميشها واقصائها من الساحة، فإذا كان خليفة رسول الله ﷺ يعمد إلىٰ أحاديث رسول الله ﷺ ويُحرقها، فذلك يعني أنَّنا لا نستطيع أن نعتمد علىٰ السُّنَّة النبويَّة بعد مئات السنين، بل إلىٰ أبد الدهر، لأنَّ السُّنَّة أصبحت غير مقدَّسة، بل هي جديرة بالإحراق خشية أن تختلط بالقرآن الكريم.

واستمرَّت السلطة الحاكمة بعد رسول الله ﷺ بنفس الاتِّجاه علىٰ عهد الخليفة الثاني والخليفة الثالث، حيث يروي لنا المؤرِّخون أنَّ عمر بن الخطّاب رافق عدداً من الصحابة وهم ينطلقون إلىٰ خارج المدينة المنوَّرة، فقد صحبهم وقال: أتدرون لِمَ شيَّعتكم؟

قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، مشيت معنا.

فقال: إنَّكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث، جودوا - جرِّدوا - القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، امضوا وأنا شريككم[١].

كما روىٰ المؤرِّخون أنَّ عمر بن الخطّاب منع الحديث عن رسول الله ﷺ، بل وكان يعاقب عليه[٢]، فقد جاء عن أبي هريرة وقد كان يُحدِّث عن رسول الله ﷺ، قيل له: كنت تُحدِّث في زمان عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أُحدِّث في زمان عمر مثلما أُحدِّثكم لضربني بمخفقته[٣].

---

(١) أُنظر: كتاب المجروحين/ ابن حبّان ١: ٣٥، وغيره من المؤرِّخين.

(٢) وذكر الخطيب البغدادي في كتابه: أنَّ عمر بن الخطّاب بلغه أنَّه قد ظهر في أيدي الناس كتب، فاستنكرها، وكرهها، وقال: أيّها الناس، إنَّه قد بلغني أنَّه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبّها إلىٰ الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب، إلَّا أتاني به، فأرىٰ فيه رأيي. قال: فظنّوا أنَّه يريد أن ينظر فيها، ويُقوِّمها علىٰ أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار، ثمّ قال: أُمنية كأُمنية أهل الكتاب. (تقييد العلم/ الخطيب البغدادي: ٥٢). (المحقِّق).

(٣) أُنظر: تذكرة الحفّاظ/ الذهبي/ ج ١.

وكـان يقـول لأبي هريـرة: لتـتركنَّ الحـديث عـن رسـول الله ﷺ أو لألحقتك بأرض دوس(١).

وروي أنَّه حبس ثلاثة مـن الصـحابة لأنَّهـم أكثـروا مـن الحـديث عـن رسول الله ﷺ(٢).

وقد كان عمـر بـن الخطّـاب يعـارض تـدوين الحـديث، واستشـار فيـه أصـحاب رسـول الله ﷺ، فأشـاروا عليـه عـامَّتهم بـذلك، فلبـث شـهراً يستخير الله في ذلك شاكّاً فيه، ثـمّ أصـبح يومـاً فقـال: إنّي كنـت ذكـرت لكـم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثمّ تـذكَّرت فـإذا أُنـاس مـن أهـل الكتـاب مـن قبلكم قـد كتبـوا مـع كتـاب الله كتبـاً فـأكبّوا عليهـا، واتركـوا كتـاب الله وإنّي والله لا أُلبِس كتاب الله بشيء(٣).

كـان هــذا أوَّل منـع مــن تـداول أقـوال النبـيِّ ﷺ بعـد أن كـان الخليفـة الأوَّل قـد أحـرق مـا دُوِّن منهـا، واليـوم يقـوم الخليفـة الثـاني بمنـع الحديث بها. وكان هـذا بمثابـة مرسـوم جمهـوري صـادر مـن مركـز الخلافـة يقول: أن لا يحقُّ لأحد من المسـلمين أن يُحـدِّث النـاس ويقـول: قـال رسـول الله ﷺ! بحجَّـة أنَّ السُّـنَّة النبويَّـة سـوف تصـطدم مـع القـرآن الكـريم، وسوف يكون حفظها وتـدوينها والحـديث بهـا عـلىٰ حسـاب القـرآن الكـريم

(١) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه: ٥٤٤.

(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٧.

(٣) عن الزهـري، عـن عـروة، أنَّ عمـر بـن الخطّـاب أراد أن يكتـب السـنن، فاسـتفتىٰ أصـحاب رسـول الله ﷺ في ذلـك، فأشـاروا عليـه أن يكتبهـا عمـر رضي الله عنه يسـتخير الله فيهـا شـهراً، ثـمّ أصـبح يومـاً وقـد عـزم الله لـه فقـال: إنّي كنـت أُريـد أن أكتـب السـنن، وإنّي ذكـرت قومـاً كـانوا قـبلكم كتبـوا كتابـاً فـأكبّوا عليهـا وتركـوا كتـاب الله، وإنّي والله لا أشـوب كتـاب الله بشيء أبداً. (كنز العمّال/ المتَّقي الهندي ١: ٢٩١). (المحقِّق).

وحيث كانت الأوَّلوية للقرآن الكريم إذن فلا بدَّ من حذف السُّنَّة النبويَّة الشريفة.

والحقيقة أنَّ هذه الخطوات هي حرب علنية علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ .

وحين وصل الأمر إلىٰ الخليفة الثالث عثمان بن عفّان سار علىٰ نفس المنوال، فصعد المنبر وقال: (لا يحلُّ لأحد يروي حديثاً لم يُسمَع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر)[١]، وتضاعف الأمر علىٰ عهد معاوية بن أبي سفيان[٢]، وبدأت ماكنة الكذب والوضع تعمل ليل نهار لتحريف سُنَّة رسول الله ﷺ بدعم من السلطان[٣]!

---

(١) منتخب الكنز بهامش مسند أحمد ٤: ٦٤. اُنظر: مقدَّمة مرآة العقول ١: ٣٢.

(٢) روىٰ المدائني في كتاب الأحداث، قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلىٰ عمّاله بعد عام الجماعة: أن برأت الذمَّة ممَّن روىٰ شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. وكتب إليهم: أن اُنظروا من قِبَلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقرِّبوهم وأكرموهم، واكتبوا إليَّ بكلِّ ما يروي كلّ رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتَّىٰ أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعث إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلَّا كتب اسمه وقرَّبه وشفَّعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثمّ كتب إلىٰ عمّاله: إنَّ الحديث عن عثمان قد كثر وفشىٰ في كلِّ مصر وفي كلِّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلىٰ الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوَّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلَّا وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة فإنَّ هذا أحبّ إليَّ، وأقرّ لعيني، وأدحض لحجَّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقُرِئَت كتبه علىٰ الناس، فرويت أخباراً كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها. (وسائل الشيعة/ الحرّ العاملي ١: ٣٨/ مقدَّمة المحقِّق). (المحقِّق).

(٣) راجع للمزيد مقدَّمة مرآة العقول/ السيِّد مرتضىٰ العسكري/ ج ١.

لقد كانت هناك خلفيات سياسية وراء الحرب المعلنة ضدّ السُّنَّة النبويَّة الشريفة، كما كان هناك الخطّ النفاقي الذي يعمد علىٰ التقليل من شأن النبيِّ ﷺ بحجَّة أنَّنا نؤمن بما جاء به النبيّ من عند الله فقط دون ما إذا كان من شخص النبيِّ ﷺ، إذن فقد اجتمع الخطّ النفاقي والخطّ السياسي للحرب القديمة ضدّ السُّنَّة النبويَّة الشريفة.

واستمرَّ المنع من تدوين السُّنَّة النبويَّة إلىٰ عهد عمر بن عبد العزيز عام (٩٩هـ)، حيث أجاز للمسلمين أن يُدوِّنوا سُنَّة رسول الله ﷺ، فكتب إلىٰ اهل المدينة: (أن اُنظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه فإنّي قد خفت دروس العلم وذهاب أهله)[1]، وبدأت من يومئذٍ حركة جمع الأحاديث النبويَّة وتدوينها، وكان أوَّل من دوَّن الحديث علىٰ رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز هو ابن شهاب الزهري[2]، ثمّ كثر التدوين

---

(١) اُنظر: طبقات ابن سعد ٥: ١٤٠.

(٢) الزهري (٥٨ - ١٢٤هـ) محمّد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر، أوَّل من دوَّن الحديث، وأحد أكابر الحفّاظ والفقهاء. تابعي، من أهل المدينة. كان يحفظ ألفين ومائتي حديث، نصفها مسند. وعن أبي الزناد: كنّا نطوف مع الزهري ومعه الألواح والصحف ويكتب كلّ ما يسمع. نزل الشام واستقرَّ بها. وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عمّاله: عليكم بابن شهاب فإنَّكم لا تجدون أحداً أعلم بالسُّنَّة الماضية منه. قال ابن الجزري: مات بشغب، آخر حدّ الحجاز وأوَّل حدّ فلسطين. (الأعلام/ خير الدين الزركلي ٧: ٩٧).

قيل في أحواله: محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري علىٰ ما يظهر من كتب التراجم من المنحرفين عن أمير المؤمنين وأبنائه عليهم السلام، كان أبوه مسلم مع مصعب بن الزبير وجدّه عبيد الله مع المشركين يوم بدر، وكان هو أكثر عمره عاملاً لبني مروان ويتقلَّب في دنياهم، جعله هشام بن عبد الملك معلِّم أولاده وأمره أن يملي علىٰ أولاده أحاديث فأملىٰ عليهم أربعمائة حديث. ⇦

والتصنيف[1].

من كلِّ هذا نعرف أنَّ الشبهات الحداثية ضدّ السُّنَّة النبويَّة كانت مسبوقة بـما يماثلها في الفترات التي عاصرت رسول الله ﷺ أو أعقبته علىٰ لسان شخصيات سياسية بارزة! ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

خلاصة البحث:

يتلخَّص هذا البحث في رفض الرؤية الحداثية للسُّنَّة النبويَّة الشريفة والدعوة للخروج منها في هذا العصر، لاعتبار أنَّها تُمثِّل اجتهاداً شخصياً بشرياً للنبيِّ ﷺ قابلاً للخطأ والصواب، وخاضعاً لمناخاته التاريخية، فضلاً عمَّا أحاط السُّنَّة النبويَّة من مشاكل في مرحلة التدوين ممَّا يسلب الثقة بصحَّة المدوَّنات الحديثية، فضلاً عن أنَّ العقل

⇦ وأنت خبير بأنَّ الذي خدم بني أُميَّة منذ خمسين سنة ما مبلغ علمه وماذا حديثه، ومعلوم أنَّ كلَّ ما أملىٰ من هذه الأحاديث هو ما يروق هؤلاء ولا يكون فيه شيء من فضل عليّ عليه السلام وولده. ومن هنا أطراه علماؤهم ورفعوه فوق منزلته بحيث تعجَّب ابن حجر من كثرة ما نشره من العلم. روىٰ ابن أبي الحديد في شرح النهج - علىٰ ما حكاه صاحب تنقيح المقال رحمه الله - عن جرير بن عبد الحميد، عن محمّد بن شيبة، قال: شهدت الزهري وعروة بن الزبير في مسجد النبيِّ ﷺ جالسان يذكران عليّاً عليه السلام ونالا منه، فبلغ ذلك عليّ بن الحسين عليهما السلام، فجاء حتَّىٰ وقف عليهما فقال: «أمَّا أنت يا عروة فإنَّ أبي حاكم أباك إلىٰ الله فحكم لأبي علىٰ أبيك. وأمَّا أنت يا زهري، فلو كنت بمكّة لأريتك كرامتك». وفي رجال الشيخ الطوسي والعلَّامة وابن داود والتفرشي أنَّه عدوّ، وفي المحكي عن السيِّد ابن طاووس في التحرير الطاووسي أنَّ سفيان بن سعيد والزهري عدوّان متَّهمان. وبالتأمّل في رسالة الإمام عليه السلام يُعلَم صدق ما قلناه. (بحار الأنوار/ العلَّامة المجلسي ٧٥: ١٣١ (الهامش). (المحقِّق).

(١) فتح الباري ١: ٢١٨/ باب كتابة العلم، وانظر للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع الجزء الأوَّل من كتاب مقدَّمة مرآة العقول للسيِّد مرتضىٰ العسكري.

البشري وفقاً لقانون التطوّر قادر علىٰ أن يُقدِّم لنا حلولاً لمشاكلنا الاجتماعية هي الأفضل ممَّا قدَّمه النبيُّ ﷺ.

ويستعرض هذا البحث الإثارات القديمة المضادَّة للسُّنَّة النبويَّة التي شهدها الصدر الإسلامي الأوَّل، مؤكِّداً أنَّ الشبهات المعاصرة هي امتداد لتلك الشبهات.

* * *

البحث الثاني
نقد الشبهات الحداثية

السُّنَّة النبويَّة هل هي اجتهاد شخصي أم تعليم إلهي؟

الشبهة الأُولىٰ:

يقول الحداثيون: إنَّ السُّنَّة النبويَّة هي اجتهاد شخصي خاضعة للظروف النفسية والبيئية التي يعيشها النبيُّ ﷺ، كما هي خاضعة لمستوىٰ إدراكه وفهمه وتحليله للوحي الإلهي، وهي اجتهاد يخضع لقانون الخطأ والصواب كأيِّ اجتهاد بشري، وعلىٰ هذا الأساس فإنَّنا نقبل فرضية أن نكتشف اجتهاداً فكرياً وفقهياً هو أفضل من اجتهاد النبيِّ ﷺ.

وحين تكون السُّنَّة النبويَّة مواقف ورؤىٰ اجتهادية شخصية، فهي إذن لا تتمتَّع بالقيمة العلمية المطلقة، وستكون إذن رؤىٰ ظنّية قابلة للخطأ والصواب.

يسوق الحداثيون الجدد أمثلة علىٰ أنَّ السُّنَّة النبويَّة هي اجتهادات شخصية بعدَّة مواقف كان النبيُّ ﷺ فيها يتصرَّف أو يتكلَّم فيكتشف بعد ذلك خطأه وينزل الوحي علىٰ خلاف رأيه، وهذا ما سوف نتعرَّض له في فصول لاحقة إن شاء الله تعالىٰ.

السُّنَّة تعليم إلهي:

جواب الشبهة الأُولىٰ:

ولكن الرؤية الإسلاميَّة ومدرسة أهل البيت عليهم السلام خاصَّة تعتقد

أنَّ السُّنَّة النبويَّة ليست اجتهاداً شخصياً من قِبَل النبيِّ ﷺ، وإنَّما هي تعليم إلهي لا يقبل الخطأ والاشتباه، وأنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يحكم ولا يقضي ولا يُشرِّع إلَّا بعلم من الله تعالىٰ وهدىٰ من هدي الله تعالىٰ، وأنَّ حديث رسول الله ﷺ هو حديث الله تعالىٰ.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «حديث رسول الله ﷺ قول الله عزَّ وجلَّ»[1].

ويقول الإمام الرضا عليه السلام: «إنَّ رسول الله لم يكن يُحرِّم ما أحلَّ الله، ولا ليُحلِّل ما حرَّم الله، ولا ليُغيِّر فرائض الله وأحكامه، كان في ذلك متَّبِعاً مسلِّماً مؤدِّياً عن الله، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فكان عليه السلام متَّبِعاً له مؤدِّياً عن الله ما أمره به من تبليغ الرسالة»[2].

وفي رواية أُخرىٰ عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، قال عليه السلام: «فرسول الله أفضل الراسخين في العلم قد علَّمه الله جميع ما أُنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله ليُنزِّل عليه شيئاً لا يعلم تأويله»[3].

ومن أجل تقريب الفكرة للأذهان يمكن أن نستشهد علىٰ ذلك بما ينقله القرآن الكريم من تأييد عيسىٰ بن مريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، وهي من الإيحاءات الإلهية الواردة علىٰ قلوب الأنبياء، وكما في عيسىٰ بن

(١) وسائل الشيعة ٢: باب صفات القاضي/ باب ٨/ الحديث ٢٦.
(٢) وسائل الشيعة ٢: باب صفات القاضي/ باب ٨/ الحديث ٢١.
(٣) وسائل الشيعة ٢: باب صفات القاضي/ باب ١٣/ الحديث ٦.

مريم أيضاً حينما قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وكما في يوسف عليه السلام حينما قال: ﴿لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (يوسف: ٣٧)، وهنا كان القرآن الكريم يتحدَّث عن الخضر صاحب موسىٰ عليه السلام ويقول: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥)، هذا يعني أنَّ هناك نافذة أُخرىٰ للأنبياء والأولياء عليهم السلام علىٰ عالم السماء وعلىٰ عالم الغيب هي غير النافذة الطبيعية التي تتوفَّر لسائر البشر.

وحين نصل إلىٰ نبيِّنا صلى الله عليه وآله وهو الأفضل والأكمل من جميع الأنبياء باتِّفاق المسلمين كلّهم، حينئذٍ سيتأكَّد لنا أنَّ السُّنَّة النبويَّة لم تكن اجتهاداً شخصياً، بل كانت تعليماً إلهياً، كما قرأنا ذلك في روايات سابقة.

لقد اعترضوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله في مرّات كثيرة، لكنَّه صلى الله عليه وآله كان يقول لهم: إنَّ ما فعلته هو من أمر الله تعالىٰ[1]، كما في قصَّة إغلاق أبواب بيوت الأصحاب علىٰ المسجد النبوي إلَّا بيت عليّ عليه السلام.

هنا نستطيع أن نستشهد بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ (يونس: ٣٥)، فإذا كانت سُنَّة النبيِّ صلى الله عليه وآله اجتهادات ظنّية إذن كيف يكون المسلمون مأمورين باتِّباع هذا النبيّ؟ في الوقت الذي يقول فيه القرآن الكريم: إنَّ من يهدي إلىٰ الحقِّ فقط هو الجدير بالاتِّباع.

القرآن الكريم يؤكِّد ويقول: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (الحشر: ٧)، ويؤكِّد عن الأنبياء قولهم: ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ

---

(١) راجع ما سيأتي في تفسير اعتراضات الصحابة.

تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾﴾ (الكهف: ٨٢)، كما في قصَّة الخضر وموسىٰ عليه السلام، فقد كانت سلوكيات الخضر سلوكيات نابعة من تعليم إلهي حينما قال لموسىٰ عليه السلام في شرح مواقفه: ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾﴾.

رسول الله صلى الله عليه وآله ينطلق في سُنَّته من تعليم الإلهي، فهو الذي يقول: «أدَّبني ربّي فأحسن تأديبي»[1]، وهو الذي ﴿كانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى ﴿٩﴾﴾ (النجم: ٩)، والذي يتحدَّث عنه القرآن الكريم بالقول: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجنّ: ٢٦ و٢٧).

إذن القرآن صريح في أنَّ الله تبارك وتعالىٰ يفتح للأنبياء والرسل نافذة أُخرىٰ هي غير النوافذ المتعارفة عند البشر، وعلىٰ أساس هذا الارتباط المباشر بين النبيِّ وبين الله تبارك وتعالىٰ والإمداد المستمرّ الإلهي للنبيِّ صلى الله عليه وآله لم تعد السُّنَّة النبويَّة اجتهاداً شخصياً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ عيسىٰ بن مريم عليه السلام أُعطي حرفين كان يعمل بهما، وأُعطي موسىٰ عليه السلام أربعة أحرف، وأُعطي إبراهيم ثمانية أحرف، وأُعطي نوح خمسة عشر حرفاً، وأُعطي آدم خمسة وعشرين حرفاً، وإنَّ الله تبارك وتعالىٰ جمع ذلك كلّه لمحمّد صلى الله عليه وآله، وإنَّ اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً أعطىٰ محمّداً صلى الله عليه وآله اثنين وسبعين حرفاً وحجب عنه حرف واحد»[2].

وفي حديث آخر عن الإمام الهادي عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لـمَّا

---

(١) الجامع الصغير لابن مسعود، وتفسير نور الثقلين ٥: ٣٩٢.

(٢) بحار الأنوار ١٧: باب علمه صلى الله عليه وآله/ الحديث ١١.

أُسري بـه لم يهـبط حتَّىٰ أعلمـه الله جـلَّ ذكـره علـم مـا قـد كـان ومـا سيكون»[١].

قـال العلَّامـة المجلسـي في (بحـار الأنـوار): (قـد تقـدَّمت الأخبـار المستفيضـة في كتـاب العلـم أنَّ النبـيَّ ﷺ والأئمَّـة صـلوات الله علـيهم لا يتكلَّمـون إلَّا بـالوحي، ولا يحكمـون في شـيء مـن الأحكـام بـالظنِّ والرأي والاجتهاد والقياس، وهذا من ضروريات دين الإماميَّة)[٢].

وينقـل المجلسـي عـن العلَّامـة الحـلّي[٣] - مـن كبـار علـماء الشـيعة في

(١) بحار الأنوار ١٧: باب علمه ﷺ/ الحديث ١٤.

(٢) بحار الأنوار ١٧: ١٥٥.

(٣) العلَّامة الحلّي (٦٤٨ - ٧٢٦هـ)، وُلِدَ الحسن بن يوسـف بـن عـليّ بـن المطهَّـر الحـلّي المعـروف بالعلَّامة الحلّي في (٢٩) رمضان سنة (٦٤٨هـ) في مدينة الحلَّة لأُسرة علمية، وقد بـدأ بتحصـيل العلم منذ طفولته، تعلَّم الأدب العربي والمقدَّمات والعلوم العصـرية في الحلَّـة عنـد أبيـه وسـائر علماء المنطقة الكبار، وكذلك عند خاله المحقِّق الحلّي وابن عمّ أُمّه الشيخ نجيب الدين يحيـىٰ بـن سعيد، والسيِّد أحمد بن طاووس ورضي الدين عليّ بـن طـاووس والحكـيم المشـهور ابـن ميـثم البحراني مؤلِّف شرح نهج البلاغة. أكمل المقدَّمات ونال درجة الاجتهاد ولم يبلغ سنّ التكليف، ومنذ ذلك الوقت اشتهر بنبوغه وذكائه وفضله، وكانت له البشـارة بمسـتقبل زاهـر. لقـد كـان العلَّامة من أعاجيب الدهر، ألَّـف في الفقـه والأُصـول والكـلام والمنطـق والفلسـفة والرجـال وغيرها، وله من الآثار في حدود (١٠٠) كتاب طُبِعَ بعض منها، والتـي يكفـي أحـدها كتـذكرة الفقهاء للدلالة علىٰ نبوغه، تتلمذ في الفقه علىٰ خاله المحقِّـق الحـلّي، وفي الفلسـفة والمنطـق عـلىٰ الخواجة نصير الدين الطوسي، ودرس الفقه السُّنّي علىٰ علماء السُّـنَّة. أسـاتذته: الخواجـة نصـير الدين الطوسي، المحقِّق الحلّي، الشيخ سديد الدين يوسف، السيِّد أحمد بن طاووس، السـيِّد عـليّ بن طاووس، ابن ميثم البحراني، الشيخ نجيب الدين يحيىٰ بن سعيد، الشيخ تقي الـدين عبـد الله بن جعفر بن عليّ الصبّاغ الحنفي. مؤلَّفاته: للعلَّامة ما يقـرب مـن مائـة مؤلَّـف وكتـاب، منهـا: الإرشاد، تبصـرة المتعلِّمين، القواعد، التحرير، تذكرة الفقهـاء، مختلـف الشـيعة، المنتهـىٰ، شرح التجريد، منهاج الاستقامة، تلخيص الكشّاف. ⇦

القرن السابع الهجري - قوله: (النبيُّ ﷺ لم يكن متعبِّداً بالاجتهاد، ولنا وجوه - أدلَّة - علىٰ ذلك:

الأوَّل: قوله تعالىٰ: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ۝٣﴾ [النجم: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

الثاني: الاجتهاد يفيد الظنّ وهو - رسول الله ﷺ - قادر علىٰ معرفة الحكم علىٰ القطع، والقادر علىٰ العلم لا يجوز له الرجوع إلىٰ الظنِّ.

الثالث: أنَّ مخالفته في الحكم كفر، لقوله تعالىٰ: ﴿لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، ومخالفة الاجتهاد لا تُكفِّر)[(١)].

هذه هي الرؤية الإسلاميَّة في سُنَّة النبيِّ ﷺ.

ومن الحقِّ أن نسأل من أين عرف الحداثيون أنَّ سُنَّة النبيِّ ﷺ كانت اجتهاداً شخصياً؟ رغم كلّ هذه التأكيدات القرآنية والنبويَّة علىٰ أنَّه ما كان يقول إلَّا بعلم من الله تعالىٰ؟

بل تمضي مدرسة أهل البيت عليهم السلام للمزيد من القول بأنَّ رسول الله ﷺ قد آتاه الله علم ما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة، وأنَّ جميع الحقائق الكونية مكشوفة له، وكما هي مكشوفة لأئمَّتنا الأطهار عليهم السلام[(٢)].

⇦ وفاته: توفّي العلَّامة الحلّي في (١١) محرَّم بعد عمر حافل بالجهد والسعي في إحياء الشريعة واكتساب الكمال، وقبره في النجف الأشرف بجوار الرواق المطهَّر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام. (أعيان الشيعة/ محسن الأمين العاملي ٥: ٤٠١ في ترجمة العلَّامة الحلّي؛ الحقائق الراهنة في أعيان المائة الثامنة/ آقا بزرك الطهراني: ٥٣).

(١) بحار الأنوار ١٧: ١٥٥، نقلاً عن العلَّامة الحلّي في كتاب النهاية.

(٢) أُنظر: أُصول الكافي/ الكليني ١: ٢٤٠.

أمثلة: ⇦

نوافذ أخرى للتعليم الإلهي:

النوافذ التعليمية عند سائر البشر هي عبارة عن الدراسة والتعلّم والجهد الفكري، لكن الأنبياء والأولياء لديهم نوافذ أُخرىٰ لتحصيل العلم الإلهي، دونما حاجة إلىٰ دراسة وتعلّم، ولا اجتهاد كسائر اجتهادات البشر التابعة للخطأ والصواب.

الحديث النبوي الشريف يقول: «من أخلص لله أربعين صباحاً أجرىٰ الله الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»[1]، بما يكشف لنا أنَّ الإخلاص لله سيكشف لصاحبه نوافذ أُخرىٰ لاستحصال العلم، هكذا يقول الحديث الشريف: «من أخلص لله»، فهناك ترابط بين الإخلاص لله وبين تفجّر العلم علىٰ قلب الإنسان.

⇦ ١ - جاء في صحيح مسلم (ج ٨/ ص ١٧٣) ما نصّه: حدَّثني أبو زيد - يعني عمرو بن أخطب -، قال: صلّىٰ بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتَّىٰ حضرت الظهر، فنزل فصلّىٰ ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتَّىٰ حضرت العصر، ثمّ نزل فصلّىٰ ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتَّىٰ غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا.

٢ - وجاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج ٥/ ص ٣٨٨): قال أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: والله إنّي لأعلم الناس بكلِّ فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما ذلك أن يكون رسول الله ﷺ حدَّثني من ذلك شيئاً أسرَّه إليَّ لم يكن حدَّث به غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يُحدِّث مجلساً أنا فيه سُئِلَ عن الفتن وهو يعدُّ الفتن فيهنَّ ثلاث لا يذرن شيئاً منهم كرياح الصيف، منها صغار، ومنها كبار. قال حذيفة: فذهب أُولئك الرهط كلّهم غيري.

٣ - وفي صحيح البخاري (ج ٤/ ص ٧٣) عن طارق بن شهاب، قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قام فينا النبيُّ ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتَّىٰ دخل أهل الجنَّة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه. (المحقِّق).

(١) كنز العمّال/ المتَّقي الهندي ٣: ٢٤.

شواهد التعليم الإلهي:

إنَّ عشرات الشواهد القرآنية نستطيع أن نسوقها للتدليل علىٰ نظرية (التعليم الإلهي)، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ۝٦٥﴾ (الكهف: ٦٥)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، وغيرها من الآيات التي سبق ذكرها، ويمكن أن نستعرض هنا شواهد أُخرىٰ من القرآن وسيرة الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام، من ذلك:

١ - قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، حيث الربط بين التقوىٰ والتعليم الإلهي، ممَّا يكشف أنَّ الله تعالىٰ يفتح نافذة تعليمية جديدة لأهل التقوىٰ لا علاقة لها بالدرس وآليات التعلّم الاعتيادية المتعارفة.

بل نجد ذلك أكثر وضوحاً في قصَّة سليمان عليه السلام حينما طلب من يأتيه بعرش بلقيس، فـ ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠)، لاحظوا العلم بكتاب الله وما يُفجِّره من طاقة غير عادية لدىٰ الإنسان، فالقرآن يقول: إنَّ ذلك الذي عنده علم من الكتاب كان قادراً علىٰ أن يأتي بعرش بلقيس وهو علىٰ بُعد أكثر من ألف كيلومتر في أقلّ من الثانية ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

٢ - أيضاً في هذا السياق نستذكر الحديث المتواتر عن الإمام عليّ عليه السلام، وهو يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض»[1]، هذا تحدٍّ عظيم كان يُكرِّره الإمام عليه السلام هو فوق علم الفقه واللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس، يقول: «سلوني عن طرق السماوات»! يا ترىٰ من أين له هذه المعلومة؟ وما هي النافذة التي فُتِحَت له؟

---

(١) نهج البلاغة/ الخطبة ١٨٩.

ما نريد أن نستكشفه من هذه المقولة أنَّ أهل بيت النبوَّة عليهم السلام يُفتَح لهم أبواب معرفية واسعة هي غير متوفِّرة لسائر البشر.

٣ - وهذا المعنىٰ نجده أيضاً عند الإمام محمّد الجواد عليه السلام، وهو الإمام التاسع من أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، وهو صغير السنِّ حينما قال له عمر بن فرج الرخجي وكانا علىٰ شاطئ دجلة: إنَّ شيعتك تدَّعي أنَّك تعلم كلّ ماء دجلة ووزنه؟ وكان هذا القائل مستغرباً ومستنكراً ذلك ويعتقد أنَّ هذا غلوّ ومبالغة، ولكن لاحظوا ماذا قال له الإمام الجواد عليه السلام، قال له: «أترىٰ لو أنَّ الله تعالىٰ أراد أن يُعطي علم ذلك إلىٰ بعوضة أكان قادراً؟»، قال: نعم. قال: «فأنا أكرم علىٰ الله من بعوضة»[1].

إذن الحديث هنا ليس عن آليات معرفية متواضعة عندنا نحن البشر، وإنَّما عن آليات أُخرىٰ مرتبطة بالله تبارك وتعالىٰ يفتحها لمن يشاء من عباده.

هذه هي نماذج تؤكِّد علىٰ أنَّ النبيَّ والوصيَّ لا يمارس عملية اجتهاد شخصي يحتمل الخطأ والصواب كما نحن نمارسه، أو عملية استظهار وفق الظهور العرفي للنصوص القرآنية، وإنَّما هو أعمق من ذلك، هو تعليم من الله تبارك وتعالىٰ.

٤ - لاحظوا يحيىٰ بن زكريا وهو صبي ماذا يقول فيه القرآن الكريم، يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ (مريم: ١٢)، إذن الصبي حينما يكون قادراً علىٰ تلقّي الحكم من الله تبارك وتعالىٰ، فما بالك حينما يكون نبيّاً كبيراً؟

٥ - ونفس ذلك نجده في عيسىٰ بن مريم حينما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ

---

(١) بحار الأنوار ٥: ١٠٠/ حياة الإمام الجواد عليه السلام.

اللهِ آتـانِيَ الْكِتـابَ وَجَعَلَـنِي نَبِيًّـا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَـنِي مُبـارَكاً أَيْـنَ مـا كُنْـتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ (مريم: ٣٠ و٣١).

هـؤلاء هـم الأنبيـاء في كشـفهم للحقـائق ومعـرفتهم بالمعلومـة مـن خلال طرق تعليمية وطاقة سماوية هي أوسع من كلِّ طاقاتنا البشرية.

نماذج من علم النبيّ ﷺ:

ولنأخـذ نـماذج مـن معلومـات جـاءت في السُّـنَّة النبويَّـة الشـريفة ونتأمَّل في مصدرها.

مـثلاً حيـنما يقـول رسـول الله ﷺ: «صـلة الـرحم تزيـد مـن العمـر، وتنفي الفقر»[1]، من الحـقِّ أن نسـأل: مـن أيـن حصـل رسـول الله ﷺ عـلىٰ هـذه المعلومـة؟ هـل هـو اجتهـاد شخصـي؟ لا يوجـد شيء في القـرآن حسب المداليل اللغوية يكشف عـن هـذا المعنىٰ وأنَّ صـلة الـرحم تزيـد مـن العمـر وتنفـي الفقـر، إذن بـلا شـكٍّ هنـاك آليـة معرفيـة أُخـرىٰ لـدىٰ النبـيّ ﷺ لا نعرفهـا نحـن لكـن النبـيَّ ﷺ يسـتطيع مـن خلالهـا أن يكتشـف المعلومة الغيبية فضلاً عن المعلومة الدنيوية.

وهكـذا حيـنما يقـول ﷺ: «أرض القيامـة نـار مـا خـلا ظـلّ المـؤمن فإنَّ صدقته تظلّه»[2]، هذه أيضاً معلومـة غيبيـة مـن أيـن حصـل عليهـا النبـيُّ ﷺ وهو يتحدَّث عـن عـالم مـا بعـد المـوت؟ ولا يوجـد في القـرآن الكـريم ما يشير بحسب الدلالات اللغوية الموضوعة عند العرب إلىٰ هذا المعنىٰ.

أو حيـنما يقـول ﷺ: «كـلُّ عـين باكيـة يـوم القيامـة إلَّا ثلاثـة أعـين:

---

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٨٨.

(٢) فروع الكافي ٤: ٣/ ح ٦.

عين فاضت من خشية الله، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين غُضَّت عن محارم الله»[(١)]، هل هذا استنتاج من نصوص قرآنية وفق سياقات الوضع اللغوي؟ لا شكَّ أنَّه ليس كذلك، إذ لا أحد منّا يكتشف ذلك عبر الدلالات اللغوية، الأمر الذي يؤكِّد وجود نافذة أُخرىٰ لدىٰ النبيّ ﷺ لتحصيل المعلومة.

ولنذكر هنا قصَّة النبيِّ ﷺ حينما عاد من المسجد الأقصىٰ في قضيَّة الإسراء[(٢)]، وكان يومها قد أخبرهم بحادثة الإسراء، فهزأ المنافقون وقالوا: ها هو يتحدَّث عن المسجد الأقصىٰ، إذن لنخصمه ونكشف كذبه! فأقبلوا إليه يسألوه: ماذا رأيت في المسجد الأقصىٰ؟ كم هي الأعمدة؟ وكم هي القناديل؟ وكم هي الفرش؟ لكن النبيَّ لم يعجز

(١) بحار الأنوار ٧: ١٩٥.

(٢) عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، قَالَ: «لَـمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ أَتَاه جَبْرَئِيلُ بِالْبُرَاقِ فَرَكِبَهَا فَأَتَىٰ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَلَقِيَ مَنْ لَقِيَ مِنْ إِخْوَانِه مِنَ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، ثُمَّ رَجَعَ فَحَدَّثَ أَصْحَابَه: أَنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ورَجَعْتُ مِنَ اللَّيْلَةِ وقَدْ جَاءَنِي جَبْرَئِيلُ بِالْبُرَاقِ فَرَكِبْتُهَا، وآيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لأَبِي سُفْيَانَ عَلَىٰ مَاءٍ لِبَنِي فُلَانٍ وقَدْ أَضَلُّوا جَمَلاً لَهُمْ أَحْمَرَ وقَدْ هَمَّ الْقَوْمُ فِي طَلَبِه، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّمَا جَاءَ الشَّامَ وهُوَ رَاكِبٌ سَرِيعٌ ولَكِنَّكُمْ قَدْ أَتَيْتُمُ الشَّامَ وعَرَفْتُمُوهَا فَسَلُوه عَنْ أَسْوَاقِهَا وأَبْوَابِهَا وتُجَّارِهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ الشَّامُ وكَيْفَ أَسْوَاقُهَا؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَعْرِفُه شَقَّ عَلَيْه حَتَّىٰ يُرَىٰ ذَلِكَ فِي وَجْهِه، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاه جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذِه الشَّامُ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ، فَالْتَفَتَ رَسُولُ الله ﷺ فَإِذَا هُوَ بِالشَّامِ بِأَبْوَابِهَا وأَسْوَاقِهَا وتُجَّارِهَا، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ الشَّامِ؟ فَقَالُوا لَه: فُلَانٌ وفُلَانٌ، فَأَجَابَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فِي كُلِّ مَا سَأَلُوه عَنْه فَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ». (الكافي/ الكليني ٨: ٣٦٥). (المحقِّق).

عن الإجابة، فقد هبط عليه جبرائيل ووضع أمامه صورة المسجد الأقصىٰ وما فيه، فأجابهم بالتفاصيل التي سألوا عنها، أو كما في صحيح البخاري ومسلم أنَّه ﷺ قال: «فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلَّا أنبأتهم به»(١).

إنَّ كلَّ هذه القصص تؤكِّد أنَّ النبيَّ ﷺ يمتلك قدرة علىٰ اكتشاف الحقيقة أكثر من قدراتنا البشرية.

وحي القرآن ووحي السُّنَّة:

نستطيع أن نؤكِّد أنَّ الوحي الإلهي الذي يستقبله الرسول الأكرم ﷺ وسائر الأنبياء قد يكون (وحي قرآن) وقد يكون (وحي سُنَّة)، والفرق بينهما هو أنَّ الوحي القرآني هو ما ينزل فيه نصّ قرآني، أمَّا وحي السُّنَّة فهو ما ينزل فيه تسديد وتعليم إلهي للنبيِّ ﷺ دون أن يكون نصّاً قرآنياً يُتلىٰ، وهو ما يصطلح عليه بعض المفسِّرين بـ (وحي التسديد) في مقابل وحي النبوَّة.

يقول العلَّامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ (الأنبياء: ٧٣): هذا الوحي وحي تسديد وتأديب وليس هو وحي النبوَّة والتشريع...، ومعنىٰ وحي التسديد أن يخصَّ الله عبداً من عباده بروح قدسي يُسدِّده في أعمال الخير...)(٢).

أمَّا الإمام الشافعي فهو يؤكِّد نفس المفهوم ويصطلح بـ (الوحي

---

(١) صحيح مسلم ١: ١٠٨.

(٢) سنن النبيِّ/ العلَّامة الطباطبائي: ٤١.

المتلوّ) و(الوحي غير المتلوّ)، يقول: (ما فرض رسول الله ﷺ شيئاً قطّ إلَّا بوحي، فمن الوحي ما يُتلىٰ، ومنه ما يكون وحياً إلىٰ رسول الله ﷺ فيستنُّ به)[1].

مسؤولية النبيّ ﷺ لا تسمح له بالاجتهاد الشخصي:

مسؤولية النبيِّ ﷺ كما يؤكِّدها القرآن الكريم ليست هي مجرَّد نقل الوحي الإلهي للناس، بل هي مسؤولية هداية الناس وتزكيتهم والشهادة عليهم وتبيين الوحي الإلهي والمقاصد الإلهية، وقد سبق شرح ذلك.

هذه المسؤولية الكبرىٰ والمتعدِّدة الجوانب لا تسمح له العمل باجتهاداته الشخصية في فهم وتفسير الوحي الإلهي وتوجيه الأُمَّة حسب رؤاه الشخصية واتِّخاذ مواقف نابعة من تأثّره بالأعراف والتقاليد أو المصالح الشخصية له!

كيف والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحاقَّة: ٤٤ - ٤٦)، ويقول أيضاً: ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥)، ورغم أنَّ الكلام في هذه الآيات هو عن القرآن الكريم لكنَّها تكشف عن حدود موضوعة للنبيِّ ﷺ في التعامل مع أحكام الله وشريعته لا تسمح له أن يتعدّاها ويتجاوزها.

اقرؤوا هنا الآيات القرآنية التي تتحدَّث عن (البيان والتبيين) وتقول: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾[2]، و﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾[3]، وأمثال ذلك. عجبا هل المقصود بالبيان والتبيين هنا أنَّ النبيَّ ﷺ فقط ينقل النصّ القرآني!؟

---

(١) كتاب الأُمّ/ الإمام الشافعي ٧: ٣١٤/ طبعة دار الفكر/ بيروت.

(٢) ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (النحل: ٦٤).

(٣) ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤).

كلَّا طبعاً، فإنَّ ذلك لا يقال عنه: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾، بل يقال: لتقرأ عليهم أو لتتلو عليهم. إذن عملية التبيين هي شيء آخر وراء مجرَّد نقل النصِّ القرآني، وهذا التبيين لا يمكن أن يكون تبييناً ظنّياً اجتهادياً، لأنَّ ﴿الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾﴾ (النجم: ٢٨)، ولا يجوز للنبيِّ ﷺ أن يتكلَّم بغير العلم.

وعلىٰ ذلك فحينما تكون مسؤولية النبيِّ ﷺ تبيين القرآن الكريم وحقائقه للناس بشكل علمي ودقيق وبعيدة عن الظنِّ والاشتباه، فيكشف ذلك عن أنَّ الله تبارك وتعالىٰ فتح للنبيِّ ﷺ نافذة لتحصيل المعلومة الغيبية بمرادات الله تبارك وتعالىٰ وأوامره ونواهيه غير التي لدينا نحن البشر العاديين، وكما كان يقول الخضر: ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾﴾ (الكهف: ٨٢)، إذن هي توجيهات إلهية وإيعازات ربّانية، وليست شرحاً واجتهاداً وتفسيراً شخصياً قابلاً للخطأ والصواب.

وكذلك حينما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورىٰ: ٥٢)، فهل يمكن أن يكون النبيُّ ﷺ هادياً لأُمَّته إلىٰ صراط مستقيم وهو لا يعرف ذلك أو يخطأ في بعض ما يرشد إليه وينصح به أو في بعض عباداته وصلواته!؟ معاذ الله أن يكون نبيُّ الله ورسوله بهذه المثابة وقد أمرنا الله تعالىٰ أن نتأسّىٰ به.

وهكذا حين يقول القرآن الكريم: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ (النساء: ١٠٥)، هذا يعني أنَّ حكم النبيِّ ﷺ ومواقفه وسلوكياته هي برؤية من الله تبارك وتعالىٰ، حين يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ وليس بما أنت تجتهد

وتظـنّ أو تسـتدلّ كـما في اسـتدلالات الفقهـاء وكـما هـي أدوات القيـاس والاستحسـان ومـا شـاكل ذلـك، وإنَّـما ﴿لِتَحْكُـمَ بَـيْنَ النَّـاسِ بِمـا أَراكَ اللهُ﴾ ومـن خـلال الهـدي الإلهـي، إذن فهنـاك إرادة إلهيـة يخـتصُّ بهـا النبيُّ ﷺ.

يقـول الإمـام الصـادق عليه السلام: «الـرأي مـن رسـول الله صـواب، ومـن غيره خطـأ، لأنَّ الله تعـالىٰ قـال: ﴿لِتَحْكُـمَ بَـيْنَ النَّـاسِ بِمـا أَراكَ اللهُ﴾ ولم يقل ذلك لغيره»[1].

اعتراضات بعض الصحابة:

ويستشـهد الحـداثيون عـلىٰ نظـريتهم بعـدم وحيانيـة السُّـنَّة النبويَّـة وعـدم عصـمتها باعتراضـات بعـض الصـحابة عـلىٰ رسـول الله ﷺ ونقدهم له، بـل الخـروج عـلىٰ أوامـره، فقـد كـان بعضـهم يواجهـون رسـول الله ﷺ علانيةً وأحياناً بالاتِّهام.

وفي هـذا الإطـار يـذكرون نـماذج لـذلك مـن قبيـل مخـالفتهم لرسـول الله ﷺ في صلح الحديبيـة، ويمكـن أن نـذكر نـماذج أُخـرىٰ، مثـل مخـالفتهم لرسول الله ﷺ حينما دعا بدواة وكتـف ليكتـب لهـم كتابـاً لـن يضـلّوا بعـده أبداً، وهـي قضـيَّة في غايـة الأهميـة حيـنما قـال: «آتـوني بـدواة وكتـف أكتـب لكم كتاباً لـن تضـلّوا بعـدي أبـداً»، وقـد بلغـت الجـرأة بـبعض الصـحابة أن يقـول: (لا تؤتـوه إنَّ الرجـل ليهجـر)[2]، وهـذا قمَّـة التشـكيك في سُـنَّة النبيِّ ﷺ قولاً وفعلاً.

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: أبواب صفات القاضي/ الباب ٦/ الحديث ٢٨.

(٢) صحيح البخاري ١: كتاب العلم/ باب ٣٩/ حديث ٤.

أو حينما قال قائلهم حينما قسَّم رسول الله ﷺ الغنائم على المهاجرين في معركة هوازن: (مال النبيُّ إلىٰ قومه)، وأوشكت الفتنة أن تقع بين المهاجرين والأنصار.

إذن هو من وجهة نظرهم متَّهم في ميوله، وربَّما يخضع لما نُسمّيه اليوم بالمحسوبيات والمنسوبيات والأهواء القومية الضيِّقة والعشائرية.

وقد يُذكر في هذا السياق عصيانهم لرسول الله ﷺ حينما دعا إلىٰ تجهيز جيش أُسامة، فتخلَّف بعضهم، بينما كان رسول الله ﷺ يقول «جهِّزوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلَّف عن جيش أُسامة»[1]، وعشرات النماذج الواضحة في دلالتها علىٰ أنَّهم كانوا يتعاملون مع النبيِّ ﷺ علىٰ أساس أنَّه إنسان عادي يخطئ ويؤثر بغير حقٍّ بعضاً علىٰ بعض.

وفي هذا السياق يستعرض بعض الحداثيين[2]، ستّ محطّات لهذه المخالفات أو كما يُعبِّر عنها بالتوتّر في العلاقة بين الرسول والمؤمنين، نذكرها موجزاً كما جاءت:

١ - قصَّة تمرّد أزواج النبيِّ ﷺ بقيادة عائشة وحفصة، وفيه نزلت الآية: ﴿أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

٢ - قصَّة احتجاج الأنصار علىٰ عدم إعطائهم شيئاً من غنائم حنين (هوازن)، حتَّىٰ قال بعضهم: (إنَّ هذا لهو العجب، إنَّ سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإنَّ غنائمنا تردُّ عليهم، فإن كان من أمر الله صبرنا، وإن كان من أمر رسول الله استعتبناه)[3].

---

(١) الملل والنحل/ الشهرستاني ١: ٢٣/ ط ٢/ سنة ١٣٩٥هـ.

(٢) أُنظر: من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ٧٤ - ٧٨.

(٣) السنن الكبرىٰ/ النسائي ٥: ٨٧.

٣ - قصَّة أُسارىٰ بدر التي نزلت فيها في لوم النبيِّ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧)[١].

٤ - موقف أبي حذيفة بن عتبة في قصَّة أُسارىٰ بدر - أيضاً - حين قال رسول الله ﷺ: «من لقي العبّاس بن عبد المطَّلب فلا يقتله»، فقال أبو حذيفة: (نقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العبّاس؟ والله لئن لقيته لألحمنَّه بالسيف)[٢].

٥ - يوم فتح مكّة حين نادىٰ سعد بن عبادة: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة)، فقال أبو سفيان لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله، أمرت بقتل قومك؟)، فقال رسول الله ﷺ: «كذب سعد، اليوم يوم المرحمة»، وأرسل عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن ينزع اللواء عنه.

٦ - ما كان في صلح الحديبية حين قبل رسول الله ﷺ بشروط هذه المصالحة سارع عمر يعترض كما يروي ابن هشام في سيرته: وثب عمر إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: «بلىٰ»، قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: «بلىٰ»، قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: «بلىٰ»، قال: فعلام نُعطي الدنيَّة في ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أُخالف أمره، ولن يُضيِّعني»[٣].

---

(١) يستند هذا التفسير للآية علىٰ روايات موضوعة لا صحَّة لها، ولا تؤيِّدها سياقات الآية الكريمة وظواهر دلالاتها، وإنَّما اللوم في الآية جاء لأُولئك الذين كانوا يريدون عرض الدنيا، كما تقول الآية نفسها، ويطمعون بأن يكون لهم أسرىٰ لكي يأخذوا بعدئذٍ عنهم الفدية، دون أن يُفكِّروا بالنصر الحقيقي علىٰ العدوِّ، ومن هنا نزل العتاب عليهم دفاعاً عن النبيِّ قائلاً: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

(٢) الكامل في التاريخ/ ابن الأثير ٢: ١٢٩.

(٣) المصدر السابق.

هذا ما يثيره الحداثيون شاهداً علىٰ أنَّ الفهم الإسلامي في الصدر الأوَّل للسُّنَّة النبويَّة لم يكن فهماً تقديسياً، وإنَّما كان فهماً بشرياً قابلاً للخطأ والصواب، ينتج من ذلك أنَّ السُّنَّة النبويَّة ليس لها اعتبار ولا حجّية، لأنَّنا لا نعلم ما هي المنطلقات التي انطلق منها رسول الله ﷺ؟ هل هي منطلقات وحيانية حقَّة أو مزاجية؟

يقول جورج طرابشي بعد أن استعرض الموارد الستَّة السابقة لاعتراضات الصحابة:

(إلامَ نخلص من كلِّ ما تقدَّم؟ إلىٰ شيء واحد لازم النتيجة عن مقدَّماتها في المنطق الأُرسطي: أنَّ الرسول هو بكلِّ ما في الكلمة من معنىٰ رسول، وككلِّ رسول فإنَّه ليس له من مهمَّة غير تبليغ الرسالة من دون أن يكون له حقّ التصرّف أو حتَّىٰ التأويل، أو في كلِّ مرَّة يقول أو يفعل من عنده أو حتَّىٰ عندما يتمنّىٰ في دخيلة نفسه لا أكثر يكفُّ عن أن يكون رسولاً، ويعود بشراً يسري عليه قانون البشرية فيصيب أو يخطئ كغيره من البشر، بل يضلُّ بكلِّ تأكيد بالنظر إلىٰ أنَّه مكلَّف بإبلاغ الرسالة وهم غير مكلَّفين، ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ (سبأ: ٥٠))[1].

فالرسول ﷺ إذن في ضوء هذا الاستنتاج يصيب ويخطئ ويضلُّ!

هكذا كان يفهمه بعض الصحابة ويتعاملون معه!

الجواب على اعتراض بعض الصحابة:

والحقيقة أنَّ هذه الشواهد ستكون بالفعل شاهداً علىٰ طريقتهم غير التقديسية في التعامل مع رسول الله ﷺ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه علىٰ الفور هو:

---

(١) من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث/ جورج طرابيشي: ٨٤.

الحقُّ مع من؟ مع رسول الله ﷺ أو مع أُولئك المعترضين؟

رسول الله ﷺ هو الحجَّة، أو أُولئك الصحابة الذين اعترضوا عليه؟

وربَّما كانت لبعضهم نوايا حسنة، وربَّما كان لبعضهم الآخر مواقف متشدِّدة ضدّ رسول الله ﷺ، ولهم حسابات أُخرىٰ كشفها التاريخ فيما بعد حينما خرجوا بالمسيرة الإسلاميَّة عن توصيات النبيِّ ﷺ.

بالفعل لقد تعامل بعضهم مع النبيِّ ﷺ علىٰ أساس أنَّه بشر يخضع للهوىٰ والعياذ بالله، أو ربَّما اعتقدوا أن يكون موقفهم أفضل من موقف النبيِّ ﷺ! رغم أنَّ الملأ الأعظم منهم كان يُقدِّس النبيَّ ﷺ ويعرف منزلته ومكانته عند الله تعالىٰ، ولا يخالف له امراً ونهياً.

ومهما يكن، فإنَّ الحداثيين عمدوا للاستشهاد بمخالفات واعتراضات بعض الصحابة للتدليل علىٰ نظرية الاجتهاد البشري للرسول ﷺ وليس التعليم الإلهي، ومن هنا كانوا يجدون من حقِّهم الاعتراض علىٰ النبيِّ الأكرم ﷺ ومخالفة رأيه!

أمَّا أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم فهم قد وضعوا النقاط علىٰ الحروف، وقالوا: إنَّ المعترضين علىٰ رسول الله ﷺ كانوا يُمثِّلون ثُلَّة نادرة لا تُعبِّر عن موقف عموم الصحابة الذين أخلصوا الصحبة والإيمان، وهذه الثُّلَّة القليلة لم تكن علىٰ حقٍّ، بل كانوا ينطلقون أحياناً من مصالح شخصية أو من حالة ضعف إيمان أو من زيغ قلوب أو من حالة نفاقية.

أليس القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الحجرات: ٤)؟

أليس القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ (الحجرات: ٥)؟

أليس القرآن الكريم يتحدَّث عن أُولئك الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ (الأحزاب: ٥٧)؟

إذن لماذا نفترض أنَّ فهم أُولئك الذين يؤذون رسول الله ويشاقّون الله ورسوله هو الصحيح؟

لماذا يكون هؤلاء هم الذين يُمثِّلون الفهم الإسلامي الصحيح!؟

شيعة أهل البيت قالوا بالحرف الواضح: إنَّ هؤلاء كانوا علىٰ خطأ، وبعضهم تحدَّث عنهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ﴾ (التوبة: ١٠١)، فكيف نفترض أنَّ هؤلاء الذين وصفهم القرآن بالقول ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ﴾ هؤلاء هم الذين يُقيِّمون النبيَّ الأكرم ﷺ ؟ إنَّ ذلك من غرائب الأُمور.

ولو مضينا مع الفكر الحداثي في اعتماد مواقف هؤلاء الصحابة ومخالفتهم للنبيِّ ﷺ، إذن فكيف نُفسِّر مخالفتهم للنصِّ القرآني أيضاً، فهم لم يخالفوا رسول الله فقط، بل خالفوا القرآن الكريم، فهل نُقدِّم فهمهم علىٰ القرآن الكريم؟

وبالفعل هنا يذكر التاريخ - وهو ما يستشهد به الحداثيون أيضاً - العديد من الموارد التي خالف فيها هؤلاء الأشخاص القرآن الكريم.

وهنا يذكر نصر حامد أبو زيد نماذج لذلك مثل: (عدم انصياع عمر بن الخطّاب لبعض أوامر القرآن الكريم وممارسات النبيِّ في إعطاء المؤلَّفة قلوبهم نصيبهم من الزكاة والمنصوص عليها في القرآن نصّاً لا يحتمل التأويل...، واجتهاده رضي الله عنه في عدم إقامة حدِّ السرقة عام الرمادة المنصوص عليه في القرآن كذلك نصّاً لا يحتمل التأويل)[1].

---

(١) الإمام الشافعي/ نصر حامد أبو زيد: ٣٠.

وحينما يخالفون القرآن الكريم ماذا علينا أن نقول؟ هل لنا أن نقول: إنَّ القرآن الكريم ليس بحجَّة وإنَّ النصَّ القرآني غير مقدَّس؟ أم نقول: إنَّ هؤلاء هم الذين عصوا الله وعصوا رسوله وخالفوا الكتاب الكريم؟

أهل البيت عليهم السلام هكذا كانوا يُقيِّمون الواقع التاريخي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهنا كان إمامنا الحسين عليه السلام يقول: «أمَّا السُّنَّة فقد أُميتت، وأمَّا البدعة فقد أُحييت»[١].

أهل البيت عليهم السلام يعتقدون أنَّ تلك مخالفات صريحة لكتاب الله وضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا يمكن أن نقبل لأُولئك الصحابة تلك المواقف، ولا يمكن أن تدعونا للتشكيك بسُنَّة النبيِّ صلى الله عليه وآله، ولو جعلناهم مقياساً لتقييم سُنَّة النبيِّ صلى الله عليه وآله إذن ماذا نقول حينما خالفوا القرآن الكريم؟ فهل يجرأ أحد للقول: إنَّ القرآن الكريم مفتوح لكلِّ الفهوم ولكلِّ أنماط التعامل حتَّىٰ إلىٰ مستوىٰ التشكيك به والردّ عليه؟ نعوذ بالله من ذلك.

الصحابة في نظرية أهل البيت عليهم السلام:

نخلص من هذا إلىٰ أنَّ اعتراضات بعض الصحابة وفي حالات نادرة طبعاً لا يمكن أن تكون شاهداً إلَّا علىٰ مستوىٰ إيمان أُولئك الصحابة وطريقة فهمهم وتعاملهم الخاطئة مع النبيِّ صلى الله عليه وآله، فيما كان الآخرون ﴿يُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة: ٧١)، و﴿يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٦٥.

عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ (الحجرات: ٣)، ويقولون: ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة: ٢٨٥)، و﴿يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (النساء: ١٦٢)، كما وصفهم القرآن الكريم، وقال عنهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾ (الفتح: ٢٩).

هؤلاء الصحابة الخلَّص هم الذين يذكرهم الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام بدعائه قائلاً:

«اللَّهُمَّ وأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحَابَةَ والَّذِينَ أَبْلَوُا الْبَلَاءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرِه، وكَانَفُوه، وأَسْرَعُوا إِلَىٰ وِفَادَتِه، وسَابَقُوا إِلَىٰ دَعْوَتِه، واسْتَجَابُوا لَه حَيْثُ أَسْمَعَهُمْ حُجَّةَ رِسَالاتِه، وفَارَقُوا الأَزْوَاجَ والأَوْلَادَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَتِه، وقَاتَلُوا الآبَاءَ والأَبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّتِه، وانْتَصَرُوا بِه، ومَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِه يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِه، والَّذِينَ هَجَرَتْهُمُ الْعَشَائِرُ إِذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِه، وانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَاتُ إِذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِه، فَلَا تَنْسَ لَهُمُ اللَّهُمَّ مَا تَرَكُوا لَكَ وفِيكَ، وأَرْضِهِمْ مِنْ رِضْوَانِكَ»[1].

هؤلاء الصحابة هم الذين يُمثِّلون الموقف الصحيح والشرعي من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهؤلاء كانوا يتلقّون سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله بالسمع والطاعة المطلقة باعتبارها أمراً من الله تعالىٰ، ويقولون: ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة: ٢٨٥).

إذن فالصحابة في نظرية أهل البيت عليهم السلام ينقسمون إلىٰ قسمين:

القسم الأوَّل: الذين وفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله عهودهم، وصدَّقوا

(١) الصحيفة السجّادية/ دعاء رقم ٤.

بيعتهم، والذين قال عنهم الله تعالىٰ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (المجادلة: ٢٢).

القسم الثاني: الذين نكثوا العهد، وخالفوا سُنَّة رسول الله ﷺ، وخرجوا علىٰ وصيَّته، وآذوه في حياته وبعد مماته، وهم الذين قال عنهم الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴿١٠﴾﴾ (الفتح: ١٠).

ولا ينظر أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلىٰ هذا القسم الثاني نظرة إيجابية، بل لا يمكن الاعتماد علىٰ سلوكهم وأخبارهم.

ما هي التاريخانية؟

الشبهة الثانية:

شبهة التاريخانية تعني أنَّ النبيَّ الأكرم ﷺ لا يستطيع أن يعبر حدود الزمان والمكان، حيث يؤكِّد العلم أنَّ الإنسان مهما كان فهو ابن محيطه وابن ثقافته، ومعنىٰ ذلك أنَّ السُّنَّة النبويَّة غير قادرة علىٰ عبور إطار المكان والزمان، بل هي مختصَّة بأهل زمانه ومكانه، وهذا يعني بالنتيجة أنَّنا اليوم وبعد أربعة عشر قرناً مضت علىٰ البعثة النبويَّة لا يجب علينا أن نتأسّىٰ بالرسول ﷺ فيما قال أو فعل.

هذه هي التاريخانية كما يصطلحون عليها.

يقول د. سروش: (إنَّ جميع الأحكام الفقهية مؤقَّتة مرتبطة بمجتمع الرسول ﷺ والمجتمعات الشبيهة له، إلَّا أن يثبت خلافه بأن يوجد دليل قطعي يقيني بأنَّها شُرِّعت بصورة دائمة لا لشؤون خاصَّة)[1].

---

(١) مجلَّة آفتاب/ العدد ١٥/ ص ٦٩، نقلاً عن الحداثة والفكر الإسلامي: ١٣٩.

ويقـول أيضـاً: (كـان اهـتمام رسـول الله ﷺ في التشـريع أن يتجـاوز بأحكـام وقـوانين مجتمعـه مـن جـور زمانـه إلىٰ عـدل زمانـه لا إلىٰ العـدل في كلِّ زمان)[1].

هذه هي شبهة التاريخانية، ونحن نعتقد أنَّها فكرة خاطئة، وتقف بالضـدِّ من عالمية الرسالة الإسلاميَّة، وعالمية البعثة النبويَّة لنبيِّنا الأكرم ﷺ.

الارتباط بالله يحلُّ المشكلة:

جواب الشبهة الثانية:

والجواب عـلىٰ مـا قـالوا: أنَّ هـذا الكـلام يمكـن أن يكـون مقبـولاً إذا تجاوزنـا موضـوعة الـوحي والارتبـاط بـالمطلق اللامتنـاهي وهـو الله تبـارك وتعـالىٰ، أمَّـا حيـنما يـرتبط الإنسـان بـالمطلق المهـيمن عـلىٰ كـلِّ الوجـود والمحـيط بالسـماوات والأرض، والـذي لا يعـزب عنـه مثقـال ذرَّة في السماوات والأرض، فإنَّ علينـا حينئـذٍ أن نقبـل فرضـية عبـور هـذا الإنسـان المرتبط بالمطلق لحـدود الزمـان والمكـان، فيكـون هـو الآخـر قـادراً في ثقافتـه ورؤيته وتشريعه علىٰ أن يتجـاوز المكـان والزمـان حيـنما يكـون الله تعـالىٰ هـو الذي يُعلِّمه ويُسدِّده.

كـما قـال تعـالىٰ في قصَّـة يوسـف عليه السلام: ﴿وَكَـذلِكَ يَجْتَبِيـكَ رَبُّـكَ وَيُعَلِّمُـكَ مِـنْ تَأْوِيـلِ الْأَحادِيـثِ﴾ (يوسـف: ٦)، وكـما قـال تعـالىٰ في قصَّـة الخضر: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف: ٦٥).

فحيـنما يكـون التعلـيم إلهيـاً تنتهـي المشـكلة، وتـذوب كـلُّ الصعوبات، وتُغلَق صفحة المجهول.

---

(١) مجلَّة آفتاب/ العدد ١٥/ ص ٧٢، نقلاً عن الحداثة والفكر الإسلامي: ١٣٩.

إنَّ الله تبارك وتعالىٰ أوحىٰ إلىٰ نبيِّه ﷺ أمرين: أحدهما الكتاب والثاني الحكمة، لاحظ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (البقرة: ٢٣١)، لاحظ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء: ٥٤)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء: ١١٣).

ولا نريد أن نذهب هنا إلىٰ ما ذهب إليه الإمام الشافعي من أنَّ المقصود بالحكمة هو (السُّنَّة)، وقد سبق بيان رأي المفسِّرين الشيعة في ذلك[1]، إلَّا أنَّ هذه الآيات تبقىٰ شاهدة - في ضوء كلِّ التفاسير - علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ يرتبط في علمه ورؤاه ومواقفه بالوحي الإلهي الذي لا يختصُّ بالقرآن وحده، بل يشمل (الحكمة)، وحينما يكون النبيُّ ﷺ مرتبطاً في مجمل حركته وعلومه بالمطلق اللامتناهي عالم الغيب والشهادة فسوف لا يمتنع عليه تجاوز حدود الزمان والمكان في تشريعاته وقراراته.

وحينما نفهم كيف يكون النبيُّ ﷺ قادراً علىٰ إحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وكيف يكون قادراً علىٰ تسخير الجبال والرياح، وكيف يكون قادراً علىٰ معرفة منطق الطير.

حينما يكون كلُّ ذلك بإذن الله وقدرته لا تبقىٰ هناك معضلة في أنَّ تتجاوز سُنَّة النبيِّ ﷺ حدود زمانه ومكانه، لأنَّ الله تعالىٰ هو القادر علىٰ كلِّ شيء، وهو العليم بكلِّ شيء.

الحقيقة أنَّ هذه الشبهة مرتبطة بمدىٰ فهمنا لمعنىٰ النبوَّة، فإذا عرفنا أنَّ النبوَّة تعني الارتباط بالله، وهو المطلق المتعالي علىٰ الزمان والمكان، وكانت النبوَّة

(١) في جواب الشبهة الثانية: (تاريخانية السُّنَّة النبويَّة) من هذا الكتاب.

تعني التلقّي من عند المطلق العالم والمحيط بكلِّ شيء، إذا كان ذلك هو معنىٰ النبوَّة فمن السهل أن نتصوَّر النبيَّ ﷺ قادراً علىٰ أن يكسر حدود الزمان والمكان، وهذا هو ما نعتقده في رسول الله ﷺ، ولذا فمهما كان النبيُّ الأكرم ﷺ هو ابن محيطه ولكنَّه قادر علىٰ تجاوز ذلك المحيط، لأنَّه مؤيَّد بروح القدس من الله تبارك وتعالىٰ، كما قال تعالىٰ في شأن عيسىٰ بن مريم عليه السلام: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧).

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ رسول الله ﷺ كان مسدَّداً وموفَّقاً مؤيَّداً بروح القدس، لا يزل ولا يخطئ في شيء ممَّا يسوس به الخلق»[1].

والحقيقة أنَّ شبهة التاريخانية لم تقف عند حدود السُّنَّة النبويَّة، بل تجاوزتها إلىٰ القرآن الكريم وإلىٰ مجمل التشريعات الإسلاميَّة.

وهو ما يؤكِّده خليل عبد الكريم في كتابه (الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميَّة)، حيث يرىٰ أنَّ الشريعة الإسلاميَّة خاضعة ومتأثِّرة بالأعراف والتقاليد العربية يومئذٍ، ويسرد العشرات من الأمثلة والتي يريد أن يقول فيها: إنَّ الشريعة الإسلاميَّة هي إقرار لشريعة العرب يومئذٍ، إذن فهي بنت بيئتها وليست هي مطلقة. ويمضي خليل عبد الكريم في هذا المنظور من السُّنَّة النبويَّة إلىٰ القرآن الكريم نفسه، فيتحوَّل القرآن إلىٰ ابن بيئته ومحيطه، فيراه غير قادر علىٰ عبور الزمان والمكان، ومعنىٰ هذا أنَّ المشكلة سوف تكون أعمق، فسيكون القرآن متَّهم والسُّنَّة النبويَّة متَّهمة في ضيق نظرتها وانطلاقها من ثقافة غابرة لمجتمعات جاهلية.

---

(١) أُصول الكافي ١: باب التفويض إلىٰ رسول الله ﷺ/ حديث ٤.

يقول خليل عبد الكريم: (الكثير من القرّاء قد يدهش عندما يعرف أنَّ الإسلام قد أخذ من الجاهلية كثيراً من الشؤون الدينية أو التعبّدية)(١).

نعم إذا كانت البيئة الجاهلية هي مصدر المعلومة والتشريع عند رسول الله ﷺ، فسوف نواجه مشكلة (التاريخانية) كما يقولون، ولكن حينما نعرف أنَّ القرآن الكريم هو ﴿تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤)، سوف لا يبقىٰ مجال لهذه الشبهة.

وكذا حينما نعرف أنَّ رسول الله ﷺ مسدَّد بروح القدس ومفتوح علىٰ عالم السماء والغيب، فسوف لا يتعذَّر عليه أن يتجاوز حدود زمانه ومكانه وثقافة بيئته، فحينما يكون الإنسان بمستوىٰ المؤيَّد والمعلَّم من قِبَل الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ في قصَّة الخضر: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ۝﴾ (الكهف: ٦٥)، إذن لا نجد حراجة في تعميم سُنَّة رسول الله ﷺ - وهو أفضل من الخضر وأفضل من جميع الأنبياء -، لمختلف الشعوب ومختلف الأزمنة والأمكنة وحسب ما تقتضيه دلالة النصِّ.

والنتيجة هي أنَّ التشكيك في سعة السُّنَّة النبويَّة لكلِّ زمان ومكان هو تشكيك في أصل النبوَّة، ذلك أنَّ الإيمان بالنبوَّة والوحي يساوي قبول التعميم والإطلاق للسُّنَّة النبويَّة كما القرآن الكريم لكلِّ زمان ومكان، وبحسب ما يستفاد من منطوق النصِّ طبعاً وليس بنحو مطلق، فنحن نقبل أن تكون بعض نصوص السُّنَّة خاصَّة بظرفها ومورد نزولها،

(١) الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميَّة/ خليل عبد الكريم: ١٤.

ولكن ما يقوله الحداثيون هو اعتبار السُّنَّة النبويَّة هي بالأصل غير قادرة علىٰ استيعاب الزمان والمكان وحتَّىٰ لو أراد النبيُّ ﷺ ذلك، لأنَّ ثقافة النبيِّ ﷺ ثقافة محدودة وليست مطلقة.

بشرية النبيّ ﷺ:

الشبهة الثالثة:

هذه الشبهة التي تقول: إنَّ البعد البشري للنبيِّ ﷺ يقتضي طبيعياً تعرّض النبيِّ ﷺ للصواب والخطأ كما يعرضه الجوع والعطش والغضب والحب والانفعال والمرض والموت وما شاكل ذلك، كما أنَّ البعد البشري يفترض أن يتأثَّر النبيُّ ﷺ بالأجواء الثقافية المحيطة به.

وذلك ينتج عنه عدم إمكانية الاعتماد المطلق علىٰ السُّنَّة النبويَّة، وهذا يعني عدم حجّيتها.

جواب الشبهة الثالثة:

والجواب علىٰ هذه الشبهة أنَّنا يجب أن نُميِّز بين قضيَّتين:

الأُولىٰ هي بشرية النبيِّ ﷺ.

والثانية هي نبوَّة النبيِّ ﷺ.

والقضيَّة الأُولىٰ التي يؤكِّدها القرآن الكريم في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الكهف: ١١٠)، وتؤكِّدها عشرات الأحاديث النبويَّة، هي قضيَّة صحيحة يجب الاعتراف بها، وهي تقتضي كما أُشير إلىٰ ذلك أنَّ الطبيعة البشرية سوف تفرض علىٰ النبيِّ ﷺ استحقاقات معيَّنة، ولكن حين ننظر إلىٰ القضيَّة الثانية، وهي نبوَّة النبيِّ ﷺ والمفترض أنَّنا نعترف بها ونُصدِّقها جميعاً، هذه القضيَّة تفترض هي الأُخرىٰ استحقاقات أساسية، وأهمّها الصدق المطلق والصوابية المطلقة

في تبليغ رسالات الله تعالىٰ، وهو ما يُسمّىٰ العصمة عن الخطأ والنسيان في تبليغ رسالات الله تعالىٰ.

هذه الاستحقاقات التي يتحدَّث عنها القرآن الكريم في عموم الأنبياء وخصوص نبيِّنا ﷺ، وهي تتلخَّص تحت عنوان (التسديد الإلهي).

وهنا نستطيع أن نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴿٢٨﴾﴾ (الجنّ: ٢٦ - ٢٨).

وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورىٰ: ٥٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١).

وقوله تعالىٰ: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة: ١٦ و١٧).

هذه النصوص القرآنية - وإلىٰ جانبها عشرات النصوص النبويَّة والتي تحدَّثنا عنها في فصل سابق لدىٰ البحث عن عصمة النبيِّ ﷺ -، إنَّ جميع هذه النصوص تؤكِّد أنَّ النبوَّة تفترض تدخّل العنصر الغيبي

واليد الإلهية في عصمة النبيِّ ﷺ وتفوّقه علىٰ جوانب الضعف البشري وبخاصَّة في تبليغ رسالات الله تبارك وتعالىٰ، ومعها لا يبقىٰ مجال للخطأ والنسيان والتأثّر بالأعراف والتقاليد، كيف وقد بُعِثَ النبيُّ ﷺ ليُخرِج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وليكون سراجاً منيراً كما في قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝٤٥ وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً ۝٤٦﴾ (الأحزاب: ٤٥ و٤٦).

إذن نحن أمام استحقاقين: الأوَّل هو استحقاق بشرية النبيِّ ﷺ، والثاني هو استحقاق نبوَّة النبيِّ ﷺ، و الاستحقاق الثاني يفترض تجاوز البعد البشري للدخول تحت مظلَّة التسديد الإلهي والعناية الإلهية، والتي يتحدَّث عنها القرآن الكريم في أكثر من مرَّة مع الأنبياء عليهم السلام بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ (يوسف: ٦)، وقوله: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ۝٦٥﴾ (الكهف: ٦٥)، وقوله: ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۝٧٤﴾ (الإسراء: ٧٤).

وينتج من مجموع هذه الاستحقاقات أنَّنا نُصدِّق ببشرية النبيِّ ﷺ واستحقاقاتها، لكن بمقدار ما لا يتنافىٰ مع النبوَّة، فالمرض والموت والغلبة والضعف والجوع والعطش والفرح والحزن هي من استحقاقات العنصر البشري في النبيِّ ﷺ، ولا نريد أن نُلغيها، ولكن الخطأ والنسيان والمعصية والظلم وأداء الأعمال المنكرة والقبيحة هذا ممَّا لا يصدر عن النبيِّ ﷺ، ولأنَّنا مكلَّفون بإطاعة النبيِّ ﷺ واتِّخاذه أُسوة كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، فذلك يعني أنَّ جميع ما يصدر عن النبيِّ ﷺ في الشأن التشريعي هو أمر صحيح ودقيق وليس انفعالاً نفسياً أو تأثّراً بتقاليد عربية بعيداً عن الوحي الإلهي.

وسيأتي مزيد من بحث الموضوع لدىٰ الحديث عن أقسام السُّنَّة النبويَّة، فإنَّ ما يهمّنا في حجّية السُّنَّة النبويَّة هو (القسم التشريعي) منها، فهو ما نتحدَّث عن حجّيته، وأمَّا القسم الشخصي والذاتي منها الذي لم يكن النبيُّ ﷺ فيه قاصداً للتشريع فإنَّه خارج عن بحثنا، وهناك يمكن للبعد البشري أن يعمل عمله إذا لم تقف اليد الإلهية في تسديد النبيِّ ﷺ واطِّلاعه علىٰ الموقف الصحيح بالكامل.

وخلاصة القول: إنَّنا نتحدَّث عن شخص نؤمن بنبوَّته ورسوليته من عند الله تبارك وتعالىٰ، وهو الأمر الذي يضفي علىٰ النبيِّ ﷺ بعداً آخر إلىٰ جانب البعد البشري.

ويبدو أنَّ الحداثة والحداثيين قد نسوا أو تناسوا استحقاقات هذا الموضوع، وكأنَّهم يتعاملون مع إنسان عادي لا يستطيع تجاوز حدود البشرية، ولو كان الأمر كذلك إذن سوف لا نستطيع أن نُفسِّر ظاهرة الإسراء، أو ظاهرة المعراج، أو ظاهرة الالتقاء مع الملك وتلقّي الوحي، أو ظاهرة اطِّلاع الله نبيَّه مباشرةً علىٰ كثير من الحقائق والمعلومات، فكلُّ هذه تختزن معها قضيَّة أُخرىٰ غير البعد البشري، وهي قضيَّة الإسناد الإلهي والتعليم الإلهي، ومعه لا يبقىٰ مجال للتشكيك في صوابيه السُّنَّة النبويَّة.

وأمَّا الأحاديث التي أُشير إليها، والتي تتحدَّث عن بشرية النبيِّ ﷺ، فهي أحاديث صحيحة في بعضها، ولكن يد التحريف عملت في بعضها الآخر، تلك التي تنسب للنبيِّ ﷺ صدور المعاصي أو الأعمال القبيحة كالسبِّ والشتم واللعن بغير حقٍّ، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يصدر منه كلّ ذاك ممَّا يتنافىٰ مع رسوليته ونبوَّته، اُنظر تفصيل ذلك في ما

تقـدَّم في مناقشـة هـذه الأحاديـث لـدىٰ بحثنـا عـن عصـمة النبـيِّ ﷺ في فصل سابق.

تشريع الأذان:

وأمَّـا قصَّـة مشـورة النبـيِّ ﷺ لأصـحابه في الأذان، فهـي قصَّـة موضوعة بلا شكٍّ، فالراوي لها هـو محمّـد بـن خالـد بـن عبـد الله الواسـطي، وهو رجل سوء، وضعيف، وكذّاب، كما قال عنه علماء الحديث[1].

ومن أجـل ذلـك وجـدنا صـحيح البخـاري وصـحيح مسـلم يهمـلان هذه الرواية في قصَّة الأذان ولم يُخرِّجاها.

بـل إنَّ الثابـت مـن روايـات أهـل البيـت عليهم السلام هـو أنَّ تشـريع الأذان ونصوصه كان قد هبط به جبرائيل علىٰ رسول الله ﷺ.

الروايات الصحيحة في تشريع الأذان:

١ - عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام، قال: «لـمَّا هبط جبرائيل علىٰ رسول الله بالأذان أذَّن جبرئيل وأقام، وعندها أمر رسول الله ﷺ عليّـاً أن يدعو له بلالاً، فدعاه، فعلَّمه رسول الله الأذان، وأمره به»[2].

٢ - وروي أنَّ الصـادق - الإمـام جعفـر بـن محمّـد البـاقر - عليه السلام ذمَّ قومـاً زعمـوا أنَّ النبـيَّ ﷺ أخـذ الأذان عـن عبـد الله بـن زيـد الأنصـاري، فقال: «ينـزل الـوحي بـه عـلىٰ نبـيِّكم فتزعمـون أنَّـه أخـذه عـن عبـد الله بـن زيد!».

---

(١) أُنظـر ذلـك مفصَّـلاً في كتـاب (الـنصّ والاجتهـاد) للعلَّامـة السـيِّد عبـد الحسـين شرف الدين، في المورد ٢٣، حيث أجاب عن هذا الموضوع إجابةً واسعةً وعميقةً.

(٢) وهذا ما رواه كلٌّ مـن ثقـة الإسـلام محمّـد بـن يعقـوب الكلينـي، والصـدوق محمّـد بـن عـليّ بن بابويه القمّي، وشيخ الإماميَّة محمّد بن الحسن الطوسي.

٣ - وعن أبي العلاء - كما في السيرة الحلبية -، قال: قلت لمحمّد بن الحنفية: إنّا لنتحدَّث أنَّ بدء الأذان كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار في منامه، قال: ففزع من ذلك محمّد بن الحنفية فزعاً شديداً، وقال: عمدتم إلىٰ ما هو الأصل في شرائع الإسلام ومعالم دينكم فزعمتم أنَّه كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار في منامه تحتمل الصدق والكذب وقد تكون أضغاث أحلام. قال: فقلت له: هذا الحديث قد استفاض في الناس. قال: هذا والله هو الباطل.

٤ - وعن سفيان بن الليل، قال: لـمَّا كان من الحسن بن عليّ ما كان قدمت عليه المدينة، قال: فتذاكروا عنده الأذان، فقال بعضنا: إنَّما كان بدء الأذان برؤيا عبد الله بن زيد، فقال له الحسن بن عليّ: «إنَّ شأن الأذان أعظم من ذلك، أذَّن جبرائيل في السماء مثنىٰ مثنىٰ، وعلَّمه رسول الله، وأقام مرَّة مرَّة، فعلَّمه رسول الله...» الحديث.

٥ - وعن هارون بن سعد، عن الشهيد زيد بن الإمام عليّ بن الحسين، عن آبائه، عن عليّ: أنَّ رسول الله ﷺ علَّم الأذان ليلة أُسري به، وفُرِضَت عليه الصلاة[1].

تأخّر التدوين:

الشبهة الرابعة:

بقيت مسألة تدوين السُّنَّة النبويَّة وتأخّرها قرابة قرن من الزمن، وذلك بمنع السلطات الحاكمة حتَّىٰ جاء عمر بن عبد العزيز فأجاز للمحدِّثين أن يُدوِّنوا السُّنَّة النبويَّة، وذلك في عام (٩٩) للهجرة، إذن

---

(١) يُنظَر: النصّ والاجتهاد للعلَّامة السيِّد عبد الحسين شرف الدين: ٢٠٥.

فالسُّنَّة النبويَّة لم توثَّق ولم تُدوَّن خلال قرن كامل من الزمان تقريباً، ثمّ دُوِّنت، وحينئذٍ هل يمكن الاطمئنان إلىٰ صحَّة هذه المدوَّنات؟

تصوَّروا أنَّ أقوالاً غابت عن الأذهان مائة سنة فما قيمة تدوينها علىٰ الذاكرة بعد مائة سنة؟ وكيف يمكن أن نحتجَّ بها؟ وكيف يمكن أن نعتبرها مصدراً تشريعياً؟

ثمّ جاءت هنا يد الوضع والكذب، والسلطات الحاكمة التي وظَّفت الأموال الهائلة للوضّاعين والكذّابين وبشكل ممنهج، فكيف يمكن الاطمئنان إلىٰ هذه السُّنَّة النبويَّة مع هذا الكمّ الهائل من الأحاديث المكذوبة؟

هذه هي الإثارة التي يثيرها الحداثيون.

جواب الشبهة الرابعة:

الحقيقة أنَّ المدرسة الفكرية التي اعتمدت عموم الصحابة واعتقدوا بعدالتهم واعتمدوا علىٰ عناصر مقرَّبة من السلطات الحاكمة كما اعتمدوا علىٰ أعداء أهل البيت عليهم السلام وذوي الاتّجاهات المنحرفة، هذه المدرسة عاجزة عن الجواب علىٰ هذه الشبهة والتخلّص منها، طالما هم مؤمنون بصحَّة جميع ما ورد عن الصحابة في كتب صحاحهم. ولكن مدرسة أهل البيت عليهم السلام هي القادرة وحدها علىٰ معالجة هذه المعضلة، وذلك من خلال ما يلي:

أوَّلاً: أنَّ أهل البيت عليهم السلام تحدّوا السلطات الحاكمة يومئذٍ، وبدأوا بنشر أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وتدوين السُّنَّة، ولم يخضعوا لقرار السلطة، ونستطيع أن نستذكر هنا قصَّة ابن عبّاس في المدينة المنوَّرة حين

منعه معاوية من رواية الحديث، فقال: (أتنهانا عن تفسير القرآن؟)(١)، ونعرف قبل ذلك أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان قد دوَّن أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وآله فيما يُسمّىٰ بـ(الجامعة)(٢)، وهكذا أصرَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام علىٰ تدوين السُّنَّة النبويَّة ولم يخضعوا لقرار السلطة.

ثانياً: نحن نعتقد - كما سيأتي شرح ذلك في الفصل الثالث القادم - أنَّ الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام يتوارثون العلم توارثاً، فسواء كانت السُّنَّة النبويَّة قد دُوِّنت أم لم تُدوَّن فإنَّ الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام الذين استمرَّت إمامتهم إلىٰ عام (٢٦٠) للهجرة يتوارثون العلم، ﴿ذُرِّيَّةً

---

(١) ثمّ إنَّ معاوية مرَّ بحلقة من قريش، فلمَّا رأوه قاموا غير عبد الله بن عبّاس، فقال له: يا بن عبّاس، ما منعك من القيام كما قام أصحابك، إلَّا لموجدة أنّي قاتلتكم بصفّين، فلا تجد من ذلك يا بن عبّاس، فإنَّ ابن عمّي عثمان قد قُتِلَ مظلوماً! قال ابن عبّاس: فعمر بن الخطّاب قد قُتِلَ مظلوماً. قال: إنَّ عمر قتله كافر. قال ابن عبّاس: فمن قتل عثمان؟ قال: قتله المسلمون. قال: فذلك أدحض لحجَّتك. قال: فإنّا قد كتبنا في الآفاق ننهىٰ عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته، فكفّ لسانك. فقال: يا معاوية، أتنهانا عن قراءة القرآن؟! قال: لا. قال: أتنهانا عن تأويله؟! قال: نعم. قال: فنقرأه ولا نسأل عمَّا عنىٰ الله به؟ ثمّ قال: فأيّهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟ قال: العمل به. قال: فكيف نعمل به ولا نعلم ما عنىٰ الله؟! قال: سَلْ عن ذلك من يتأوَّله غير ما تتأوَّله أنت وأهل بيتك. قال: إنَّما أُنزل القرآن علىٰ أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان؟ يا معاوية، أتنهانا أن نعبد الله بالقرآن بما فيه من حلال وحرام؟! فإن لم تسأل الأُمَّة عن ذلك حتَّىٰ تعلم تهلك وتختلف. قال: اقرؤا القرآن وتأوَّلوه ولا ترووا شيئاً ممَّا أنزل الله فيكم، وارووا ما سوىٰ ذلك. (الاحتجاج/ الطبرسي ٢: ١٨). (المحقِّق).

(٢) حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ عندنا الجامعة...، صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأملاه من فلق فيه وخطّ عليّ عليه السلام بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام وكلّ شيء يحتاج إليه الناس». (أُنظر: أُصول الكافي ١: ٢٣٩/ ح ١، ولمزيد من الاطِّلاع أُنظر الجزء الأوَّل من مقدَّمة مرآة العقول للعلَّامة العسكري).

بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ٣٤). أهل البيت عليهم السلام كانوا ينقلون بعلمهم اللدنّي جميع السُّنَّة النبويَّة، فكلُّ ما تحدَّثوا به فإنَّما هو عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا يحتاجون في ذلك إلىٰ سند.

ومن المفيد أن نقرأ هذه الرواية التاريخية التي يرويها سالم بن أبي حفصة، قال: لـمَّا توفّي الإمام محمّد الباقر عليه السلام دخلت علىٰ ابنه جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، قلت: ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يُسئَل عمَّن بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله، لا والله لا يُرىٰ مثله أبداً. قال سالم: فسكت الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ساعة، ثمّ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: إنَّ من يتصدَّق بشقّ تمرة فأُربيها له كما يربىٰ أحدكم فلوه حتَّىٰ أجعلها له مثل أُحُد»، يقول سالم: فخرجت إلىٰ أصحابي فقلت: ما رأيت أعجب من هذا، كنّا نستعظم قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله» بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «قال الله عزَّ وجلَّ» بلا واسطة[1].

الفكرة التي نريد تأكيدها هي أنَّه مع وجود النافذة الغيبية لأهل البيت عليهم السلام في تحصيل المعلومة الدينية لم نعد نواجه مشكلة في قصَّة المنع من التدوين، لأنَّ الأئمَّة عليهم السلام لا يحتاجون إلىٰ تدوين.

ثالثاً: كما أنَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام يتشدَّدون في تمحيص الأحاديث المرويَّة، وما تزال رؤية مدرسة الشيعة أنَّه لا توجد لدينا صحاح كاملة، إنَّما لدينا موسوعات حديثية تخضع للتنقيح والنقد بشكل مستمرّ، وهذا ما يقوم به علماء الشيعة المجتهدون، بخلاف مدرسة أهل السُّنَّة التي اعتبرت موسوعاتها الحديثية صحاحاً لا تقبل المناقشة!

---

(١) بحار الأنوار ٤٧: ٢٧. وللمزيد يمكن مراجعة كتاب أُصول الكافي/ ج ١/ باب الأئمَّة يتوارثون العلم.

ولنقرأ هنا بعض المقاسات التي وضعها أهل البيت عليهم السلام للتعامل مع الأحاديث المرويَّة.

مقاييس الصحَّة في المدوَّنات الحديثية:

المقياس الأوَّل: هو عدم معارضتها للقرآن الكريم، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «اعرضوا ما ورد عنّا علىٰ كتاب الله، فما وافق فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[1]، وجاء التشديد من قِبَل أهل البيت عليهم السلام علىٰ اعتبار القرآن الكريم هو المقياس الأوَّل للتأكّد من صحَّة ما ورد عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أو عدم صحَّته.

المقياس الثاني: هو وثاقة الراوي، فكلُّ راوٍ لم تثبت وثاقته فإنَّ روايته غير مقبولة. وهنا أيضاً يتشدَّد شيعة أهل البيت عليهم السلام في هذا الشرط، وبطبيعة الحال فهم يستدلّون علىٰ هذا الشرط بأدلَّة عديدة نحيل القارئ فيها إلىٰ المصادر المختصَّة بهذا البحث.

المقياس الثالث: هو صحَّة المتن بمعنىٰ صحَّة المضمون الذي نطقت به تلك الأحاديث، فقد تكون السلسلة السندية صحيحة ولكن المتن غير مقبول لأنَّه معارض للعقل، فتكون تلك الرواية ساقطة سقوطاً متنياً وليس سقوطاً سندياً، فالرواية التي تتحدَّث مثلاً عن التجسيم وأنَّ الله تعالىٰ هو جسم، أو التي يأتي فيها الإشارة إلىٰ نسبة النقص أو العجز أو الجهل لله تبارك وتعالىٰ، فإنَّ هذه الروايات جميعاً مرفوضة، ليس علىٰ أساس عدم سلامة السند، وإنَّما علىٰ أساس عدم

---

(١) اُنظر أُصول الكافي/ الشيخ الكليني/ ج ١، وكذا وسائل الشيعة/ ج ١٨. واُنظر الكافي في أُصول الفقه/ السيِّد محمّد سعيد الحكيم ٢: ١٣٨/ المقام الثالث: في تحديد ما هو الحجَّة من أقسام الخبر.

سلامة المتن. وهكذا كلُّ متن روائي لا يتطابق مع البديهيات العقلية والدينية فهو مرفوض ولا يمكن العمل به ولا يتم الاستناد إليه، بمعنىٰ أنَّه سيبقىٰ متروكاً لا يصحُّ العمل به.

المقياس الرابع: هو عدم التعارض الداخلي، فإذا كانت الروايات يعارض بعضها بعضاً، فإنَّه لا يمكن العمل حينئذٍ بتلك الروايات المتعارضة، وقد وضع الشيعة بالخصوص ضوابط وقواعد لتقديم أحد الروايتين علىٰ الأُخرىٰ، فإذا لم يتوفَّر شيء من تلك الضوابط فإنَّ تلك الروايتين ستسقطان عن الاعتبار.

بهذه المقاسات سوف تنحلُّ معضلة الكذب والوضع علىٰ النبيِّ الأكرم ﷺ أو علىٰ أهل البيت عليهم السلام، ولم تعد هناك مشكلة تُهدِّد سلامة السُّنَّة النبويَّة وتضعها في دائرة الغموض.

الموسوعات الحديثية الكبرى:

وفي هذا الشأن نجد أنَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام تشدَّدوا كثيراً في اعتبار الوثاقة في الراوي، فهم لا يعتمدون علىٰ أيَّة موسوعة حديثية بالمطلق إلَّا بعد دراسة السند والمتن في كلِّ واحد واحد من أحاديث تلك الموسوعة، كما نلاحظ ذلك في كتب الموسوعات الحديثية الكبرىٰ لدىٰ الشيعة، والتي هي عبارة عن:

١ - (الكافي) للشيخ الكليني، المتوفّىٰ عام (٣٢٩هـ).

٢ - (من لا يحضره الفقيه) للشيخ الصدوق، المتوفّىٰ عام (٣٨١هـ).

٣ - (تهذيب الأحكام) للشيخ الطوسي، المتوفّىٰ عام (٤٦٠هـ).

٤ - (الاستبصار) للشيخ الطوسي أيضاً.

فيما يعتمد أهل السُّنَّة اعتماداً كاملاً علىٰ موسوعات حديثية أُخرىٰ هي عبارة عن:

١ - صحيح البخاري، المتوفّىٰ عام (٢٥٦هـ).

٢ - صحيح مسلم، المتوفّىٰ عام (٢٦١هـ).

٣ - صحيح الترمذي، المتوفّىٰ عام (٢٩٧هـ).

٤ - سنن أبي داود، المتوفّىٰ عام (٢٧٥هـ).

٥ - سنن ابن ماجة، المتوفّىٰ عام (٢٧٥هـ).

٦ - سنن النسائي، المتوفّىٰ عام (٣٠٣هـ).

هذه الصحاح الستّ هي التي يعتمدها أهل السُّنَّة بالمطلق، لكن الشيعة يتشدَّدون في قصَّة الوثاقة وسند الحديث، فهم لا يقبلون الموسوعات الحديثية بالجملة، وإنَّما يناقشون آحاد الأحاديث من خلال المتن مرَّة ومن خلال السند مرَّة أُخرىٰ.

سيرة العقلاء تعتمد على أخبار الثقاة:

ومع ذلك ستبقىٰ السُّنَّة في معظمها ليست يقينية الإثبات، بل هي ظنّية الصدور إلَّا أنَّ هذا الظنّ هو الذي اعتمدهُ الشارع المقدَّس باعتباره سلوكاً إنسانياً في الحياة الاجتماعية، فالسيرة العقلائية جارية علىٰ اتِّباع أخبار الآحاد الثقاة، ولا يوجد للعقلاء في عرفهم الاجتماعي طريقاً غير ذلك، وقد أيَّد الشارع المقدَّس هذه السيرة العقلائية، حينما قال: ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢).

تطوّر العقل البشري:

الشبهة الخامسة:

تقول هذه الشبهة: إنَّ العقل البشري من خلال قانون التطوّر العامّ قادر علىٰ اكتشاف حلول ومعالجات للمشاكل البشرية ربَّما تكون هي الأفضل ممَّا قدَّمه النبيُّ الأكرم ﷺ في زمانه.

الجواب علىٰ هذه الشبهة:

أنَّ السُّنَّة النبويَّة تُمثِّل - كما سبق أن شرحنا ذلك - تشريعاً إلهياً وتعليماً من عند الله تعالىٰ، وليست رؤية شخصيَّة للنبيِّ ﷺ ببعده البشري الزمكاني.

وحينما تكون السُّنَّة النبويَّة منطلقة من معرفة إلهية إذن هي الأكثر إحاطة بواقع البشر الفردي والاجتماعي، والأقدر علىٰ معالجة مشاكله علىٰ مدىٰ التاريخ، لأنَّ الله تعالىٰ: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ (الإسراء: ٥٤)، و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق: ١٦)، ومهما تطوَّر العقل وخاض تجارباً اجتماعية إلَّا أنَّه يبقىٰ دون مستوىٰ الإحاطة الكاملة بواقع النفس البشرية، وتبقىٰ التجارب تجارب ناقصة وغير مكتملة، ولا يمكن أن تصل لمستوىٰ الإحاطة الإلهية بالإنسان.

ومن ناحية ثالثة فإنَّ الله تعالىٰ لم يأذن لنا باعتماد اجتهاداتنا البشرية بدلاً من الشريعة الإلهية المتمثِّلة بالقرآن والسُّنَّة، بل إنَّ الله تعالىٰ فرض علينا شريعة ورسم لنا منهاجاً قائلاً: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (المائدة: ٤٧)، وأمرنا باتِّباع سُنَّة نبيِّه ﷺ قائلاً: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

نتيجة الفصل الثاني:

١ - أنَّ الرؤية الحداثية طرحت خمس شبهات علىٰ السُّنَّة النبويَّة، هي عبارة عن: كون السُّنَّة النبويَّة اجتهاداً شخصياً، والنبيُّ بشرٌ يخضع للخطأ والصواب ويتأثَّر بالمناخات الثقافية المحيطة به، وتدوين السُّنَّة خضع للمزيد من التلاعبات والدسّ والتحريف، كما أنَّ العقل البشري بفعل قانون التطوّر قادر علىٰ أن يكتشف ما هو أفضل من سُنَّة النبيِّ ﷺ.

٢ - تعرَّضت السُّنَّة النبويَّة إلىٰ شبهات قديمة في صدر الإسلام الأوَّل، وكان موقف الخلافة الراشدة هو المنع من تدوينها، واستمرَّ المنع إلىٰ نهاية القرن الأوَّل، الأمر الذي يزعزع الثقة بما بين أيدينا من الموسوعات الحديثية.

٣ - تمَّت الإجابة علىٰ هذه الشبهات واحدة واحدة، وتأكَّد أنَّ السُّنَّة النبويَّة هي قبس من التعليم الإلهي وليست اجتهاداً بشرياً، ولا متأثِّرة بالمناخات الثقافية المحيطة، كما أنَّ العقل مهما تطوَّر فإنَّه لا يمكن أن يتقدَّم علىٰ العلم النبوي المأخوذ من العلم الإلهي.

أمَّا تأخّر التدوين وتعرّض الحديث النبوي للدسِّ والتحريف فإنَّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم استطاعوا أن يحفظوا العناصر الأصلية في السُّنَّة النبويَّة، ويُقدِّموا لنا المقاسات لتمييز ما هو صحيح منها من غيره.

* * *

الفصل الثالث

سُنَّة أهل البيت عليهم السلام

المبحث الأوَّل: عقيدتنا في سُنَّة أهل البيت عليهم السلام.
المبحث الثاني: الإمامة الفكرية والسياسية لأهل البيت عليهم السلام.
المبحث الثالث: مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام.

البحث الأوَّل
عقيدتنا في سُنَّة أهل البيت عليهم السلام

نعتقد في سُنَّة أهل البيت عليهم السلام باعتقادات عدَّة:

الاعتقاد الأوَّل:

إنَّها امتداد لسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هي نفس سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس هي إضافة، ولا هي بديل، ولا هي رؤىٰ اجتهادية، إنَّما هي سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهنا نقرأ الحديث الصحيح الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله عزَّ وجلَّ»[1].

ومثل ذلك ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال في حديثه لجابر بن عبد الله الأنصاري: «يا جابر، إنّا لو كنّا نُحدِّثكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنَّا نُحدِّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وورقهم»[2].

---

(١) وسائل الشيعة ١٨: كتاب القضاء/ أبواب صفات القاضي/ الحديث ٢٦.

(٢) الاختصاص/ الشيخ المفيد: ٢٨٠.

ومثل ذلك أيضاً ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: إذا حدَّثتني بحديث فأسنده لي، فقال: «حدَّثني أبي، عن جدّي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عن جبرائيل عليه السلام، عن الله عزّ وجلّ. وكلُّ ما أُحدِّثك فهو بهذا الإسناد»، ثمّ قال عليه السلام: «يا جابر، لحديث واحد تأخذه عن صادق خير من الدنيا وما فيها»[1].

ومن هنا كان عبد الله بن شبرمة وهو أحد المعاصرين للإمام الصادق عليه السلام يقول: ما أذكر حديثاً سمعته من جعفر بن محمّد الصادق إلَّا كاد أن يتصدَّع قلبي، قال: «قال أبي، عن جدّي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله»، وقال ابن شبرمة: أُقسم بالله ما كذب أبوه علىٰ جدِّه، ولا كذب جدُّه علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وكان أحمد بن حنبل حينما ينقل حديثاً عن الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام يقول: هؤلاء الذين لا يُسئَلون عن إسناد[3].

ومن أجل ذلك كان يقول الهيثمي[4] في كتابه (مجمع الزوائد)،

(١) اُنظر: أمالي المفيد: ٤٢/ المجلس ٥/ ح ١٠.

(٢) المحاسن/ البرقي ١: ٢٠٦/ ح ٦١.

(٣) بحار الأنوار/ ج ٤٧/ تاريخ الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام.

(٤) أبو الحسن الهيثمي (٧٣٥ - ٨٠٧هـ)، هو الحافظ المصري القاهري أبو الحسن نور الدين عليّ بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. له كتب وتخاريج في الحديث كثيرة، منها: مجمع الزوائد ومنبع والفوائد في عشرة أجزاء، صحب الحافظ أبا الفضل العراقي منذ صغره ولازمه أشدّ ملازمة، فخدمه وانتفع به وصاهره علىٰ ابنته. رحل مع الشيخ زين الدين العراقي جميع رحلاته، وحجَّ معه جميع حجّاته، ولم يكن يفارقه حضراً ولا سفراً. وسمع معه غالب مسموعاته، وكتب الكثير من مصنَّفاته. وأشار عليه بجمع ما في مسند الإمام أحمد من الأحاديث الزائدة علىٰ الكتب الستَّة، فأعانه بكتبه، وأرشده إلىٰ التصرّف في ذلك، فلمّا فرغ من تسويده حرَّره له الشيخ، فسماه (غاية المقصد في زوائد أحمد). ⇦

وهو من علماء القرن السابع وأحد المحدِّثين الكبار، ولم يكن من أتباع أهل البيت عليهم السلام لكنَّه قال بعدما روىٰ حديثاً عن زينب بنت عليّ، عن فاطمة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

إنَّ زينب بنت عليّ لم تسمع من فاطمة فيما أعلم، والله أعلم، وعندي أنَّ آل بيت محمّد صلى الله عليه وآله المعروفين والمشهود لهم بالخيرية عندما يُحدِّثون فإنَّهم لا يُسئَلون عن إسناد، فكيف إذا حدَّثوا عن آبائهم وأجدادهم، وذلك بناءً علىٰ قاعدة: «لا تُعلِّموهم فإنَّهم أعلم منكم»(١).

الاعتقاد الثاني:

ونعتقد في ضوء ذلك أنَّ سُنَّة أهل البيت عليهم السلام حجَّة شرعية ومصدر للمعلومة الشرعية بعد القرآن الكريم طالما كانت هي امتداد لسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهي إذن حجَّة علينا، فقول الأئمَّة الأطهار عليهم السلام هو قول رسول الله صلى الله عليه وآله.

ودليلنا علىٰ هذا المعتقد هو نفس الدليل علىٰ حجّية السُّنَّة النبويَّة، لأنَّ حديثهم هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، كما أشارت إليه الروايات السابقة، وإذا كان حديثهم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله فإنَّنا لا نحتاج إلىٰ

⇦ ثمّ حبَّب إليه هذا التخريج فخرَّج (البحر الزخّار في زوائد البزّار)، و(المقصد الأعلىٰ في زوائد أبي يعلىٰ) الموصلي، و(مجمع البحرين في زوائد المعجمين)، و(البدر المنير في زوائد المعجم الكبير). ثمّ جمع الكلّ محذوفَ الإسناد مع الكلام عليها بالصحَّة والضعف في مؤلَّف واحد وسمّاه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)، وله أيضاً: (موارد الظمآن لزوائد ابن حبّان)، و(بغية الباحث عن زوائد الحارث). (السيرة النبويَّة عند الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ سليمان بن عبد الله السويكت/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوَّرة). (المحقِّق).

(١) اُنظر في هذا النصّ كتاب (لسان الحقّ وقول الحقّ) للشيخ عبد القادر ترنني: ٧٠٥.

دليل علىٰ حجّية ما صدر عنهم عليهم السلام، فإنَّهم لم يتحدَّثوا برأي اجتهادي شخصي، ولم يتحدَّثوا عن مسموعات سمعوها، وإنَّما تحدَّثوا بإسناد يصل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، كما جاء في الحديث السابق أنَّهم اكتنزوا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله، رغم أنَّهم لا يذكروا هذا الإسناد في مجمل أحاديثهم طلباً للاختصار.

والنتيجة فإنَّ جميع ما صدر عنهم نستطيع أن نسنده إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، فنقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله.

كما أنَّ القول بحجّية سُنَّتهم يعتمد علىٰ القول بعصمتهم عليهم السلام، ونحن نقول ونعتقد بعصمتهم، ودليلنا علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣).

الاعتقاد الثالث:

ونعتقد ثالثاً أنَّ سُنَّة أهل البيت عليهم السلام هي المصدر الصحيح والوحيد لمعرفة السُّنَّة النبويَّة ومعرفة تفسير القرآن الكريم، فكلَّما صدر عنهم هو وحده التعبير الصحيح والشامل عن المعاني القرآنية وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكلَّما لم يصدر عنهم وإنَّما صدر عن غيرهم دون أن يحظىٰ بتأييد منهم عليهم السلام فإنَّه لا يمكن الاعتماد المطلق عليه، حيث القرآن الكريم تعرَّض إلىٰ ناسخ ومنسوخ، وفيه محكم ومتشابه، وفيه عامّ وخاصّ، ومطلق ومقيَّد، ولا يعرف ذلك كلّه إلَّا الراسخون في العلم، وهم أهل البيت عليهم السلام. كما تعرَّضت سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ مشاكل في الكذب والافتراء والتحريف وأحياناً الضياع بسبب عدم ضبط الصحابة لها بشكل دقيق، فربَّما حفظوا بعضاً وغفلوا عن البعض الآخر

الـذي يُكمِّـل الرؤيـة الصـحيحة. ومـن هنـا فـإنَّ جميـع مـا يصـلنا مـن الصحابة عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله يجب أن يُعـرَض علىٰ أهـل البيـت عليهم السلام، فـما صدَّقوه فهو صحيح، وما لم يُصدِّقوه فنحن نتوقَّف عنه.

ودليلنـا عـلىٰ هـذا الاعتقـاد مـا ورد عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله كـما في الحديث الصحيح: «لا تُعلِّموهم فإنَّهم أعلم منكم».

ونصُّ الحديث كالتالي:

قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أراد أن يحيىٰ حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل جنَّة عدن التي غرسها الله ربّي بيده، فليتولَّ عليّ بـن أبي طالب، وليتولَّ وليَّه، وليعادي عدوَّه، وليُسلِّم للأوصياء من بعده، فإنَّهم عترتي من لحمي ودمي، أعطاهم الله فهمي وعلمي»(١).

ومثـل ذلـك مـا جـاء في الروايـة الصـحيحة عـن الإمـام البـاقر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مـن سـرَّه أن يحيـىٰ حيـاتي، ويمـوت ميتتـي، ويـدخل جنَّـة عـدن التـي وعـدني ربِّي، فليتـولَّ عـليّ بـن أبي طالـب وأوصـيائه مـن بعـده، فـإنَّهم لا يـدخلونكم في بـاب ضـلال، ولا يخرجـونكم مـن بـاب هـدىٰ، فـلا تُعلِّمـوهم فـإنَّهم أعلـم مـنكم، وإنّي سـألت ربّي ألَّا يفـرق بيـنهم وبين الكتاب حتَّىٰ يردا عليَّ الحوض هكذا - وضم بين إصبعيه -»(٢).

ويمكن أن نسـتدلَّ عـلىٰ هـذا الاعتقـاد بـما جـاء في الحـديث الصـحيح عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله أنَّـه قـال: «أنـا مدينـة العلـم وعـليٌّ بابهـا، فمـن أراد المدينة فليأتها من بابها»(٣).

---

(١) أُصول الكافي للكليني/ كتاب الحجَّة.

(٢) أُنظر: أُصـول الكـافي/ كتـاب الحجَّـة/ بـاب مـا فـرض الله عزَّ وجلَّ ورسـوله صلى الله عليه وآله مـن الكـون مع الأئمَّة عليهم السلام/ الحديث ٥ و٦.

(٣) مستدرك الحاكم النيسابوري ٣: ١٢٦؛ المعجم الكبير/ الطبراني١١: ٥٥.

وفي حديث آخر أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال: «فليذهب الناس حيث شاؤوا، فوَالله ليس الأمر إلَّا من هاهنا - وأشار بيده إلىٰ بيته -»(١).

وفي رواية ثالثة أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «شرِّقا وغرِّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلَّا شيء خرج من عندنا أهل البيت»(٢).

وفي هذا السياق نقرأ الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وعنده أُناس من أهل الكوفة، فقال عليه السلام: «عَجَباً لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ أَخَذُوا عِلْمَهُمْ كُلَّه عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، فَعَمِلُوا بِه واهْتَدَوْا، ويَرَوْنَ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِه لَمْ يَأْخُذُوا عِلْمَه، ونَحْنُ أَهْلُ بَيْتِه وذُرِّيَّتُه فِي مَنَازِلِنَا نَزَلَ الْوَحْيُ، ومِنْ عِنْدِنَا خَرَجَ الْعِلْمُ إِلَيْهِمْ، أَفَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا واهْتَدَوْا وجَهِلْنَا نَحْنُ وضَلَلْنَا؟ إِنَّ هَذَا لَمُحَال»(٣).

ومثل ذلك رواية ثانية يرويها الحكم بن عتيبة، قال: لقي رجل الحسين بن عليّ عليه السلام بالثعلبية وهو يريد كربلاء، فدخل عليه وسلَّم، فقال له الحسين: «من أيِّ البلاد أنت؟»، قال: من أهل الكوفة، قال: «أمَا والله يا أخا أهل الكوفة، لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرائيل عليه السلام في دارنا، ونزوله بالوحي علىٰ جدّي. يا أخا أهل الكوفة، أفمستقىٰ الناس العلم من عندنا فعلموا وجهلنا؟ هذا ما لا يكون»(٤).

---

(١) الكافي/ للكليني ١: ٣٩٩.
(٢) أُنظر كلّ ذلك في كتاب الحجَّة من أُصول الكافي (ص ٣٧٩)/ باب أنَّه ليس شيء من الحقِّ إلَّا ما خرج من عند الأئمَّة عليهم السلام.
(٣) الكافي/ الكليني ١: ٣٩٨.
(٤) أُصول الكافي/ كتاب الحجَّة/ باب أنَّ مستقىٰ العلم من آل بيت محمّد عليهم السلام.

الاعتقاد الرابع:

في ضوء ما سبق نعتقد أنَّ الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام هم أئمَّة أطهار معصومون، قولهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله، وفعلهم فعل رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم معصومون من الرجس، مطهَّرون من الدنس، وهذا ما نقرؤه في زيارتهم عليهم السلام الواردة عن الإمام الهادي عليه السلام والمعروفة بالزيارة الجامعة الكبيرة:

«وأشهد أنَّكم الأئمَّة الراشدون المهديّون المعصومون المكرَّمون المقرَّبون المتَّقون الصادقون المصطفون، المطيعون لله، القوّامون بأمره، العاملون بإرادته، الفائزون بكرامته، اصطفاكم بعلمه، وارتضاكم لدينه، واختاركم لسرِّه...

عصمكم الله من الزلل، وآمنكم من الفتن، وطهَّركم من الدنس، وأذهب عنكم الرجس وطهَّركم تطهيراً...

أنتم نور الأخيار، وهداة الأبرار، وحجج الجبّار، بكم فتح الله وبكم يختم، وبكم يُنزِّل الغيث، وبكم يُمسِك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلَّا بإذنه، وبكم يُنفِّس الهمَّ، وبكم يكشف الضرَّ، وعندكم ما نزلت به رسله، وهبطت به ملائكته، وإلىٰ جدّكم بعث الروح الأمين»[1].

وفي مقابل هذا الرأي يرىٰ الحداثيون من الشيعة - كما هو رأي أهل السُّنَّة طبعاً - أنَّ الأئمَّة عليهم السلام هم مجرَّد علماء أبرار (يتحرَّكون علىٰ مستوىٰ استنباط الأحكام الشرعية بعملية الرأي والاجتهاد، وهم مثل سائر البشر يحتمل في حقِّهم الخطأ وإن كانوا أقلّ الناس خطأً).

ويرىٰ هؤلاء الحداثيون (أنَّ العصمة منحصرة بشخص

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام/ الشيخ الصدوق ٢: ٣٠٦.

النبيِّ ﷺ فقط، ولذلك لا يمكن القول بأنَّ الأئمَّة يملكون حالات وصفات تختلف عن سائر الناس بحيث يبتعدون عن المعاصي ويجتبون الذنوب بقدرة فوق بشرية، بل إنَّهم يبتعدون عن الذنوب بشكل بشري ومتعارف، ومن هنا يتَّصفون بأنَّهم أبرار)[1].

هذه الرؤية الحداثية للأئمَّة عليهم السلام هي نفسها التي يقول بها الحداثيون عن رسول الله ﷺ وأنَّه بشر يصيب ويخطئ وقد تصدر منه المعصية لله تعالىٰ، وأنَّه لا يمتلك أيَّة حصانة ما فوق بشرية.

بينما نعتقد نحن في رسول الله ﷺ والأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام أنَّ الله تعالىٰ هو الذي اصطفاهم وطهَّرهم كما في مريم بنت عمران: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران: ٤٢)، وهم بذلك يمتلكون حصانة غيبية إلهية لا تتوفَّر لدىٰ غيرهم من البشر، وإنَّ الله تعالىٰ هو الذي يتولّىٰ عصمتهم ويتولّىٰ تعليمهم كما تولّىٰ تعليم الخضر: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف: ٦٥)، وكما تولّىٰ تعليم يوسف عليه السلام: ﴿ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (يوسف: ٣٧)، ويتكفَّل تأييدهم وتسديدهم كما تكفَّل ذلك لعيسىٰ بن مريم: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧).

فالمسألة إذن ليست مسألة جهد بشري وعلوم اكتسابية يمارسها أهل البيت عليهم السلام، وهم ليسوا مجرَّد علماء أبرار أفضل من غيرهم قليلاً أو كثيراً، بل المسألة أعمق من ذلك، حيث نعتقد أنَّهم «محالُّ معرفة الله، ومشاكي نور الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله، وخزنة علم الله، وحفظة سرِّ الله، وحملة كتاب الله، وورثة رسول الله، وأوصيائه

(١) القراءة المنسيَّة/ محسن كديور.

وذرّيته»[١]، وأنَّهم «الأئمَّة الراشدون المهديّون المعصومون المكرَّمون المقرَّبون المتَّقون الصادقون المصطفون» كما نقرؤه في زياراتهم عليهم السلام.

إلَّا أنَّ كلَّ ذلك لا يمنحهم مرتبة النبوَّة، بل قد خُتِمَت النبوَّة بنبيِّنا الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله، وهم ذرّيته وأوصياؤه وأتباعه.

* * *

(١) مستدرك الوسائل/ المحدِّث النوري ١٠: ٤١٧.

البحث الثاني
الإمامة الفكرية والإمامة السياسية

في ضوء ما تقدَّم نعتقد أنَّ أهل البيت عليهم السلام لهم الإمامة الفكرية والإمامة السياسية علىٰ جميع المسلمين.

ونحن نعني بالإمامة الفكرية أنَّهم المصدر الصحيح للمعلومة الإسلاميَّة سواء علىٰ مستوىٰ تفسير القرآن وتأويله أو علىٰ مستوىٰ سُنَّة النبيِّ صلى الله عليه وآله، فهم وحدهم الذين يمتلكون الزعامة الفكرية، وعلىٰ جميع أئمَّة الإسلام والمسلمين أن يرجعوا إليهم في معرفة فقه الشريعة وأُصول العقيدة.

ونعني بالإمامة السياسية أنَّ خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ الأُمَّة هي لهم عليهم السلام، فهم الخلفاء الشرعيون لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهم الزعماء علىٰ الأُمَّة، ويجب علىٰ الجميع إطاعتهم والتبعية لهم في جميع المواقف السياسية.

نذكر هنا خطبة الإمام عليّ عليه السلام: «اُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا»(1).

---

(1) نهج البلاغة/ الخطبة ٩٧.

ودليلنا علىٰ الإمامة الفكرية مثل: قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»، وقوله صلى الله عليه وآله: «لا تُعلِّموهم فإنَّهم أعلم منكم»، وقوله صلى الله عليه وآله: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلَّف عنها غرق».

ومثل ذلك ما جاء في حديث الثقلين المتواتر عند جميع المسلمين أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً».

ومثل ذلك حديث النجوم في قوله صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأُمَّتي من الاختلاف في الدين».

ومثله قوله صلى الله عليه وآله: «في كلِّ خلف من أُمَّتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ألَا وإنَّ أئمَّتكم وفدكم إلىٰ الله، فانظروا من توفدون».

ومثله قوله صلى الله عليه وآله: «اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس، ولا يهتدي الرأس إلَّا بالعينين»[1].

وفي هذا السياق نستطيع أن نسرد عشرات الأحاديث النبويَّة الدالّة علىٰ الإمامة الفكرية لأهل البيت عليهم السلام، ولكنّا نكتفي بهذا المقدار، علماً أنَّ بعض هذه الروايات التي سقناها قد تشهد علىٰ إمامتهم السياسية أيضاً.

هذا وقد عقد العلَّامة السيِّد عبد الحسين شرف الدين في كتابه المراجعات فصلاً خاصّاً لموضوع الإمامة الفكرية، تحت عنوان: (إمامة المذهب)، وساق الأدلَّة علىٰ ذلك، وهو جدير بالمراجعة.

---

(١) أُنظر في مصادر جميع هذه الأحاديث التي سقناها كتاب المراجعات للسيِّد عبد الحسين شرف الدين.

وأمَّا الدليل علىٰ الإمامة السياسية فنستطيع أن نقرأ هنا علىٰ سبيل النموذج حديث الغدير حين قال رسول الله ﷺ وقد أخذ بيد عليٍّ عليه السلام: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».

كما نقرأ هنا حديث المنزلة حين قال رسول الله ﷺ لعليٍّ عليه السلام في أكثر من موضع: «يا عليّ، أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي».

كما نستطيع أن نقرأ هنا حديث الدار حين جمع رسول الله ﷺ عشيرته بعد نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وهناك قال ﷺ: «من يؤازرني علىٰ هذا الأمر فيكون خليفتي ووصيّي ووزيري؟»، فلم يقم إلَّا عليّ عليه السلام، فقال ﷺ: «هذا خليفتي ووزيري ووارثي ووصيّي فيكم».

وإذا كانت هذه الروايات جاءت في عليٍّ عليه السلام فإنَّ عليّاً عليه السلام قد أوصىٰ للحسن، والحسن أوصىٰ للحسين، وهكذا استمرَّت الوصيَّة إلىٰ إمامنا الثاني عشر عليه السلام، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ قوله: «الأئمَّة من بعدي اثنا عشر كلّهم من قريش»[1].

* * *

(١) أُنظر مصادر هذه الأحاديث في كتاب المراجعات للسيِّد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله.

البحث الثالث
مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام

سوف نواجه السؤال التالي:

ما هي مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام بحيث تكون سُنَّتهم هي سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله، مع أنَّ الكثير منهم لم يدرك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يشاهده، فكيف أصبحت علومهم هي العلوم الصحيحة المتطابقة مع القرآن الكريم ومع السُّنَّة النبويَّة؟

في الجواب علىٰ هذا السؤال نستطيع أن نذكر خمسة مصادر لعلوم أهل البيت عليهم السلام:

المصدر الأوَّل: التعليم الكسبي.

المصدر الثاني: التعليم الوراثي.

المصدر الثالث: التعليم القدسي.

المصدر الرابع: التعليم الملائكي.

المصدر الخامس: التعليم اللدنّي.

أمَّا التعليم الكسبي فنقصد به أنَّهم اكتسبوا العلم من رسول الله صلى الله عليه وآله، كما جاء في الحديث المتواتر لدىٰ الفريقين عن عليٍّ عليه السلام أنَّه قال: «علَّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب يفتح لي من كلِّ باب ألف باب»[1]،

(١) نظم درر السمطين/ الشيخ محمّد الزرندي الحنفي: ١١٣.

وقال: «كنت إذا سألته أجابني، وإذا سكت ونفدت مسائلي ابتدأني، فما نزلت عليه آية من القرآن إلَّا أقرأنيها وأملاها عليَّ، فكتبتها بخطّي، ودعا الله أن يُفهِّمني إيّاها ويُحفِّظني، ثمّ وضع يده علىٰ صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، وأن يُعلِّمني فلا أجهل، وأن يُحفِّظني فلا أنسىٰ»[1].

إذن نحن أمام موسوعة علمية شاملة مكتسبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وجميع هذه الموسوعة الشاملة كان عليٌّ عليه السلام قد ورَّثها وأودعها عند أبنائه عليهم السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّها لصحيفة بخطِّ عليّ بن أبي طالب وإملاء رسول الله نتوارثها صاغراً عن كابر»، كما روىٰ ذلك المسعودي في (مروج الذهب)[2].

أمَّا التعليم الوراثي فقد قال الإمام الصادق عليه السلام برواية الحارث بن المغيرة، قلت: أخبرني عن علم عالمكم، قال عليه السلام: «وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن عليٍّ عليه السلام»[3].

طبعاً سيفتح لنا هذا الموضوع حديثاً عن الوراثة، وأنَّ الوراثة كما تكون في الصفاة البدنية والصفاة الأخلاقية، وكما تكون في الذكاء أو الغباء، كذلك تكون أيضاً في العلم، فإنَّ الدين يقول: إنَّ العلم يورث كما تورث الصفات البدنية والنفسية.

وأمَّا التعليم القدسي ونقصد به أنَّ الإمام عليه السلام يأخذ المعلومة من

---

(١) أُنظر: كتاب سُلَيم بن قيس الهلالي: ١٨٥ و١٨٦.

(٢) مروج الذهب ٤: ٨٦.

(٣) أُصول الكافي/ ج ١/ كتاب الحجَّة/ باب جهات علوم الأئمَّة عليهم السلام.

روح القدس التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في عيسىٰ بن مريم حينما قال تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، وجاء أيضاً ذكرها في القرآن الكريم عن تأييد الله تعالىٰ للمؤمنين المخلِصين[1] بقوله: ﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢).

وفي هذا الصدد نقرأ الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام برواية جابر الأنصاري، قال: سألته عن علم العالم، فقال لي: «يا جابر، إنَّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوَّة، وروح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلىٰ ما تحت الثرىٰ»[2].

وفي شرح معنىٰ روح القدس يقول الإمام الصادق عليه السلام في الرواية الصحيحة في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمانُ﴾ (الشورىٰ: ٥٢)، قال عليه السلام: «خلق من خلق الله عزَّ وجلَّ أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله يُخبِره ويُسدِّده وهو مع الأئمَّة من بعده»[3].

---

(١) لقد تكرَّر في التراث الديني تأييد روح القدس للمؤمنين كما في قصَّة حسّان بن ثابت، وكان شاعر النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ينشد فيه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يزال مؤيَّداً بروح القدس ما يقول فينا». (روضة المتَّقين/ العلَّامة المجلسي الأوَّل ١٣: ١٩)، ومثلها قول الإمام الصادق عليه السلام لهشام بن الحكم: «يا هشام، ما زلت مؤيَّداً بروح القدس»، ومنها: دخل الكميت بن زيد علىٰ أبي جعفر عليه السلام وأنا عنده، فأنشده: من لقلب متيّم مستهام. فلمَّا فرغ منها قال للكميت: «لا تزال مؤيَّداً بروح القدس ما دمت تقول فينا». (شرح أُصول الكافي/ المازندراني ١٢: ٢٨٦).

(٢) أُنظر في ذلك: أُصول الكافي/ ج ١/ باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمَّة عليهم السلام.

(٣) أُنظر: أُصول الكافي ١: ٢٧٣/ باب الروح التي يُسدِّد الله بها الأئمَّة عليهم السلام.

وقد تكرَّر هذا المعنىٰ في عدد من الروايات، وجاء في رواية أُخرىٰ عن سعد الإسكاف، قال: أتىٰ رجل أمير المؤمنين يسأله عن الروح أليس هو جبرائيل؟ فقال له عليه السلام: «جبرائيل عليه السلام من الملائكة، والروح غير جبرائيل»، فكرَّر ذلك علىٰ الرجل، فقال له الرجل: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أنَّ الروح غير جبرائيل! فقال له أمير المؤمنين: «إنَّك ضالٌّ تروي عن أهل الضلال، يقول الله تعالىٰ لنبيِّه: ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ [النحل: ١ و٢]، والروح غير الملائكة صلوات الله عليهم»[١].

وأمَّا التعليم الملائكي وهو التعليم من خلال المَلَك فقد ورد في أكثر من حديث عنهم عليهم السلام أنَّ الأئمَّة يُحدِّثهم مَلَك من الملائكة، فيعطيهم المعلومة، هكذا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ علمنا غابر، ومزبور، ونكتٌ في القلوب، ونقرٌ في الأسماع، فأمَّا الغابر فما تقدَّم من علمنا، وأمَّا المزبور فما يأتينا، وأمَّا النكت في القلوب فإلهام، وأمَّا النقر في الأسماع فأمرُ المَلَك»[٢].

ومن أجل أن تتَّضح الصورة أكثر، وحتَّىٰ لا يزعم أحد أنَّ نزول المَلَك علىٰ قلب الإمام عليه السلام يعني النبوَّة، جاء في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام حينما قال: «إنَّ الإمام يُحدِّثه مَلَك»، قال الرواي: إنَّه نبيّ؟ فحرَّك يده (نافياً)، وقال: «أو كصاحب سليمان، أو كصاحب موسىٰ، أو كذي القرنين، أوَما بَلَغكم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: وفيكم

(١) المصدر السابق.

(٢) أُنظر: أُصول الكافي ١: ٢٦٤/ باب جهات علوم الأئمَّة عليهم السلام.

مثلـه»[١]، في إشـارة إلىٰ الحـديث النبـوي الشـريف، قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ علياً ذو قرني هذه الأُمَّة».

وصاحب سليمان هو الـذي تحـدَّث عنـه القـرآن الكـريم قـائلاً: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ (النمـل: ٤٠)، فهـذا لم يكـن نبيّاً لكن كان عنده علم من الكتـاب يُعطيـه مـن القـدرة والمعرفـة مـا يسـتطيع أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ إليه طرفه.

وأمَّـا صـاحب موسـىٰ فهـو الخضـر الـذي قـال الله تعـالىٰ فيـه: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف: ٦٥).

وأمَّا ذو القرنين فقد أشار إليه القرآن الكريم بالقول: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴿٨٤﴾﴾ (الكهف: ٨٣ و٨٤).

إذن فهناك مصـدر للمعلومـة يمكـن أن يُسـدِّد الله تعـالىٰ بـه عبـداً مـن عباده الأولياء دون أن يكون نبيّاً بالضرورة[٢].

أمَّا التعليم اللدنّي فهو إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف: ٦٥)، والمقصود به التعليم المباشر من قِبَل الله تعالىٰ.

وقـد جـاء في الحـديث الشـريف عـن الإمـام موسـىٰ بـن جعفـر الكـاظم عليه السلام أنَّـه قـال: «مبلـغ علمنـا عـلىٰ ثلاثـة وجـوه: مـاضٍ، وغـابر، وحادث. أمَّـا المـاضي فمفسَّـر، وأمَّـا الغـابر فمزبـور، وأمَّـا الحـادث فقـذف في القلوب ونقر في الأسماع»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) اُنظر: أُصول الكافي/ ج ١/ باب أنَّ الأئمَّة عليهم السلام محدَّثون مفهَّمون.

(٣) المصدر السابق.

يقـول العلَّامـة المجلسـي في شرح ذلـك: ((مـاضٍ) أي مـا يتعلَّـق بـالأُمور الماضـية، و(غـابر) أي مـا يتعلَّـق بـالأُمور الآتيـة، (فأمَّـا المـاضي فمفسَّـر) أي فسَّـره لنـا رسـول الله ﷺ، (وأمَّـا الغـابر فمزبـور) أي مكتـوب لنـا في الجامعـة ومصـحف فاطمـة وغيرهمـا، (وأمَّـا الحـادث) وهـو ما يتجـدَّد (فقـذف في القلـوب) بالإلهـام مـن الله تعـالىٰ بـلا توسّـط مَلَـك أو (نقر في الاسماع))[1].

وجـاء مثـل هـذا الحـديث عـن الإمـام الصـادق عليه السلام[2]، والمقصـود بالعلم الحادث هو العلم الآني الـذي يحـدث سـاعة بعـد سـاعة حيـث يُقـذَف في قلـوبهم عليهم السلام ويُنقَـر في أسـماعهم، وقـد قـال عليه السلام في الروايـة السـابقة: «وهو أفضل علومنا، ولا نبيَّ بعد نبيِّنا».

وجاء في تفسير ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «أمَّا الغابر فما تقدَّم من علمنا، وأمَّا المزبور فما يأتينا، وأمَّا النكت في القلوب فإلهام»[3].

نتيجة الفصل الثالث:

أعطانا هذا الفصل مجموعة نتائج هي عبارة عن:

١ - الاعتقـاد بـأنَّ سُـنَّة أهـل البيـت عليهم السلام هـي امتـداد لسُـنَّة الرسـول الأكرم ﷺ، ومن هنا فإنَّهـا تتمتَّـع بالحجّيـة الشـرعية، وتعتـبر مصـدراً مـن

---

(١) مـرآة العقـول/ العلَّامـة المجلسـي ٣: ١٣٦/ بـاب جهـات علـوم الأئمَّـة/ طبعـة دار الكتب العلمية.

(٢) عَـنِ الْمُفَضَّـلِ بْـنِ عُمَـرَ، قَـالَ: قُلْـتُ لأَبِي الْحَسَـنِ عليه السلام: رُوِّينَـا عَـنْ أَبِي عَبْـدِ الله عليه السلام أَنَّـه قَـالَ: «إِنَّ عِلْمَنَـا غَـابِرٌ، ومَزْبُـورٌ، ونَكْـتٌ فِي الْقُلُـوبِ، ونَقْـرٌ فِي الأَسْـمَاعِ»، فَقَـالَ: «أَمَّـا الْغَـابِرُ فَـمَا تَقَـدَّمَ مِـنْ عِلْمِنَـا، وأَمَّـا الْمَزْبُـورُ فَـمَا يَأْتِينَـا، وأَمَّـا النَّكْـتُ فِي الْقُلُـوبِ فَإِلْهَـامٌ، وأَمَّـا النَّقْرُ فِي الأَسْمَاعِ فَأَمْرُ الْمَلَكِ». (الكافي/ الكليني ١: ٢٦٤).

(٣) المصدر السابق.

مصادر الشريعة والعقيدة، بل إنَّها هي المصدر الوحيد الذي يمكن اعتماده لمعرفة تفسير القرآن الكريم وسُنَّة النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، لاعتبار أهل البيت عليهم السلام أئمَّة أطهار مصطفون من عند الله تعالىٰ.

٢ - كما أفادنا هذا الفصل أنَّ الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام يمتلكون موقع الإمامة الفكرية والإمامة السياسية للأُمَّة بنصٍّ من رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣ - فيما شرح هذا الفصل ما هي المصادر العلمية لدىٰ أهل البيت عليهم السلام، مؤكِّداً أنَّها خمسة مصادر هي عبارة عن: التعليم الكسبي، والوراثي، والقدسي، والملائكي، واللدنّي.

* * *

الفصل الرابع

أقسام السُّنَّة النبويَّة ومجالاتها

المبحث الأوَّل: المقصود بالسُّنَّة النبويَّة.
المبحث الثاني: أقسام السُّنَّة النبويَّة.
المبحث الثالث: الإشكال الحداثي علىٰ السُّنَّة التشريعية.
المبحث الرابع: مجالات السُّنَّة النبويَّة.
المبحث الخامس: الإشكال الحداثي علىٰ التجربة النبويَّة في الحكم.
المبحث السادس: نماذج من السيرة النبويَّة.

البحث الأوَّل
المقصود بالسُّنَّة النبويَّة

يُقصَد بالسُّنَّة النبويَّة هي ما صدر عن رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً، وكان بقصد التشريع، بخلاف ما إذا لم يكن بقصد التشريع إنَّما كان تعبيراً عن سلوك شخصي دون أيَّة إشارة إلىٰ موقعه في الشريعة وفي كمال الإنسان وسلوكه التكاملي.

ذلك أنَّ الرسول ﷺ قد يتصرَّف باعتباره نبيّاً، وتصرّفه هنا يكون تصرّفاً تشريعياً، ولكنَّه في أحيان أُخرىٰ قد يتصرَّف باعتباره بشراً ومن منطلقات بشرية لا يقصد منها تعبيراً عن رؤية الوحي وتأشيراً إلىٰ سلوك كمالي، إنَّما هو مجرَّد موقف آني تلبيةً لحاجة بشرية محضة، وهذا هو ما نُعبِّر عنه بالسلوك الشخصي.

وهنا يقول الفقهاء: إنَّ السُّنَّة النبويَّة التي نتحدَّث عن حجّيتها إنَّما هي ما صدر عن رسول الله ﷺ وكان بقصد التشريع الديني.

يقول الشيخ محمّد رضا المظفَّر[1] وهو من كبار علماء الشيعة

(١) محمّد رضا المظفَّر (١٣٢٢ - ١٣٨٣هـ)، مجتهد مؤسِّس كلّية الفقه في النجف الأشرف، يبدي الأُستاذ جعفر الخليلي إعجابه بالشيخ مظفَّر، حيث يقول: (إنَّه كان أحد بضعة أنفار ممَّن لفتوا أنظار الآخرين من أوساط الحوزة إليهم بجدِّهم وانغماسهم في الدروس) إلىٰ جانب الفقه والأُصول ولع الشيخ المظفَّر بدراسة الرياضيات والفلك والعروض والفلسفة، وكان من مدرِّسي أسفار الملّا صدرا الفلسفية المعروفين، كما ألَّف كتاباً في العروض. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

المعـاصرين: (السُّـنَّة في اصـطلاح الفقهـاء قـول النبـيِّ وفعلـه وتقريـره، ومنشأ هـذا الاصـطلاح أمـر النبـيِّ ﷺ باتِّبـاع سُـنَّته، فغلبـت كلمـة السُّـنَّة حيـنما تُطلَـق مجـرَّدة عـن نسـبتها إلىٰ أحـد عـلىٰ خصـوص مـا يتضـمَّن بيـان حكم من الأحكام من النبيِّ ﷺ)(١).

فـيما يقـول الشـيخ عبـد الوهّـاب خـلاف(٢) وهـو مـن علـماء السُّـنَّة المعـاصرين أيضـاً: (أجمـع المسـلمون عـلىٰ أنَّ مـا صـدر عـن الرسـول ﷺ قـولاً وفعـلاً وتقريـراً، وكـان مقصـوداً بـه التشـريع والاقتـاء، ونُقِـلَ إلينـا بسند صـحيح يكـون حجّـةً عـلىٰ المسـلمين ومصـدراً تشـريعياً يسـتنبط منـه المجتهدون الأحكام التشريعية)(٣).

إذن فالسُّنَّة النبويَّة التي أجمع المسـلمون عـلىٰ حجّيتهـا هـي مـا كـان قـد صدر من رسول الله ﷺ قـولاً وفعـلاً وتقريـراً بصـدد التشـريع، ولكنّـا قـد نجـد مواقـف وأقـوالاً صـدرت مـن رسـول الله ﷺ تعبـيراً عـن سـلوك شخصـي، أو تعبـيراً عـن سـلوك حكـومي لا يُعـبِّر عـن مواقـف تشـريعية ثابتة كما سنشرح ذلك.

ولمزيـد مـن توضـيح الفكـرة يمكـن أن نضـرب بعـض الأمثلـة، فالرسـول الأكـرم ﷺ حيـنما يقـول: «جُعِلَـت لي الأرض مسـجداً وطهـوراً»، فهـو هنـا بصـدد التشـريع، وهـو يتحـدَّث بوصـفه النبـوي، وحينما يقـول: «صـلّوا كـما رأيتمـوني أُصـلّي»، فهـو أيضـاً بصـدد التشـريع،

(١) أُنظر: أُصول الفقه/ جزء ٣/ باب ٢.

(٢) عبـد الوهّـاب خـلاف (١٨٨٨ - ١٩٥٦م)، هـو المحـدِّث الأُصـولي، الفقيـه، الفـرضي، عضـو مجمـع اللغـة العربيـة في القـاهرة، وصـاحب المؤلَّفـات الكثـيرة خصوصـاً في علـم أُصول الفقه. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

(٣) أُنظر: علم أُصول الفقه وخلاصة التشريع الإسلامي/ لمحمّد عبد الوهّاب خلاف: ٣٧.

وحينما يقول: «خذوا مناسككم عنّي» هو أيضاً بصدد التشريع، وحينما يقول: «من لم يهتم بأُمور المسلمين فليس منهم» هو أيضاً بصدد التشريع، وحينما يقول: «طلب العلم فريضة علىٰ كلِّ مسلم»، فهو أيضاً بصدد التشريع، فالنبيُّ الأكرم ﷺ هنا يتحدَّث بوصفه نبيّاً مرسلاً ومبعوثاً لرسم منهج الحياة للناس.

نماذج من السلوك الشخصي:

ولكنّا قد نرىٰ سلوكاً شخصياً له ﷺ لم يكن فيه بصدد التشريع، وقد نذكر لذلك بعض الأمثلة:

١ - فقد كان رسول الله ﷺ قبل النبوَّة يرعىٰ الغنم.

٢ - كما أنَّ رسول الله ﷺ قد تزوَّج من خديجة، وهي تكبره بخمسة عشر عاماً، ومن الملاحظ في هذين التصرّفين أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يتصرَّف من منطلق تشريعي، وإنَّما هكذا قدَّرت له ظروفه.

٣ - ومثل ذلك حينما يصف المحدِّثون رسول الله ﷺ بأنَّه كان له ضفيرتان.

٤ - وكان شعره إلىٰ شحمة أُذُنه.

٥ - وأنَّه كان ينظر إلىٰ وجهه بالماء الصافي.

فرغم أنَّ هذه السلوكيات تحمل في ضمنها دلالة تشريعية معيَّنة ضمنية علىٰ مشروعية هذا السلوك وجوازه، لأنَّه لو لم يكن جائزاً لم يفعله النبيُّ ﷺ، ولكن أصل السلوك لم يكن بهدف تشريعي.

٦ - وهكذا حينما يروي المحدِّثون أنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل التمر ويتمعجّه باللبن[1]، فهو هنا لم يكن بقصد التشريع لهذا النمط من

(١) أُنظر: سنن النبيِّ/ العلَّامة الطباطبائي: ٧٧.

الطعام، ومن هنا فالسُّنَّة في هذه السلوكيات الشخصية تبقىٰ غير معبِّرة عن فرض إلهي وإن عبَّرت ضمنياً عن أصل مشروعية هذا السلوك وصحَّته.

هذه نماذج من السلوك الشخصي الذي رغم ما يحمل في طيّاته من دلالة تشريعية ضمنية إلَّا أنَّه لم يكن بصدد التشريع.

نماذج من السلوك الحكومي:

ونقصد بها تلك المواقف المتحرِّكة التي صدرت من رسول الله ﷺ باعتباره حاكماً وقائداً، وليس فيها إطلاق زماني ومكاني، بل هي نابعة من استحقاقات الظروف الخاصَّة.

فهي لا تُعبِّر عن أحكام تشريعية مطلقة، بل هي من اختصاصات الحاكم الشرعي حسب ما يراه من المصلحة الخارجية، ويندرج في هذا النمط من السلوك الحكومي جميع المواقف المتحرِّكة في الشأن السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي التي اتَّخذها رسول الله ﷺ والأئمَّة الأطهار عليهم السلام من بعده.

فالحرب والصلح والخطط الحربية وشرائط الصلح وكذلك التحالفات السياسية التي عقدها رسول الله ﷺ هي مواقف متحرِّكة متروكة لوليِّ الأمر، ولا تُمثِّل سُنَّة تشريعية ثابتة، فالهجرة إلىٰ الطائف مثلاً ثمّ الهجرة إلىٰ المدينة هذه لم تكن ثوابت في الشريعة الإسلاميَّة، وإنَّما هي قرارات اتَّخذها النبيُّ الأكرم ﷺ بوصفه قائداً للمسيرة، فهي مواقف متحرِّكة، ومثل ذلك حينما أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق في معركة الأحزاب، فهي أساليب حربية متحرِّكة وليس من الثوابت التشريعية.

وقد استعرض أُستاذنا الكبير الشهيد السيِّد محمّد باقر الصدر نماذج لهذه المواقف المتحرِّكة في المجال الاقتصادي، واعتبر ذلك جزءاً من منطقة الفراغ التي تركتها الشريعة للوليِّ ليملأها بحسب ما يراه من مصلحة.

قال وهو يتحدَّث عن منطقة الفراغ في التشريع الاقتصادي: (إنَّ النبيَّ الأعظم ﷺ قد ملأ ذلك الفراغ بما كانت تتطلَّبه أهداف الشريعة في المجال الاقتصادي علىٰ ضوء الظروف التي كان المجتمع الإسلامي يعيشها، غير أنَّه حين قام بعملية ملء هذا الفراغ لم يملأه بوصفه نبيّاً مبلِّغاً للشريعة الإلهية الثابتة في كلِّ مكان وزمان، ليكون هذا الملء الخاصّ من سيرة النبيِّ ﷺ لذلك الفراغ معبِّراً عن صيغ تشريعية ثابتة، وإنَّما ملأهُ بوصفه وليّ الأمر المكلَّف من قِبَل الشريعة بملء منطقة الفراغ وفقاً للظروف)[1].

* * *

(١) اقتصادنا/ محمّد باقر الصدر: ٣٣٤. ويقول السيِّد الصدر في الشأن ذاته: (ولا تدلُّ منطقة الفراغ علىٰ نقص في الصورة التشريعية، أو إهمال من الشريعة لبعض الوقائع والأحداث، بل تُعبِّر عن استيعاب الصورة، وقدرة الشريعة علىٰ مواكبة العصور المختلفة، لأنَّ الشريعة لم تترك منطقة الفراغ بالشكل الذي يعين نقصاً أو إهمالاً، وإنَّما حدَّدت للمنطقة أحكامها بمنح كلّ حادثة صفتها التشريعية الأصيلة، مع إعطاء وليّ الأمر صلاحية منحها صفة تشريعية ثانوية، حسب الظروف. فإحياء الفرد للأرض مثلاً عملية مباحة تشريعياً بطبيعتها، ولوليِّ الأمر حقّ المنع عن ممارستها، وفقاً لمقتضيات الظروف). (اقتصادنا/ محمّد باقر الصدر: ٦٨٩). (المحقِّق).

البحث الثاني
أقسام السُّنَّة النبويَّة

كما أنَّ السُّنَّة النبويَّة تنقسم في دلالتها إلىٰ سُنَّة في فريضة وسُنَّة في غير فريضة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «السُّنَّة سُنَّتان: سُنَّة فريضة الأخذ بها بعدي هدىٰ وتركها ضلالة، وسُنَّة في غير فريضة الأخذ بها فضيلة وتركها غير خطيئة»(١).

ومعنىٰ هذا أنَّ سلوك الرسول ﷺ كما هو قوله وتقريره قد يُعبِّر عن حكم إلزامي، وقد يُعبِّر عن إباحة، وقد يُعبِّر عن استحباب وندب، ومن هنا يجب ملاحظة القرائن المحيطة بالقول والفعل والتقرير لنعرف مدلول تلك السُّنَّة هل هي الوجوب أو الاستحباب أم هي الإباحة أم الحرمة...؟

ويمكن أن نستعين ببعض الأمثلة:

فرسول الله ﷺ حينما كان يصوم شهر شعبان، وحينما يقول: «شعبان شهري، رحم الله من أعانني علىٰ شهري»(٢)، كان ذلك تعبيراً عن استحباب وندب لصيام هذا الشهر، ولم يكن تعبيراً عن إلزام شرعي به.

ومثل ذلك حين كان يقول ﷺ: «لولا أن أشقَّ علىٰ أُمَّتي لأمرتهم بالسواك»(٣)، فمدلول هذا النصّ النبوي أنَّ الاستياك أمر

---

(١) أُنظر: تحف العقول في قصار كلمات الرسول ﷺ.

(٢) الوسائل/ أبواب الصوم المندوب/ باب ٢٨/ حديث ٢٢.

(٣) الموطأ/ الإمام مالك ١: ٦٦.

مستحبّ وليس بواجب. وبخلاف ذلك حينما يقول ﷺ: «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيَّته»[١]، أو يقول: «من لم يهتم بأُمور المسلمين فليس منهم»[٢]، فإنَّ دلالة هذه النصوص واضحة في الحكم الإلزامي.

وقد تُعبِّر السُّنَّة النبويَّة أحياناً عن حكم إلزامي علىٰ مستوىٰ التحريم، كما في قوله ﷺ: «لا يحلُّ مال أمرئ إلَّا بطيب نفسه»[٣]، ففيه دلالة واضحة علىٰ حرمة التصرّف بأموال الآخرين دون رضاهم.

ومثل ذلك حينما يقول ﷺ: «من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده»[٤]، أو يقول: «من آذىٰ ذمّياً كنت أنا خصمه يوم القيامة»[٥]، ففيه دلالة واضحة علىٰ حرمة إيذاء المسلم وغير مسلم.

وينتج من كلِّ هذه الأمثلة أنَّ السُّنَّة النبويَّة قد تكون دالّة علىٰ حكم إلزامي وجوباً أو تحريماً، أو دالَّة علىٰ حكم استحبابي أو علىٰ الكراهة، وقد تكون دالّة علىٰ مجرَّد الإباحة، مثل قوله ﷺ: «رُفِعَ عن أُمَّتي ما اضطرّوا إليه»[٦]، ومن هنا فإنَّ الفقيه يجب أن ينظر في دلالات النصّ وسياقاته ويكتشف ما هو المقصود.

* * *

---

(١) صحيح البخاري ١: ٢١٥.

(٢) الكافي/ الكليني ٢: ١٦٤.

(٣) سنن البيهقي ٦: ١٠٠.

(٤) مستدرك الوسائل/ النوري ١٢: ١٠٠.

(٥) الجامع الصغير/ السيوطي ٢: ٥٤٧.

(٦) الوسائل/ العاملي ١١: ٢٩٥.

البحث الثالث
الإشكال الحداثي على السُّنَّة التشريعية

يقول الحداثيون: إنَّ السُّنَّة النبويَّة ليست انعكاساً للنبوَّة، ولا تعبيراً عن وحي، ولا تشريعاً سماوياً، إنَّما هي تأثّر النبيِّ ﷺ بالأعراف والتقاليد العربية المحيطة به، كما هي تأثّر بالثقافة المعاصرة له.

لاحظوا ما يقول خليل عبد الكريم، يقول: (إنَّ الإسلام ورث الكثير من عرب الجزيرة، واستعار الكثير من الأنظمة السائدة التي كانت بينهم في شتّىٰ المجالات...).

ويقول: (ليدرك القارئ المدىٰ الواسع للبصمات العربية في الإسلام...، فالكثير من القرّاء قد يدهش عندما يعرف أنَّ الإسلام قد أخذ من الجاهلية كثيراً من الشؤون الدينية أو التعبّدية، أخذ منها فريضة الحجّ، وشعيرة العمرة، وتعظيم الكعبة، وتقديس شهر رمضان، وحرمة الأشهر الحرام، وثلاثة حدود: الزنىٰ والسرقة وشرب الخمر، وشطراً كبيراً من المسؤولية الجزائية، مثل: القصاص والدية والقسامة والعاقلة).

ويقول: (ممَّا لا جدال فيه أنَّ حياة القبائل العربية قبيل الإسلام خاصَّة في وسط الجزيرة هذه الحياة في قسماتها كافَّة كانت هي البروفة أو المسودة أو التجربة للأنظمة الإسلاميَّة)(١).

---

(١) أُنظر: الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميَّة/ خليل عبد الكريم: ١٤ و١٥.

ويقول في موضع آخر في كتابه (محمّد والصحابة)[١] وهو يُحلِّل شخصية النبيِّ ﷺ وقدرته علىٰ التأثير علىٰ أصحابه: (إنَّ محمّداً اجتمعت فيه الخبرة العملية مع الثقافة العميقة المحصودة من روافد عديدة ذات الخطر التي ذكرناها، فضلاً عن أنَّه كان يتمتَّع بشخصية آسرة تبهر كلَّ من يلتقيه وتأخذ بمجامع لبِّه، هذه العوامل الخبرة العملية والثقافة الوسيعة ذات الجذور المتنوِّعة مع قوَّة الشخصية أهَّلت محمّداً لأن يهيمن علىٰ الصحابة هيمنة كاملة أدهشت معاصريه...).

ليس هاهنا أثر للوحي ولا حديث عن النبوَّة والوحي، وإنَّما حديث عن شخصية متأثِّرة بالثقافات المحيطة بها، كما أنَّها شخصية تأثَّرت بتجارب عملية خاضها النبيُّ ﷺ قبل النبوَّة، وكما أنَّها شخصية كارزمية آسرة كما يُعبِّر خليل عبد الكريم! فليس هاهنا نبوَّة ووحي إنَّما هي عوامل أُخرىٰ استلهم منها رسول الله ﷺ تلك المفاهيم والتشريعات التي قدَّمها!

ويقول في موضع آخر من كتابه (محمّد والصحابة): (إنَّ معرفة الأعراف والتقاليد والعادات والأنظمة التي كانت متجذِّرة في أعماق مجتمع الحقبة المتقدِّمة علىٰ الإسلام ضرورية للغاية لتفسير النصوص المتعلِّقة بالأحكام ولفهمها الفهم الأمثل، وبالتالي الوصول إلىٰ إجابة صحيحة عن سؤال علىٰ قدر وفير من الخطر، وهو: هل هذه النصوص متعلِّقة بالمجتمع الذي انبثقت من باطنه أم هي ليست كذلك وتتمتَّع بالعمومية والاتِّساع والشمولية؟).

ثمّ يجيب علىٰ هذا السؤال بمقولة زيدان عبد الباقي، وهو يتحدَّث

(١) محمّد والصحابة/ خليل عبد الكريم ١: ٥١.

عن رسول الله ﷺ قائلاً: (ويمتلك القائد الكارزمي استعدادات ومهارات ومواهب يعتقد أتباعه أنَّ مصدرها إلهي!)[1].

ويقول في ختام هذا الفصل: (وخلاصة القول: إنَّه أيّاً ما كانت الأسباب والدوافع للطاعة فإنَّها تحقَّقت علىٰ أرض الواقع بصورة يعزُّ نظيرها، وأنَّها كانت الثمرة الناضجة للخطَّة البارعة التي رسمها محمّد ونفَّذها بهمَّة فائقة)[2].

السُّنَّة النبويَّة تشريع لا تقليد:

هذه هي الرؤية الحداثية للسُّنَّة النبويَّة التشريعية، ولكن الحقيقة أنَّ رسول الله ﷺ كان قد أقرَّ أعرافاً ورفض أعرافاً أُخرىٰ، وكان قد التزم بتقاليد عربية ورفض تقاليد أُخرىٰ، هذه القضيَّة ممَّا لا شكَّ فيها من الناحية التاريخية.

أعراف أقرَّها النبيُّ ﷺ:

ومن الناحية الشرعية فلقد أقرَّ الإسلام السعي بين الصفا والمروة قائلاً: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما﴾ (البقرة: ١٥٨)، وهذا إقرار لسلوك كان قائماً بالفعل بين أبناء الجزيرة العربية.

ولقد أقرَّ النبيُّ ﷺ التعدّدية الزوجية، وأقرَّ نظام الثأر والقصاص، وأقرَّ التواصل العشائري، وغير ذلك ممَّا كان متَّبعاً بين أبناء قومه.

---

(١) محمّد والصحابة/ خليل عبد الكريم ١: ٢٢٥.

(٢) محمّد والصحابة/ خليل عبد الكريم ١: ٢٢٧.

أعراف رفضها النبيُّ ﷺ:

ولقد رفض النبيُّ ﷺ أعرافاً كانت سائدة، لقد رفض استحقار المرأة، ورفض عضل النساء، ورفض العصبية القبلية قائلاً: «كلُّ عصبية في النار إلَّا عصبية حمزة»[1]، ورفض النزعة القومية قائلاً: «لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا أسود علىٰ أحمر، ولا أحمر علىٰ أسود إلَّا بالتقوىٰ»[2]، ورفض التعالي الطبقي قائلاً: «الناس سواسية كأسنان المشط»[3].

ولكن السؤال أنَّ رسول الله ﷺ في مجمل هذه التشريعات هل كان تابعاً للتقاليد والأعراف أو كان منطلقاً من إيحاء سماوي وتشريع إلهي؟ هذا هو ما نعتقد به، وهذا هو معنىٰ النبوَّة والرسالة، فالقران الكريم يقول: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ (النساء: ١٠٥)، ويقول: ﴿اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (الأنعام: ١٠٦).

فالسؤال: هل كانت هذه التشريعات التي أقرَّها رسول الله ﷺ أو تلك التي رفضها هي تأثّر بالبيئة الثقافية التي عاشها أم كانت تعبيراً عن تلقٍّ من الله تبارك وتعالىٰ؟

إنَّه لا توجد مشكلة في أن يُقِرَّ الإسلام بعض التقاليد والأعراف العربية وغير العربية، فليس كلُّ ما هو موجود باطل، وليس الحركة التصحيحية التي يقودها الأنبياء عليهم السلام تعني إلغاء جميع ما هو موجود، بل تعني تصحيح ما هو الموجود وإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، فبعض

(١) أُصول الكافي/ الكليني ٢/ ٣٠٨/ باب العصبية.

(٢) مجمع الزوائد ٣: ٢٦٦.

(٣) تحف العقول: ٣٨٧.

التقاليد والتشريعات ربَّما كانت موروثة عن أنبياء سابقين، وبعضها ربَّما كان تعبيراً عن قيم إنسانية صحيحة أقرَّتها الأديان الإلهية، فالحركة التصحيحية من قِبَل أيِّ نبيٍّ من الأنبياء سوف لا تلغي تلك الأعراف والتقاليد والتشريعات، وإنَّما تقرّها لصحَّتها.

لكن ذلك لا يعني أنَّ النبيَّ ﷺ كان تابعاً ومتأثِّراً ومنفعلاً بتلك القيم والتشريعات الموجودة.

يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، ويقول: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)، وهكذا سنعرف أنَّ النبيَّ ﷺ كان يضع رسالته وتشريعه المأخوذ من الوحي الإلهي، والقرار السماوي هو الفيصل بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح، ومجرَّد أنَّ النبيَّ ﷺ قد أقرَّ تشريعات قائمة في مجتمعه فإنَّ ذلك لا يلغي رسوليته من عند الله تبارك وتعالىٰ.

وبالتالي نحن أمام خيارين: إمَّا أن نقبل بالنبوَّة والرسالة، وذاك يعني أنَّ ما صدر من رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً كان تعبيراً عن رأي السماء، وليس تقليداً لرأي الجزيرة العربية. والخيار الثاني أن نرىٰ ما صدر عنه تقليداً واتِّباعاً لتلك الأعراف العربية، وهذا يعني رفضاً لنبوَّته ﷺ وتشكيكاً في رسالته.

إنَّ الشبهة التي يثيرها الحداثيون واعتبار التشريعات الإسلاميَّة تقليداً لعرب الجزيرة، هذه الشبهة ستنتهي إلىٰ الشكِّ في نبوَّة هذا الإنسان ورسالته ﷺ، في الوقت الذي يفرض علينا الإيمان بنبوَّته ورسالته ﷺ الاعتقاد بأنَّ تلك التشريعات هي تعبير عن وحي السماء

وإن كانت إقراراً لما هو قائم بالفعل. فقد أقرَّ رسول الله ﷺ خصالاً وممارسات صحيحة لدىٰ شعب الجزيرة يومئذٍ، فقد أكَّد الإسلام قيم الشجاعة والغيرة والحميَّة والضيافة والكرامة، في الوقت الذي رفض الربا والزنا والخمر والإباحية واستحقار المرأة واستعباد البشر وغير ذلك، هذه حقيقة ولكنَّها لا تعني أنَّ الأنبياء عليهم السلام لم يُقدِّموا رسالة إلهية لشعوبهم، بل إنَّ الأنبياء عليهم السلام دائماً حينما يقوموا بحركة تصحيح فإنَّهم يؤشِّرون علىٰ الصحيح بالصواب، وعلىٰ الباطل بالبطلان، وهذه هي مهمَّة الأنبياء عليهم السلام التي يتحدَّث عنها القرآن بالقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وأمَّا أن يكون النبيُّ ﷺ صاحب شخصية قويَّة آسرة، و(كاريزما) كما يُقال، وأن يكون خاض تجربة اجتماعية قبل النبوَّة، وأن يكون قد سمع ثقافات توحيدية كانت موجودة يومئذٍ، فكلُّ ذلك لا يتنافىٰ مع كونه مبعوثاً رسولاً من عند الله تبارك وتعالىٰ، وكلُّ ذلك لا يعني أنَّ هيمنته علىٰ أُمَّته يومئذٍ كانت من منطلقات شخصية دون بُعد إلهي في هذه الشخصية.

إنَّ النظرية الدينية التي صرَّح بها القرآن الكريم تؤكِّد أنَّ الإسناد الإلهي للنبيِّ ﷺ هو الذي ساعده لبسط نفوذه علىٰ أُمَّته وتحقيق نجاحاته الكبرىٰ، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ (الإسراء: ٧٤)، ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنفال: ٦٢ و٦٣).

أن يكـون النبـيُّ ﷺ قـد استمال هـؤلاء وكسب أُولئك ورفض آخرين في حركية اجتماعية وسياسية رائعة، فذلك لا يعني أبداً إلغاء نبوَّته ورسوليته ﷺ.

أن يكـون النبـيُّ ﷺ قويّاً في شخصيته، وحكيماً في سياسته، ورائعاً في جمع الأنصار حوله وكسب ثقتهم العالية، أن يكون كذلك هو جزء من المشهد وليس هو كلُّ المشهد، فالجزء الآخر من المشهد هو قصَّة النبوَّة والرسالة التي تحدَّث عنها القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، والتي تحدَّث عنها القرآن الكريم بالقول: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمانُ﴾ (الشورىٰ: ٥٢)، وهكذا تحدَّث القرآن بالقول: ﴿نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (البقرة: ٩٧).

إذن فالحداثة تريد أن تقرأ جزءاً من المشهد وجانباً من الصورة، في الوقت الذي نحن نقرأ الصورة الكاملة التي يظهر فيها رسول الله ﷺ إنساناً كاملاً كما يقول: «أدَّبني ربّي فأحسن تأديبي»[1]، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب: ٤٥ و٤٦).

ننتهي من هذا العرض إلىٰ أنَّ السُّنَّة التشريعية هي تعبير عن إرادة السماء وقرارات وحيانية التزم بها الرسول ﷺ، ومن هنا كان قول رسول الله هو قول الله تبارك وتعالىٰ وليس هو قول قريش وعرب الجزيرة.

إنَّ دور النبيِّ ﷺ كما يقول القرآن الكريم هو أن ﴿يَأْمُرُهُمْ

---

(١) حديث نبوي مشهور.

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فالمسألة هنا يجب أن لا نتعامل معها على أساس المطلق، إنَّما النبيُّ ﷺ مكلَّف بالتمييز بين ما هي طيِّبات وما هي خبائث، وما هو معروف وما هو منكر، فليس هنا حذف لجميع السلوكيات القائمة، ولا هنا إقرار لجميع تلك الأعراف والسلوكيات، بل القبول بما هو صحيح، ورفض ما هو باطل.

* * *

البحث الرابع
مجالات السُّنَّة النبويَّة

قد تتحرَّك السُّنَّة النبويَّة في المجال العقائدي فنُسمّيها حينئذٍ (السُّنَّة العقائدية)، وقد تتحرَّك في المجال التاريخي فنُسمّيها (السُّنَّة التاريخية)، وقد تتحرَّك في المجال الأخلاقي فنُسمّيها (السُّنَّة الأخلاقية)، وقد تتحرَّك في المجال السياسي ونُسمّيها (السُّنَّة السياسية)، وغير ذلك من مجالات ومساحات النصّ أو السلوك النبوي الشريف.

ويمكن أن نستعرض مجالات أُخرىٰ للسُّنَّة النبويَّة، ولكن لنأخذ نماذج من هذه المجالات التي أشرنا إليها.

نماذج من السُّنَّة العقائدية:

قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالىٰ: لا إله إلَّا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ للجنَّة باباً يقال له: المعروف، لا يدخله إلَّا أهل المعروف»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتَفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٣).

---

(١) أُنظر: أمالي الطوسي، والحلية لأبي نعيم.

(٢) أُنظر: أُصول الكافي/ باب فضل المعروف.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٧٢.

وقال رسول الله ﷺ: «عليٌّ قسيم الجنَّة والنار»(١).

لاحظوا هذه نماذج من أقوال رسول الله ﷺ تتحدَّث في مجال العقيدة وعالم ما وراء الدنيا، فالحديث فيها مرَّة عن الجنَّة، وأُخرىٰ عمَّا بعد الموت، وأُخرىٰ عن كلمة (لا إله إلَّا الله)، وهي سور يتحصَّن به المؤمن من عذاب الله، وهكذا حينما يكون الحديث عن عليٍّ عليه السلام أنَّه قسيم الجنَّة والنار، فهذه جميعاً مسائل عقائدية، وهي جزء من السُّنَّة النبويَّة التي هي حجَّة علينا، وبالتالي فما يثبت من السُّنَّة النبويَّة قولاً صحيحاً من حيث السند ومتواتراً يُولِّد لنا يقيناً علمياً، فإنَّنا يجب أن نعتقد بما جاء في تلك الأحاديث الشريفة.

نماذج من السُّنَّة التاريخية:

لقد تحدَّث رسول الله ﷺ عن مستقبل الأُمَّة الإسلاميَّة، وتحدَّث في غير ذلك من شؤون تاريخ الأُمَّة ماضيها ومستقبلها، وهذا هو ما يمكن أن نصطلح عليه بـ (السُّنَّة التاريخية)، وكما تحدَّث القرآن في التاريخ في مثل قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ (الروم: ٢ - ٣).

ولنأخذ الآن نماذج من أحاديث النبيِّ الأكرم ﷺ في الشأن التاريخي.

١ - قال رسول الله ﷺ: «ستفترق أُمَّتي علىٰ نيف وسبعين فرقة كلّها في النار إلَّا واحدة»(٢)، وهذا الحديث معروف بحديث الفرقة الناجية.

---

(١) أُنظر مصادر الحديث في كتاب المراجعات للسيِّد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله.

(٢) أُنظر مصادر الحديث في كتاب المراجعات للسيِّد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله.

٢ - وقال رسول الله ﷺ: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم حتَّىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه»(١).

٣ - وقال ﷺ: «يا جابر، ستدرك واحداً من ولدي يواطئ اسمه اسمي يبقر العلم بقراً، فإذا أدركته فبلِّغه عنّي السلام»(٢).

٤ - وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتَّىٰ يخرج رجلٌ من ولدي يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلِئَت ظلماً وجوراً»(٣).

٥ - وقال ﷺ لفاطمة الزهراء عليها السلام: «إنَّكِ أوَّل من يلحق بي»، وقال: «كأنّي بها وقد دخل الذلُّ بيتها وهي تستغيث فلا تُغاث»(٤).

٦ - وقال ﷺ: «عمّار جلدة بين عينيَّ، وتقتله الفئة الباغية»(٥).

٧ - وقال ﷺ وهو يتحدَّث عمَّا يلاقيه أهل بيته: «إنَّكم ستلقون من بعدي أثَرَه»(٦).

٨ - وقال ﷺ وهو يتنبَّأ بمقتل الإمام الحسين عليه السلام: «أخبرني جبرائيل أنَّ ولدي هذا مقتول بأرض يقال لها: عامورا»(٧).

هذه مجموعة أحاديث نبويَّة تتناول المستقبل الذي سيعيشه المسلمون بعد رسول الله ﷺ، إذن هي سُنَّة تتحدَّث في المجال التاريخي.

---

(١) أُنظر مصادر الحديث في كتاب المراجعات للسيِّد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله.
(٢) بحار الأنوار/ حياة الإمام الباقر عليه السلام.
(٣) رواه ابن خلدون في مقدَّمته عن مصادره.
(٤) بحار الأنوار/ حياة الزهراء عليها السلام.
(٥) بحار الأنوار/ حرب الإمام عليّ عليه السلام.
(٦) بحار الأنوار/ كتاب الملاحم والفتن.
(٧) أُنظر مصادر الحديث في كتاب (نفس المهموم) للشيخ عبّاس القمّي رحمه الله.

نماذج من السُّنَّة الأخلاقية:

١ - قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من مكارم الأخلاق: تصل من قطعك، وتُعطي من حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك»[١].

٢ - وقال ﷺ: «كلُّ عين باكية يوم القيامة إلَّا ثلاثة أعين: عين غُضَّت عن محارم الله، وعينٌ فاضت من خشية الله، وعين سهرت في سبيل الله»[٢].

٣ - قال أبو ذر الغفاري: أمرني رسول الله ﷺ بسبع: أن أنظر إلىٰ من هو دوني ولا أنظر إلىٰ من هو فوقي، وأن أقول الحقَّ وإن كان مُرّاً، وأن أصل الرحم وإن أدبرت، وأن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني بحبِّ المساكين والدنوِّ منهم، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني بالإكثار من قول: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله فإنَّها من كنوز الجنَّة»[٣].

٤ - وهكذا يأتي في الشأن الأخلاقي قوله ﷺ: «صلة الرحم تزيد في الرزق وتنسئ في الأجل»[٤].

نماذج من السُّنَّة السياسية:

أمَّا في السُّنَّة السياسية وهي عبارة عن أحاديث النبيِّ ﷺ وأفعاله في شأن الحكم والسياسة وإدارة البلاد فيما كان منها معبِّراً عن ثوابت تشريعية كما شرحنا سابقاً، فنستطيع أن نستذكر هنا عدداً من الأحاديث الشريفة:

---

(١) الخصال/ الشيخ الصدوق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) وسائل الشيعة ١٥: ٢٤٤.

١ - قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر»(١).

٢ - وقال ﷺ: «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيَّته»(٢).

٣ - وقال ﷺ: «إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يولّىٰ عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يُستجاب لكم»(٣).

٤ - وقال ﷺ: «من رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلًّا لحُرُم الله ناكثاً لعهد الله فلم يُغيِّر ما عليه كان حقّاً علىٰ الله أن يُدخِله مدخله»(٤).

هذه مجموعة نصوص نبويَّة في مجال الحكم والسياسة.

وأمَّا علىٰ مستوىٰ الممارسة والتطبيق فقد خاض رسول الله ﷺ تجربة سياسية رائعة في الحكم وإدارة البلاد، وهي تُعتَبر سُنَّة عملية كما هي السُّنَّة القولية.

* * *

---

(١) أُنظر: ميزان الحكمة/ الريشهري/ باب الجهاد.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نفس المهموم/ الشيخ عباس القمّي.

البحث الخامس
الإشكال الحداثي على التجربة النبويَّة في الحكم

ويهمّنا أن نستعرض هنا الإشكال الحداثي علىٰ التجربة النبويَّة في الحكم، فقد سبق أنَّهم سجَّلوا قراءتهم الخاصَّة عن السُّنَّة التشريعية، وهاهم يُسجِّلون ذات القراءة نفسها علىٰ السُّنَّة السياسية، وهي تجربة النبيِّ ﷺ وأقواله في شأن الحكم وإدارة المجتمع.

هنا يُسجِّلون ملاحظتين:

الملاحظة الأُولىٰ: أنَّ هذه التجربة السياسية للنبيِّ ﷺ لم تكن تعبيراً عن منهج شرَّعه الله تبارك وتعالىٰ للناس عامَّة بمقدار ما كانت استحقاقاً خاصّاً للرسول الأكرم ﷺ، لاعتبار نبوَّته.

وفي هذا يقول عليّ عبد الرازق[1]: (إنَّ زعامة النبيِّ ﷺ كانت

(١) عليّ عبد الرازق (١٨٨٨ - ١٩٦٦م)، يُعَدُّ كتابه (الإسلام وأُصول الحكم) أوَّل دراسة شرعية تؤسِّس للفكرة العلمانية داخل الوسط الإسلامي، وقد نشره عام (١٩٢٥م) بعد عام من القضاء رسمياً علىٰ مسمّىٰ الخلافة العثمانية، أحدث به معركة ثقافية وسياسية ضخمة. تقوم فكرة الكتاب المركزية علىٰ تفسير الدين الإسلامي بما يتَّفق مع التصوّر الغربي للدين، فرسالة النبيِّ ﷺ ما هي إلَّا رسالة روحية ليس فيها إلَّا البلاغ لوجود (آيات متضافرة علىٰ أنَّ عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرَّد من كلِّ معاني السلطان)، فهي رسالة لا تتضمَّن سلطة حكم، حيث كان النبيُّ ﷺ: (رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة)، وإنَّما أحدث ذلك المسلمون من بعده، وكانت الحكومة التي أقامها الصحابة من بعده حكومة دنيوية ليست من أحكام الإسلام. (ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة). (المحقِّق).

دينية جاءت عن طريق الرسالة لا غير، وقد انتهت الرسالة بموته، وما كان لأحد أن يخلفه في زعامته، كما لم يكن لأحد أن يخلفه في رسالته، وإن وُجِدَت زعامة بعد الرسول بين أتباعه فهي مدنية سياسية، زعامة سلطان وحكومة، لا زعامة دين ووحي)(١).

وفي هذا الضوء فالنبيُّ ﷺ وحده كان من حقِّه أن يمارس الزعامة باعتباره نبيّاً دون أن يرسم ذلك نموذجاً للمجتمع وللأُمَّة الإسلاميَّة بعده لكي تؤسِّس بعده ذات الزعامة نفسها وفي نفس الطريقة والمنهج.

والملاحظة الثانية: أنَّ النظام السياسي الذي رسمه الرسول ﷺ كان هو الآخر تقليداً للتقاليد العربية يومئذٍ، تلك التقاليد التي عرفت منهج الشورىٰ وبعيداً عن منهج الاستخلاف وما شاكل ذلك، وبهذه الطريقة يحاول خليل عبد الكريم أن يُفسِّر ويُجيب علىٰ سؤال: لماذا لم يستخلف النبيُّ ﷺ بعده أحداً؟ وينتهي إلىٰ هذا الجواب: أنَّ التقاليد العربية يومئذٍ التي أقرَّها رسول الله ﷺ لم تكن تؤمن بنظام الاستخلاف، وقد جهد النبيُّ ﷺ أن يكون تابعاً لتلك التقاليد. اُنظر ما يقول:

(وهكذا نعثر علىٰ إجابة عن السؤال السابق: لماذا لم يضع محمّد ﷺ قواعد نظام الحكم، ولم يسمّي خليفته؟ والإجابة لعلَّها وضحت أمام أنظار القارئ: إنَّ محمّداً رأىٰ أنَّه ليس من حقِّه أن يضع نظام الحكم، ولا أن يُعيِّن خليفته من بعده، لأنَّ ذلك موكول ومنوط ومن حق مجلس شورىٰ المسلمين علىٰ ما درج عليه العمل واستمرَّ التقليد في

---

(١) اُنظر: أُصول الحكم في الإسلام/ عليّ عبد الرازق.

القبيلة العربية، إذ لم يكن من حقِّ شيخ القبيلة أن يُعيِّن من يرأسها بعد وفاته...)[1].

ومن هنا يرىٰ محمّد أركون أنَّ الاعتقاد بوجود نظام سياسي في الإسلام هو وهم مركزي كبير، يقول في ذلك:

(كنت قد ذكرت ذلك الوهم المركزي الكبير الذي يملأ الفكر الإسلامي الذي يقول: إنَّ التنظيم السياسي والقانوني للمجتمع ليس من إنتاج بشري، وإنَّما هو توضيح وتطبيق لكلام الله تمَّ بواسطة الجهد التفسيري)[2].

إذن فمن وجهة نظر محمّد أركون أنَّ النظام السياسي في الإسلام هو من إنتاج مشرِّع بشري ولم يكن تعبيراً عن وحي إلهي.

وقريباً من هذا المعنىٰ ما يقوله نصر حامد أبو زيد، يقول: (لا يعني أنَّ سُنَّة النبيِّ وحي بقدر ما يعني أنَّ ما كان يقضي به الرسول هو السُّنَّة المتَّبعة المقبولة)[3].

رؤيتنا للتجربة النبويَّة في الحكم:

نحن نعتقد أنَّ الباحثين من أمثال عليّ عبد الرازق وخليل عبد الكريم سيكونون علىٰ حقٍّ في رؤيتهم إذا اعتقدنا أنَّ النبيَّ ﷺ قد ترك هذه التجربة للمجهول ولم يوص لأحد من بعده، بل بقيت النظرية الإسلاميَّة بعده تتلاعب بها الرؤىٰ من شورىٰ إلىٰ تعيين إلىٰ غلبة بالقوَّة وتهديد بالسلاح وتوارث ثمّ سرقة البيعة إلىٰ شخص واحد لا يعترف

(١) الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميَّة/ خليل عبد الكريم: ١٠٧.

(٢) تاريخية الفكر العربي الإسلامي/ محمّد أركون: ٢١٤.

(٣) أُنظر: الإمام الشافعي/ نصر حامد أبو زيد: ٥٤.

بكـلِّ القـيم والاعتبـارات الدينيـة، فالحـاكم الشــرعي حـين يكـون مرتكبـاً للمعــاصي وقــاتلاً لأولاد الرســول ﷺ وشــارباً للخمــور ولاعبــاً بالجواري والقرود، حينما يصـل الأمـر إلىٰ هـذا الحـال فـإنَّ مـن حـقِّ هـؤلاء الكتّاب أن يرفضـوا وجـود نظريـة سياسـة في الإسـلام. ولكـن حيـنما نعتقـد بـأنَّ الرسـول الأكـرم ﷺ قـد أوصىٰ لأهـل بيتـه عليهم السلام، وحـدَّد مواصـفات الحاكم وطريقة الحكـم وموقـع الأُمَّـة إلىٰ جانـب موقـع الإمـام، فإنَّنـا سـوف نقف أمام صـورة واضـحة ورؤيـة متكاملـة عـن نظـام الحكـم في الإسـلام لا تُبقـي لنـا مجـالاً في التشـكيك في عموميـة السُّـنَّة النبويَّـة في الشـأن السـياسي وعبور حدِّ الزمان والمكان.

إنَّ سُـنَّة الرسـول ﷺ في الشـأن السـياسي وتجربتـه في الحكـم لـو كانـت مجـرَّدة عـن التصـريحات والبيانـات والآيـات القرآنيـة والنصـوص النبويَّة الشـريفة الدالّة علىٰ عموميـة هـذه التجربـة لأمكـن لقائـل أن يقـول: إنَّها تجربة شخصية مختصَّـة بـالنبيِّ الأكـرم ﷺ كـما كانـت تجربـة النبـيِّ داود والنبيِّ سليمان عليهما السلام.

لكنَّنا نلاحظ في تجربة الحكم النبوي أمرين:

الأوَّل: أنَّ هذه التجربـة التـي دامـت عشـر سـنوات أُحيطـت بمئـات النصـوص النبويَّـة الشــريفة ومعهـا مئـات النصـوص القرآنيـة الكريمـة الدالّـة علىٰ عموميـة هـذه التجربـة وأنَّهـا بمثابـة التأسـيس لمشــروع كامـل يجـب أن يسـتمرَّ بعـد النبـيِّ ﷺ، فهـي ليسـت مجـرَّد حادثـة وقعـت في التـاريخ إنَّـما هـي تجربـة محفوفـة بـدلائل منطوقـة تشـرح عموميـة هـذه التجربـة وأهـدافها المسـتقبلية واعتبارهـا مشــروعاً متكـاملاً للمجتمـع الإنساني.

الثاني: أنَّ المراجعة في هذه النصوص النبويَّة الشريفة تكشف عن وجود نظرية متكاملة في الإسلام شرحها رسول الله ﷺ كما مارسها علىٰ الأرض.

إذن فنحن أمام سُنَّة نبويَّة لا تقبل اختزالها بسنوات النبيِّ ﷺ، ولا هي ممارسة فردانية، إنَّما هي نظام متكامل علىٰ المستوىٰ السياسي والقضائي والاقتصادي والاجتماعي، وبهذه الطريقة يجب أن نُقيِّم ونفهم السُّنَّة النبويَّة السياسية.

حينما قال رسول الله ﷺ: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيَّته»، وحينما قال ﷺ: «ما الإمام إلَّا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بالحقِّ، الحابس نفسه علىٰ ذات الله»، وحينما قال ﷺ: «من رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلًّا لحُرُم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسُنَّة رسول الله ﷺ فلم يُغيِّر عليه كان حقّاً علىٰ الله أن يُدخِله مدخله».

الرسول الأكرم ﷺ بهذه النصوص يتحدَّث عن نظرية سياسية كاملة، وقد تحدَّث بها النصُّ القرآني أيضاً في عشرات الآيات القرآنية في نمط العلاقات الخارجية والداخلية، ونمط الإدارة والحكم، فنحن إذن أمام موسوعة حديثية وقرآنية تتحدَّث عن نظام كامل في الشأن السياسي وعلىٰ المدىٰ المستقبلي، فلا يمكن حصره بعصر التجربة النبويَّة.

ومعنىٰ ذلك أنَّ ما يحاوله الحداثيون من اعتبار السُّنَّة النبويَّة السياسية وتجربة النبيِّ ﷺ في الحكم هي تجربة ذات بعد شخصي مختصٌّ بالنبيِّ الأكرم ﷺ، هذه المحاولة هي قفز علىٰ النصوص الحديثية والقرآنية، ولا تملك ما يُبرِّرها.

وقد يكون شاهداً علىٰ ذلك أنَّ الرسول الأكرم ﷺ لم يترك الأُمَّة

علىٰ سبيل حالها وهو يودِّعها، بل رسم لها المسار وحدَّد لها الطريق وعيَّن لها من يقودها بعده، وهذه هي نظرية شيعه أهل البيت عليهم السلام، وبالتأكيد أنَّ هذا الإصرار من النبيِّ صلى الله عليه وآله حتَّىٰ كان يقول ساعة الموت: «آتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لم تضلّوا بعدي أبداً»، و قد عرف من حوله أنَّه يريد الوصيَّة لعليٍّ عليه السلام التي سبق أن أكَّدها في حجَّة الوداع في غدير خُمٍّ حينما قال: «يوشك أن أُدعىٰ فأُجيب»، ثمّ قال: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»، هذه التأكيدات النبويَّة دلالة أُخرىٰ علىٰ أنَّ مشروع التجربة السياسية في الإسلام ليس مشروعاً شخصانياً بشخص النبيِّ صلى الله عليه وآله ومؤقَّتاً بفترة حياة النبيِّ صلى الله عليه وآله كما يقوله عليّ عبد الرازق، بل إنَّ هذه التأكيدات النبويَّة شاهد صدقٍ علىٰ حرص النبيِّ صلى الله عليه وآله علىٰ ديمومة هذه التجربة ومواصلتها من بعده.

* * *

البحث السادس
نماذج من السيرة النبويَّة

لقد ذكرنا سابقا أنَّ السُنَّة النبويَّة تشمل أقوال النبيِّ ﷺ، وكما تشمل أفعاله وسلوكه، وقد نقلنا لحدِّ الآن عدداً كبيراً من أقواله في مختلف المجالات، ولنأخذ الآن نماذج من سلوكه وأفعاله ﷺ:

١ - قال الإمام عليّ عليه السلام: «كان رسول الله يأكل علىٰ الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرفع ثوبه بيده، ويركب الحمار العاري، ويُردِف خلفه».

٢ - قال الإمام الحسين عليه السلام في وصف رسول الله ﷺ: «كان يبكي حتَّىٰ يبتلَّ مصلّاه خشيةً من الله من غير جرم».

٣ - قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ رسول الله ﷺ كان لا يقوم من مجلس وإن خفَّ حتَّىٰ يستغفر الله خمساً وعشرين مرَّة».

٤ - كان رسول الله ﷺ يقول: «خمسة لا أدعهنَّ حتَّىٰ الممات: الأكل علىٰ الأرض مع العبيد، وركوب الحمار مؤكفاً، وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف، والسلام علىٰ الصبيان، ليكون سُنَّة من بعدي»

٥ - كان ﷺ إذا حدَّث بحديث تبسَّم في حديثه.

٦ - وجاء في وصفه: «وما انتصر لنفسه من مظلمة حتَّىٰ تُنتَهك محارم الله، فيكون حينئذٍ غضبه لله تبارك وتعالىٰ».

٧ - «كان إذا أكل مع القوم كان أوَّل من يبدأ وآخر من يرفع يده،

وكان إذا أكل أكل ممَّا يليه، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده، وإذا شرب شرب ثلاثة أنفاس».

٨ - «وكان ﷺ يستشير أصحابه ثمّ يعزم علىٰ ما يريد».

٩ - «وكان ﷺ إذا بُشِّرَ بجارية قال: ريحانة، ورزقها علىٰ الله تعالىٰ»[1].

هذه نماذج من السيرة الذاتية لنبيِّنا الأكرم ﷺ، ويجب أن نلاحظ هنا أنَّ هذه الصور لم تكن منطلقة من البعد البشري الذاتي له بمقدار ما كانت تعبيراً عن سلوك كمالي، وتعبيراً عن شخصية الإنسان الكامل، ومن هنا فهي ذات مداليل تشريعية في محتواها العامّ وليس في أشكالها التطبيقية، فإنَّ ركوب الحمار ولبس الصوف هو ذو مدلول أعمق من الحالة الشكلية، فهو يعني التواضع والتبسّط بالحياة والابتعاد عن الترف، وهذا هو مدلول تشريعي.

ولذا قال ﷺ: «ليكون سُنَّة من بعدي» في الفقرة السابقة (رقم ٤)، وهي تُلقي بظلالها علىٰ كلِّ المفردات الأُخرىٰ في الرواية، حيث تدلُّ علىٰ أنَّ رسول الله ﷺ يلتزم بتلك السلوكيات باعتبارها نماذج أخلاقية رائعة تكون سُنّةً لمن بعده.

نتيجة الفصل الرابع:

كشف هذا الفصل عن أنَّ السُّنَّة النبويَّة التي نتحدَّث عن حجّيتها هي السُّنَّة التشريعية التي صدرت من رسول الله ﷺ بداعي التشريع، فيما ناقش المقولة الحداثية التي ترىٰ أنَّ هذه السُّنَّة التشريعية من رسول الله ﷺ هي تقليد واتِّباع للأعراف العربية السائدة يومئذٍ.

---

(١) أُنظر هذه الأحاديث في كتاب (سنن النبيِّ ﷺ) للعلَّامة الطباطبائي رحمه الله.

ثـمّ اسـتعرض هـذا الفصـل التجربـة النبويَّـة في الحكـم والسياسـة، معتبراً إيّاهـا سُـنَّة تشـريعية للنبـيِّ ﷺ، ونـاقش هنـا المقولـة الحداثيـة التـي تـرىٰ أنَّ التجربـة السياسـية للنبـيِّ ﷺ هـي تجربـة مختصَّـة بـه ﷺ ولا يمكن تعميمها إلينا واعتبارها حجّةً علينا.

وانتهـىٰ هـذا الفصـل إلىٰ القـول بـأنَّ الإسـلام يملـك نظريـة سياسـية في الحكم انطلاقاً من نصوص القرآن الكريم وسُنَّة رسول الله ﷺ.

* * *

مصادر التأليف

١ - **القرآن الكريم**.

٢ - **الاختصاص**: الشخ المفيد/ ت عليّ أكبر الغفاري/ ٢٠٠٩م/ مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

٣ - **الإسلام وأُصول الحكم**: عليّ عبد الرازق/ دار مكتبة الحياة/ بيروت.

٤ - **أُصول الفقه**: محمّد رضا المظفَّر/ ١٩٩٠م/ منشورات الأعلمي/ بيروت.

٥ - **الأمالي**: الشيخ الطوسي/ ت بهراد الجعفري وعليّ أكبر الغفاري/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.

٦ - **الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية في الإسلام**: نصر حامد أبو زيد/ ٢٠٠٧م/ المركز الثقافي العربي/ بيروت.

٧ - **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة**: أسد حيدر/ ٢٠٠٤م/ دار الكتاب الإسلامي/ إيران.

٨ - **بحار الأنوار**: العلَّامة المجلسي/ ١٤٣٠هـ/ دار إحياء الكتب الإسلاميَّة/ إيران.

٩ - **البرهان في تفسير القرآن الكريم**: هاشم البحراني/ ٢٠٠٦م/ منشورات مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

١٠ - **بسط التجربة النبويَّة**: عبد الكريم سروش/ ٢٠٠٩م/ دار الجمل/ ألمانيا.

١١ - **تاريخ التشريع الإسلامي**: محمّد الخضري/ دار القلم/ بيروت.

١٢ - **تاريخ الطبري**: الطبري/ ت محمّد أبو الفضل إبراهيم/ دار المعارف/ مصر.
١٣ - **تاريخ اليعقوبي**: اليعقوبي/ ت عبد الأمير المهنّا/ ٢٠١٠م/ مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت.
١٤ - **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**: محمّد أركون/ المركز الثقافي العربي/ بيروت.
١٥ - **تذكرة الحفّاظ**: الذهبي/ ت عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي/ ١٣٧٤هـ/ دائرة المعارف العثمانية/ الهند.
١٦ - **تفسير نور الثقلين**: عبد عليّ بن جمعة العروسي الحويزي/ انتشارات إسماعيليان/ إيران.
١٧ - **الجذور التاريخية للشريعة الإسلاميَّة**: خليل عبد الكريم/ ١٩٩٠م/ سينا للنشر.
١٨ - **الخصال**: الشيخ الصدوق/ مؤسَّسة النشر الإسلامي/ قم.
١٩ - **الخطاب والتأويل**: نصر حامد أبو زيد/ ط ٣/ ٢٠٠٨م/ المركز الثقافي العربي/ بيروت.
٢٠ - **دفاع عن القرآن الكريم**: صدر الدين القبانچي.
٢١ - **سنن ابن ماجة**: ابن ماجة القزويني/ ت شعيب الأرناؤوط وآخرون/ دار الرسالة العالمية/ مصر.
٢٢ - **سنن أبي داود**: أبو داود السجستاني/ ت شعيب الأرناؤوط وآخرون/ ٢٠٠٩م/ دار الرسالة/ مصر.
٢٣ - **السنن الكبرىٰ**: البيهقي/ ت محمّد عبد القادر عطا/ ٢٠٠٣م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

٢٤ – **سنن النبيِّ ﷺ**: العلَّامة الطباطبائي/ ١٤١٦هـ/ مؤسَّسة النشر الإسلامي/ إيران.

٢٥ – **سنن النسائي**: النسائي/ ١٩٩٥م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

٢٦ – **سيرة ابن هشام**: ابن هشام/ ت عمر عبد السلام تدمري/ ١٩٩٠م/ دار الكتاب العربي/ بيروت.

٢٧ – **السيرة النبويَّة**: ابن كثير/ ت مصطفىٰ عبد الواحد/ ١٩٧٦/ دار المعرفة/ بيروت.

٢٨ – **شدو الربابة في أحوال مجتمع الصحابة**: خليل عبد الكريم/ ١٩٩٨م/ مؤسَّسة الانتشار العربي/ بيروت.

٢٩ – **صحيح ابن حبّان**: ابن حبّان/ ت أحمد شاكر/ ١٩٥٢م/ دار المعارف/ مصر.

٣٠ – **صحيح البخاري**: البخاري/ ١٩٩٣م/ دار ابن كثير/ بيروت.

٣١ – **صحيح مسلم**: مسلم النيسابوري/ ت نظر بن محمّد الفاريابي/ ٢٠٠٦م/ دار طيبة/ بيروت.

٣٢ – **الصحيح من سيرة النبيِّ الأعظم ﷺ**: جعفر مرتضىٰ العاملي/ ١٩٩٥م/ دار الهادي/ بيروت.

٣٣ – **الطبقات الكبرىٰ**: ابن سعد/ ت زياد محمّد منصور/ ٢٠٠١م/ مكتبة الخانجي/ مصر.

٣٤ – **عيون أخبار الرضا عليه السلام**: الشيخ الصدوق/ انتشارات الشريف الرضي/ إيران.

٣٥ – **القراءة المنسيَّة**: محسن كديور/ مؤسَّسة الانتشار العربي/ بيروت.

٣٦ – **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير الجزري/ ١٩٨٧م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

٣٧ - **كنز العمّال**: المتَّقي الهندي/ ت صفوت السقّا وبكري الحيّاني/ مؤسَّسة الرسالة/ بيروت.
٣٨ - **لمحات الأُصول**: تقرير بحث البروجردي للسيِّد الخميني/ ١٤٢١هـ/ مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني/ إيران.
٣٩ - **مجمع الزوائد**: الهيثمي/ ت محمّد عبد القادر أحمد عطا/ ٢٠٠١م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
٤٠ - **المحلّىٰ**: ابن حزم/ ت عبد الغفّار سليمان البنداري/ ٢٠٠٧م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
٤١ - **المذاهب الإسلاميَّة الخمسة (المذهب المالكي)**: محمّد سعكال الجزائري.
٤٢ - **مرآة العقول**: العلَّامة المجلسي/ ١٤٠٤هـ/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.
٤٣ - **المراجعات**: عبد الحسين شرف الدين/ ت حسين الراضي/ ١٤٠٢هـ/ بيروت.
٤٤ - **مستدرك الوسائل**: المحدِّث النوري/ مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث/ قم.
٤٥ - **المستدرك علىٰ الصحيحين**: الحاكم النيسابوري/ ت مصطفىٰ عبد القادر عطا/ ٢٠٠٢م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
٤٦ - **مسند أحمد**: أحمد بن حنبل/ ت أحمد معبد عبد الكريم/ ٢٠٠٨م/ دار المنهاج/ الناشر: جمعية المكنز الإسلامي/ السعودية.
٤٧ - **مطارحات في نقد الفكر الحداثي**: صدر الدين القبانچي.
٤٨ - **معاني الأخبار**: الشيخ الصدوق/ تصحيح عليّ أكبر الغفاري/ ١٩٧٩م/ دار المعرفة/ بيروت.

٤٩ - **المعجم الأوسط**: الطبراني/ ت طارق بن عوض الله ومحسن الحسيني/ ١٩٩٥م/ دار الحرمين/ السعودية.
٥٠ - **المعجم الكبير**: الطبراني/ ت حمدي عبد المجيد السلفي/ مكتبة ابن تيمية/ القاهرة.
٥١ - **معرفة السنن والآثار**: البيهقي/ ت عبد المعطي أمين قلعجي/ ١٩٩م/ دار الوعي/ حلب.
٥٢ - **المغازي**: الواقدي/ ت مارسدن جونس/ ١٩٨٤م/ عالم الكتب/ بيروت.
٥٣ - **مفاتيح الجنان**: الشيخ عبّاس القمّي.
٥٤ - **مكارم الأخلاق**: الطبرسي/ مكتبة الألفين/ الكويت.
٥٥ - **من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث**: جورج طرابيشي/ ٢٠١٠م/ دار الساقي/ بيروت.
٥٦ - **الموطأ**: الإمام مالك بن أنس/ ت محمّد فؤاد عبد الباقي/ ١٩٨٥م/ مصطفىٰ البابي الحلبي/ مصر.
٥٧ - **ميزان الحكمة**: الريشهري/ ١٤٢٢هـ/ دار الحديث/ قم.
٥٨ - **النصُّ والاجتهاد**: عبد الحسين شرف الدين/ ٢٠٠٨م/ دار القارئ للطباعة/ بيروت.
٥٩ - **نفس المهموم**: الشيخ عبّاس القمّي/ دار المحجَّة البيضاء/ بيروت.
٦٠ - **نهج البلاغة**: الشريف الرضي.
٦١ - **وسائل الشيعة**: الحرّ العاملي/ ١٤١٤هـ/ مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث/ قم.

* * *

مصادر التحقيق

١ - **أبو هريرة**: السيِّد عبد الحسين شرف الدين.
٢ - **الأُصول العامَّة للفقه المقارن**: محمّد تقي الحكيم/ ١٩٧٩م/ مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام/ قم.
٣ - **أضواء علىٰ السُّنَّة المحمّدية**: محمود أبو رية/ ١٩٥٨م/ دار التأليف/ مصر.
٤ - **الأعلام**: خير الدين الزركلي/ ٢٠٠٢م/ دار العلم للملايين/ بيروت.
٥ - **أعيان الشيعة**: محسن الأمين العاملي/ ١٩٨٧م/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت.
٦ - **اقتصادنا**: محمّد باقر الصدر/ دار التعارف/ بيروت.
٧ - **الإمام الشافعي فقيه السُّنَّة الأكبر**: عبد الغني الدقر/ ١٩٩٦م/ دار القلم/ دمشق.
٨ - **تاريخ بغداد**: الخطيب البغدادي/ ١٩٣١م/ مكتبة الخانجي/ القاهرة.
٩ - **التفسير الكاشف**: محمّد جواد مغنية/ ١٩٦٨م/ دار العلم للملايين/ بيروت.
١٠ - **التفسير الكبير**: الفخر الرازي/ ٢٠٠٤م/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
١١ - **تقييد العلم**: الخطيب البغدادي/ دار الاستقامة/ السعودية.
١٢ - **توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد**: آغا بزرك الطهراني/ ١٤٠١هـ/ الخيّام/ قم.

١٣ - **الحديث النبوي بين الرواية والدراية**: جعفر السبحاني/ ١٤١٩هـ/ اعتماد/ قم.

١٤ - **رسائل الشريف المرتضىٰ**: الشريف المرتضىٰ/ ١٤٠٥هـ/ سيِّد الشهداء/ قم.

١٥ - **السُّنَّة في الشريعة الإسلاميَّة**: محمّد تقي الحكيم.

١٦ - **شيخ المضيرة أبو هريرة**: محمود أبو رية/ ١٩٩٣م/ مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

١٧ - **طبقات أعلام الشيعة**: آقا بزرك الطهراني/ ٢٠٠٩م/ دار إحياء التراث/ بيروت.

١٨ - **عصمة الأنبياء**: فخر الدين الرازي/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

١٩ - **الفتاوى الواضحة**: محمّد باقر الصدر/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف.

٢٠ - **فهرس التراث**: محمّد حسين الحسيني الجلالي/ ١٤٢٢هـ/ دليل ما/ قم.

٢١ - **الكافي**: محمّد بن يعقوب الكليني/ ١٣٨٨هـ/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.

٢٢ - **كنز العمّال**: المتَّقي الهندي/ ت صفوت السقّا وبكري الحيّاني/ مؤسَّسة الرسالة/ بيروت.

٢٣ - **مجمع البيان**: الشيخ الطبرسي/ ٢٠٠٥م/ دار العلوم/ بيروت.

٢٤ - **مجمع الزوائد**: الهيثمي/ سليمان بن عبد الله السويكت/ مجمع الملك فهد للطباعة/ السعودية.

٢٥ - **مفهوم النصِّ**: نصر حامد أبو زيد/ المركز الثقافي العربي/ بيروت.

٢٦ - **الميزان في تفسير القرآن**: العلَّامة الطباطبائي/ ١٩٩٧م/ منشورات مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

٢٧ - **النصُّ والاجتهاد**: عبد الحسين شرف الدين/ ١٤٠٤هـ/ سيِّد الشهداء/ قم.

٢٨ - **وفيات الأعيان**: ابن خلّكان/ ت إحسان عبّاس/ ١٩٧٨م/ دار صادر/ بيروت.

* * *

فهرست الموضوعات

مقدَّمة المؤلِّف ٣
التعريف بالكتاب ٣
نظرية الكتاب ٤
كلمة شكر وتقدير ٤
المدخل: السُّنَّة النبويَّة بين رؤيتين ٧
معنىٰ السُّنَّة ٩
الرؤية الإسلاميَّة للسُّنَّة ٩
الرؤية الحداثية للسُّنَّة ١٠
بحوث الكتاب ١١
الفصل الأوَّل: السُّنَّة النبويَّة في الرؤية الإسلاميَّة ١٣
البحث الأوَّل: حجّية السُّنَّة النبويَّة والشواهد عليها ١٥
حجّية السُّنَّة النبويَّة ١٥
الشواهد علىٰ حجّية السُّنَّة ١٦
الشاهد الأوَّل: القرآن الكريم ١٧
مهمّات النبيِّ ﷺ ٢٢
قدسية النبيِّ ﷺ في القرآن الكريم ٢٤
مثال للتواصل التعليمي بين الله تعالى والنبيِّ ﷺ ٢٦
مثال آخر للتواصل ٢٨

النبيُّ له حقُّ التشريع ٢٩
نوعان للوحي ٣٢
الشاهد الثاني: الأحاديث النبويَّة الشريفة ٣٣
إشكال وجواب ٣٨
الشاهد الثالث: الدليل العقلي ٣٩
قصص شاهدة ٤٠
١ - قصَّة صلح الحديبية ٤١
٢ - قصَّة حاطب ابن أبي بلتعة ٤٤
٣ - قصَّة ناقة النبيِّ ﷺ: ٤٦
خلاصة البحث ٤٧
البحث الثاني: لماذا الحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة؟ ٤٨
أسباب الحاجة إلىٰ السُّنَّة النبويَّة ٤٩
هل القرآن الكريم ناقص؟ ٥٣
العقل لا يغني عن السُّنَّة ٥٣
خلاصة البحث ٥٥
البحث الثالث: عالمية السُّنَّة النبويَّة ٥٦
أدلَّة العالمية ٥٧
أوَّلاً: الدليل القرآني ٥٨
ثانياً: الدليل الروائي ٥٩
ثالثاً: الدليل التاريخي ٥٩
إشكال وجواب ٦١
رابعاً: دليل طبيعة التشريع الإسلامي ٦٢

خامساً: دليل الرؤية المستقبلية ٦٤
سادساً: دليل الشمولية ٦٤
خلاصة هذا البحث ٦٥
البحث الرابع: مشكلة مستجدّات العصر وطرق معالجتها ٦٦
مشكلة مستجدّات العصر ٦٦
ما هي مستجدّات العصر؟.. ٦٦
المستجدّ الأوَّل: تسخير الطبيعة ٦٦
المستجدّ الثاني: ثقافات جديدة ٦٦
المستجدّ الثالث: انتهاء اليقين والجزمية ٦٧
ما هي المشكلة؟ ٦٧
المعالجة الحداثية للمشكلة.. ٦٨
نظرية (الاجتهاد) تعالج المشكلة ٦٩
لماذا الاجتهاد في مقابل النصِّ؟.. ٧٣
محاولات أُخرىٰ ٧٦
سُنَّة أهل البيت عليهم السلام ٧٨
عناصر المعالجة الشيعية للمشكلة... ٧٩
معالجة الفكر السُّنّي للمشكلة:... ٨٢
المعالجة الحداثية للمشكلة.. ٨٢
خلاصة البحث ٨٣
البحث الخامس: عصمة النبيِّ صلى الله عليه وآله ٨٤
معنىٰ العصمة: ٨٤
لماذا البحث عن العصمة؟ ٨٥

١ - الرؤية الإسلاميَّة لعصمة النبيِّ ﷺ ٨٥
محاور العصمة.. ٨٥
العصمة هل هي جهد ذاتي أم تسديد إلهي؟......................... ٨٩
عوامل العصمة ٩٢
الدليل علىٰ العصمة.. ٩٢
الدليل القرآني ٩٢
الأحاديث الشريفة ٩٤
الدليل العقلي.. ٩٤
٢ - الرؤية الحداثية لعصمة النبيِّ ﷺ ٩٥
أسباب التشكيك الحداثي بالعصمة ٩٦
العامل الأوَّل: الفهم البشري للوحي ٩٦
العامل الثاني: الآيات القرآنية النافية للعصمة..................... ٩٧
مناقشة دلالة الآيات... ٩٩
العامل الثالث: الروايات النافية للعصمة.......................... ١١٠
مناقشة الروايات ١١١
خلاصة هذا البحث ١٢٢
نتيجة الفصل الأوَّل ١٢٢
الفصل الثاني: السُّنَّة النبويَّة في الرؤية الحداثية ١٢٥
خلاصة الرؤية الحداثية ١٢٧
هدف الرؤية الحداثية ١٢٨
البحث الأوَّل: الشبهات الحداثية (عرض وقراءة) ١٣٤
الشبهات القديمة... ١٤٠

خلاصة البحث ١٤٦
البحث الثاني: نقد الشبهات الحداثية ١٤٨
السُّنَّة النبويَّة هل هي اجتهاد شخصي أم تعليم إلهي؟ ١٤٨
السُّنَّة تعليم إلهي ١٤٨
نوافذ أُخرىٰ للتعليم الإلهي ١٥٤
شواهد التعليم الإلهي ١٥٥
نماذج من علم النبيِّ ﷺ ١٥٧
وحي القرآن ووحي السُّنَّة: ١٥٩
مسؤولية النبيِّ ﷺ لا تسمح له بالاجتهاد الشخصي ١٦٠
اعتراضات بعض الصحابة ١٦٢
الجواب علىٰ اعتراض بعض الصحابة ١٦٥
الصحابة في نظرية أهل البيت عليهم السلام ١٦٨
ما هي التاريخانية؟ ١٧٠
الارتباط بالله يحلُّ المشكلة ١٧١
بشرية النبيِّ ﷺ ١٧٥
تشريع الأذان ١٧٩
الروايات الصحيحة في تشريع الأذان ١٧٩
تأخّر التدوين ١٨٠
مقاييس الصحَّة في المدوَّنات الحديثية ١٨٤
الموسوعات الحديثية الكبرىٰ ١٨٥
سيرة العقلاء تعتمد علىٰ أخبار الثقاة ١٨٦
تطوّر العقل البشري ١٨٧

نتيجة الفصل الثاني ١٨٨
الفصل الثالث: سُنَّة أهل البيت عليهم السلام ١٨٩
البحث الأوَّل: عقيدتنا في سُنَّة أهل البيت عليهم السلام ١٩١
الاعتقاد الأوَّل ١٩١
الاعتقاد الثاني ١٩٣
الاعتقاد الثالث ١٩٤
الاعتقاد الرابع ١٩٧
البحث الثاني: الإمامة الفكرية والإمامة السياسية ٢٠٠
البحث الثالث: مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام ٢٠٣
نتيجة الفصل الثالث ٢٠٨
الفصل الرابع: أقسام السُّنَّة النبويَّة ومجالاتها ٢١١
البحث الأوَّل: المقصود بالسُّنَّة النبويَّة ٢١٣
نماذج من السلوك الشخصي ٢١٥
نماذج من السلوك الحكومي ٢١٦
البحث الثاني: أقسام السُّنَّة النبويَّة ٢١٨
البحث الثالث: الإشكال الحداثي على السُّنَّة التشريعية ٢٢٠
السُّنَّة النبويَّة تشريع لا تقليد ٢٢٢
أعراف أقرَّها النبيُّ صلى الله عليه وآله ٢٢٢
أعراف رفضها النبيُّ صلى الله عليه وآله ٢٢٣
البحث الرابع: مجالات السُّنَّة النبويَّة ٢٢٨
نماذج من السُّنَّة العقائدية ٢٢٨
نماذج من السُّنَّة التاريخية ٢٢٩

نماذج من السُّنَّة الأخلاقية.. ٢٣١

نماذج من السُّنَّة السياسية ٢٣١

البحث الخامس: الإشكال الحداثي على التجربة النبويَّة في الحكم ٢٣٣

رؤيتنا للتجربة النبويَّة في الحكم ٢٣٥

البحث السادس: نماذج من السيرة النبويَّة.. ٢٣٩

نتيجة الفصل الرابع ٢٤٠

مصادر التأليف.. ٢٤٣

مصادر التحقيق ٢٤٩

فهرست الموضوعات.. ٢٥٣

❊ ❊ ❊